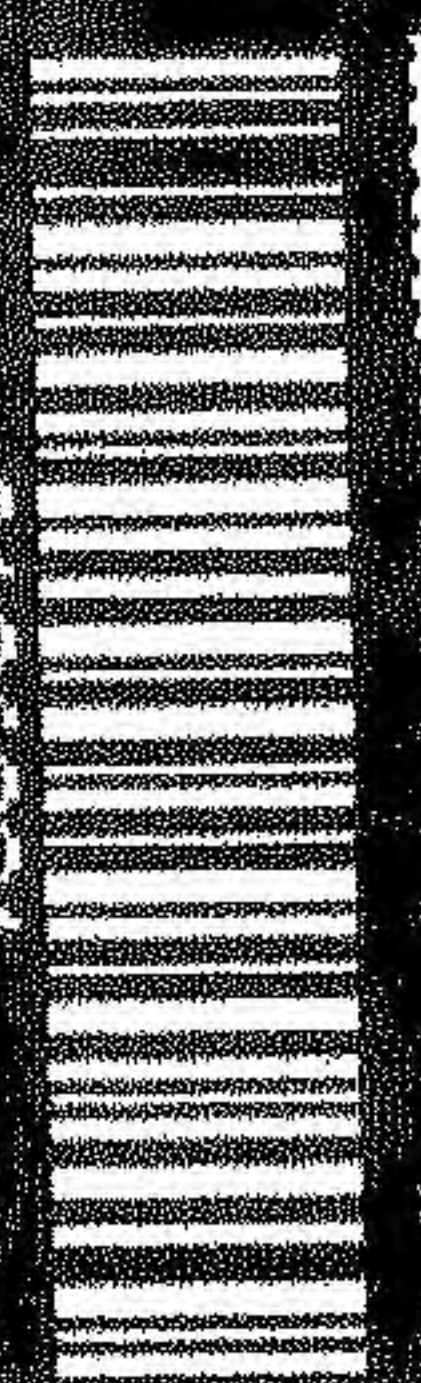




Bibliotheca Alexandrina



6166961



أصول العقيدة الإسلامية

التي قررها الإمام

أبو جعفر أحمد بن سيّدة الأزدية الطجّاوي

مع منسّخت الخبائها

عبد المنعم صالح علي العزبي

من شرح العلامة

علي بن أبي العزّاز الأذرعي

وهو شرح شامل للعقيدة الإسلامية وقومها هيئتها الصّاح

وأغنى ما دأب على صيغهاج النصّوص بلأناؤيد ولا يقطيند

الطبعة الاولى

١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م



دار الوفاء للطباعة والنشر
شارع الجامعة - تقسيم السنودى
المنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر :

إن نقطة البداية في مسيرة الإصلاح الإسلامى الحاضر إنما تتمثل في التعريف بعقيدة التوحيد الخالصة من الشوائب والمبتدعات ، وإن المنطلق الصحيح للصحة الإسلامية المعاصرة لابد أن ينبعث من هذه الحقيقة ، ليرى الجيل الجديد المقدام من شباب الإسلام وفق المعالم الأصلية لهذه العقيدة ، وليستترك على العامة من الناس ما قد يكون علق بموازينهم من الإختلاطات والأوهام .

وما كان لمجددى فكر الأمة أن يغفلوا عن إدراك هذا البعد الأساسى والرئيسى في مسيرة الإصلاح والإعداد الجديد للعقل المسلم الذى غفل عن عقيدته فترة من الزمان فهوت ضروحة العالية وبعدها عن التحليق .

وليس هناك من سبب يعطى هذه الصحة قوتها ، وبعدها الإيمانى العميق في أعماق النفوس ، ويمنحها قوتها التى يكون بها نفاذها ، ويضمن لها استمرارها الذى يرفعها عن الهبوط إلى مستوى الفورات الهامشية الطارئة ، إلا أن تعمق العقيدة في النفس وتستقر في القلب وتجري من صاحبها مجرى الدم في عروقه .

ولهذا حرص الأستاذ عبد المنعم صالح - جزاه الله خيراً - على أن يقوم بتهديب هذا الكتاب وإخراجه في صورة يسيرة يستضيء به ناشئة الدعوة وشبابها في طريقهم الطويل .

وقد أجمع علماء الأمة وثقات الفقهاء على أن عقيدة الإمام الطحاوى - رحمه الله - عقيدة سليمة صحيحة تلتزم الفهم السلفى السنى القديم الأول ، البرىء من التأويل والتحميل والتعطيل ويكادون يجمعون كذلك على أن هذا الشرح الذى دونه القاضى ابن أبى العز الأذرعى قد أصاب فهم مراد الإمام الطحاوى ، وفيه حرص تام على القرب من نصوص القرآن والحديث ، مع تغليب قول جمهور الفقهاء فى مسائل الخلاف ، بعيداً عن الشذوذ والتكلف .

وقد طبع الشرح للمرة الأولى سنة ١٣٤٩ هـ بمكة المكرمة وعنى بتصحيحه والإشراف على طبعه لجنة من المشايخ والعلماء برياسة العلامة الكبير الشيخ عبد الله بن حسن بن حسين آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - ثم أعيد طبع هذا الشرح فى مصر بعناية الشيخ المحدث العلامة أحمد محمد شاكر - رحمه الله - وأعيد طبعه ثالثة بعناية الشيخ المحقق محمد ناصر الدين الألبانى - حفظه الله - وكلهم قد اجتهد فى ضبطه وزاد خيراً ، ولكن اعتماد الأستاذ عبد المنعم صالح كان على طبعة الشيخ أحمد محمد شاكر ومقدماتها .

والطحاوى صاحب هذه العقيدة هو إمام محدث فقيه ولد سنة تسع وثلاثين ومائتين بمصر وتلقى العلم على خاله إسماعيل بن يحيى المزنى أفقه أصحاب الشافعى ، ولكنه أصبح بعد ذلك من أتباع مذهب أبى حنيفة وترك خاله ، دون أن يمنعه ذلك من مخالفة بعض أقوال أبى حنيفة وترجيح ما ذهب إليه غيره .

وقد تخرج الطحاوى بكثير من الشيوخ حتى أرى عددهم على ثلاثمائة شيخ ، وأثنى عليه غير واحد من أهل العلم .

قال ابن يونس : كان الطحاوى ثقة ثباتاً فقيهاً عاقلاً ، لم يخلف مثله .

وهذه الشهادة كافية وحدها .. فإن أقوال ابن يونس فى المصرين هى أوثق الأقوال .

وقال الذهبي في تاريخه الكبير : الفقيه المحدث الحافظ أحد الأعلام ، وكان ثقة ثبتاً فقيهاً عاقلاً .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية : هو أحد الثقات الأثبات ، والحفاظ الجهابذة .

وأما تصانيفه - رحمه الله - فهي غاية في التحقيق والجمع وكثرة الفوائد وحسن العرض .

فمن مصنفاته « العقيدة الطحاوية » ، وهي التي تقدمها مع منتخبات من شرحها ، وهي على صغر حجمها غزيرة النفع ، سلفية المنهج ، من غير حيدة عنه ، ولا تمحل .

ومنها كتاب « معاني الآثار » ويعرض فيه الأبحاث الفقهية مقرونة بدليلها ، ويذكر في غضون بحثه المسائل الخلافية ، ويسرد أدلتها ويناقشها ، ثم يرجع ما استبان له من الصواب منها ، وهذا الكتاب يدرّب صاحب العلم على التفقه ويربّي فيه ملكة الإستنباط ، ويكون له شخصية مستقلة . ومنها : كتاب « مشكل الآثار » وهو كتاب جليل القدر عظيم النفع ، يسوق الأحاديث التي تبدو لأول وهلة أنها متعارضة ، ثم يأخذ في دفع التعارض بطريقة فذة ، وبراعة فائقة . ومنها : مختصر في الفقه على فروع الحنفية .

وكل هذه الكتب مطبوعة مشهورة ، وله تصانيف أخرى .

وقد توفي رحمه الله سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة .

وأما الشارح فهو العلامة صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الأذرعي الحنفى ، قاضى القضاة بدمشق ، ثم بالديار المصرية ، ثم بدمشق ، ولد سنة ٧٣١ هـ ، ومات سنة ٧٩٢ هـ ، وهو من تلامذة الحافظ بن كثير ، وله ترجمة في الجزء الثالث من كتاب « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » لابن حجر العسقلاني .

والذى يلاحظ ويلفت الإنتباه فى هذا الشرح : كثرة اعتماد ابن أبى العز - رحمه الله - على كلام الإمام ابن قيم الجوزية ، دون أن يشير صراحة إلى ذلك ، حتى إنه لينقل منه صفحات أحياناً ، مما ينبى عن طبيعة شخصيته المتحررة من التقليد ، المنتسبة إلى النهضة الإصلاحية التى قادها شيخ الإسلام ابن تيميه - رحمه الله .

ولكن الأستاذ عبد المنعم صالح رأى أنه من تمام إتقان دوره الإصلاحى فى مسيرة المد الإسلامى الحاضر أن يقوم بتهديب وتنقيح وإختصار بعض الفصول فى هذا الكتاب ، ليكون أكثر تناسباً مع الحاجة التربوية الملحة لناشئة الإسلام وشبابه ، ويكون كذلك أيسر فهماً وأعمق تأثيراً فى نفوس شباب الدعوة الإسلامية فحذف كثيراً من حوار الشارح مع أصحاب البدع المضمحلة التى تكاد أن تنقرض من المعتزلة وأمثالهم ، مع التخلص من بعض التكرار أو الإطناب ، والإكتفاء بشواهد قليلة توضح المقصود إذ أكثر الشارح من إيراد الشواهد وأما كلام الإمام الطحاوى فقد تم إيراد كاملاً دونما نقص بحرف واحد .

و « دار الوفاء » إذ ترى فى تمام رسالتها أن تسهم فى تقديم هذا الكتاب إلى الشعوب الإسلامية والمسلمين فى أنحاء المعمورة سائلين الله تعالى أن ينفع به الإسلام والمسلمين وحتى يسهل على القارئ أن يستوعب المعانى المختلفة فى الكتاب ويميز بين المتن والشرح فى الطباعة فقد كان أصل متن الإمام الطحاوى بحرف كبير أسود فى بدايته نقطة سوداء كبيرة ، وكان كلام الشارح بحرف صغيراً أبيض ، ومتون الأحاديث النبوية الشريفة بحرف صغير أسود ، والآيات مستلة من المصحف بحركات كاملة وبعلامات التلاوة . والله من وراء القصد .

الناشر

شرح العقيدة الطحاوية

قال الشيخ العلامة قاضي القضاة علي بن أبي العز رحمة الله :

الحمد لله ، نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .
أما بعد .

فإن علم أصول الدين اشرف العلوم ، وحاجة العباد اليه فوق كل حاجة ، لأنه لا حياة للقلوب إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها ، بأسمائه وصفاته وأفعاله .

ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل ، فاقترضت رحمة العزيز الرحيم بعث الرسل به معرفين ، واليه داعين ، ولن أجابهم مبشرين ، ولن خالفهم منذرين ، وجعل مفتاح دعوتهم ، وزبدة رسالتهم : معرفة المعبود سبحانه ، بأسمائه وصفاته وأفعاله ، إذ على هذه المعرفة تبني مطالب الرسالة كلها ، من أولها إلى آخرها .
ثم يتبع ذلك اعلان عظيمات :

أحدهما : تعريف الطريق الموصل اليه ، وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه .

والثاني : تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول اليه من النعيم المقيم .

فأعرف الناس بالله عز وجل : أتبعهم للطريق الموصل اليه ، وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه ، ولهذا سمى الله ما أنزل على رسوله روحا ، لتوقف الحياة الحقيقية عليه ، ونورا ، لتوقف الهداية عليه ، فقال الله تعالى :
(يُلْقِ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) ١٥ / غافر .

وقال تعالى :

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) الشورى
ولا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيماننا عاما مجملا ، وأما ما يجب على أعيان المؤمنين فهذا يتنوع بتنوع حاجاتهم

ومعرفتهم ، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم ، او عن فهم دقيقه ، ما يجب على القادر على ذلك . ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها ، ويجب على المفتي المحدث والحاكم ما لا يجب على من ليس كذلك

وينبغي ان يُعرف ان عامة من ضل في هذا الباب او عجز فيه عن معرفة الحق ، فانما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول ، وتبطل النظر والاستدلال الموصل الى معرفته ، فلما اعرضوا عن كتاب الله : ضلوا ، كما قال تعالى :

(فَلَمَّا يَأْتِيَ كُمْ مَتَى مَدَى لَنِ أَتَّبِعَ هَدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشُقُّ) (١٢٢) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى (١٢٣) قَالَ رَبِّ لِي خَشْرَتِي أَتَمَنَّى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٤) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٢٢-١٢٦ / طه

وقد نزه الله تعالى نفسه عما يصف به العباد ، الا ما وصفه به المرسلون ، بقوله سبحانه : (سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠-١٨٢ / الصافات

فنزّه نفسه سبحانه عما يصفه به الكافرون ، ثم سلم على المرسلين ، لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب ، ثم حمد نفسه على تفردّه بالوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد .

ومضى على ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم خير القرون ، وهم الصحابة والتابعون لهم باحسان ، يوصي به الاول والاخر ، ويقتدي فيه باللاحق بالسابق ، وهم في ذلك كله بنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم مقتدون ، وعلى منهاجه سالكون ، كما قال تعالى في كتابه العزيز :

(قُلْ مَبْلَغُ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) (١٠٨ / يوسف ثم خلف من بعدهم خلف اتبعوا اهواءهم ، وافترقوا ، فاقام الله لهذه الامة من يحفظ عليها اصول دينها ، كما اخبر الصادق صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم » .

وممن قام بهذا الحق من علماء المسلمين : الامام ابو جعفر احمد بن محمد بن سلامة الازدي الطحاوي ، فاخبر رحمه الله عما كان عليه السلف ، ونقل عن الامام ابي حنيفة النعمان ابن ثابت الكوفي ، وصاحبيه - ابي يوسف يعقوب بن ابراهيم الجميري الانصاري ، ومحمد بن الحسن الشيباني رضي الله عنهم - ما كانوا يعتقدون من اصول الدين ، ويدينون به رب العالمين .

وكلما بعد العهد : ظهرت البدع ، وكثر التحريف ، الذي سماه ائله

تأويلا ليُقبل ، وَقَلَّ من يهتدي الى الفرق بين التحريف والتأويل ، اذ قد يسمى صرف الكلام عن ظاهره الى معنى آخر يحتمله اللفظ في الجملة « تأويلا » وان لم يكن ثم قرينة توجب ذلك ، ومن هنا حصل الفساد ، فاذا سموه تأويلا قبل وراج على من لا يهتدي الى الفرق بينهما .

وكل من التحريف والانحراف على مراتب ، فقد يكون كفرا ، وقد يكون فسقا ، وقد يكون معصية ، وقد يكون خطأ .

فالواجب : اتباع المرسلين ، واتباع ما انزل الله عليهم ، وقد ختمهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فجعله آخر الانبياء ، وجعل كتابه مهيمنا على ما بين يديه من كتب السماء ، وجعل طاعته طاعة له ، ومعصيته معصية له ، واقسم بنفسه انهم لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم .

وانما وقع التقصير من كثير من المسلمين ، فلم يعلم ما جاء به الرسول في كثير من الامور الكلامية الاعتقادية ، ولا في كثير من الاحوال العبادية ، ولا في كثير من الامارة السياسية ، او نسبوا الى شريعة الرسول ، بظنهم وتقليدهم ، ما ليس منها ، واخرجوا عنها كثيرا مما هو منها .

فبسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم ، وكَبَسِ عدوان اولئك وجهلهم ونفاقهم : كثر النفاق ، ودرَسَ كثير من علم الرسالة .

وان كان العبد عاجزا عن معرفة بعض ذلك ، او العمل به ، فحسبه ان يسقط عنه اللوم لعجزه ، وعليه ان يفرح بقيام غيره به ، ويرضى بذلك ، ويؤد ان يكون قائما به ، وان لا يؤمن ببعضه ويشرك ببعضه ، بل يؤمن بالكتاب كله ، وان يصاب عن ان يدخل فيه ما ليس منه ، من رواية او رأي ، او يتبع ما ليس من عند الله ، اعتقادا او عملا ، كما قال تعالى :

(اُولَآ تَلِيْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَاَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ٤٢ / البقرة

وقد احببت ان اشرح عقيدة الامام الطحاوي ، سالكا طريق السلف في عباراتهم ، وانسج على منوالهم ، متطفلا عليهم ، لعلني ان انظم في سلوكهم ، وأدخل في عدادهم ، واحشر في زميرتهم ، (مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن اولئك رفيقا) .

وقد ابتدا الشيخ الطحاوي كلامه فقال رحمه الله .

● (نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله : ان الله واحد لا شريك له) .

فأقول : اعلم ان التوحيد اول دعوة الرسل ، واول منازل الطريق ، واول

مقام يقوم فيه السالك الى الله . قال تعالى :
(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَرَّمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) ٥٩ / الاعراف
وقال هود عليه السلام لقومه :

(أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) ٦٥ / الاعراف .

وهو قول صالح عليه السلام ، وقول شعيب عليه السلام .

وقال تعالى :

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) ٢٦ / النحل .

وقال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) الانبياء / ٢٥

وقال صلى الله عليه وسلم : « امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله » .

ولهذا كان الصحيح : ان اول واجب يجب على المكلف : شهادة ان لا اله الا الله .

فالتوحيد اول ما يدخل به المرء ان اراد الاسلام ، وهو اخر ما يخرج به من الدنيا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من كان اخر كلامه : لا اله الا الله : دخل الجنة » . فهو اول واجب وآخر واجب .

ونعني به : توحيد الالهية . فان التوحيد يتضمن ثلاثة انواع :

احدها : الكلام في الصفات .

والثاني : توحيد الربوبية ، وبيان ان الله وحده خالق كل شيء .

والثالث : توحيد الالهية ، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى ان يعبد وحده لا شريك له .

اما الاول : فان نفاة الصفات ادخلوا نفى الصفات في مسمى التوحيد ، كالجهنم بن صفوان ومن وافقه ، وهذا النفي معلوم الفساد ، فان اثبات ذات مجردة عن جميع الصفات لا يتصور لها وجود في الخارج ، وانما الذهن قد يفرض المحال ويتخيله ، وهذا غاية التعطيل .

واما الثاني : فهو توحيد الربوبية ، كالاقرار بانه خالق كل شيء ، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه ، ولم يذهب الى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم ، بل القرب مفطورة على الاقرار به اعظم من كونها مفطورة على الاقرار بغيره من الموجودات ، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم

(قَلَّتْ رُسُلُهُمْ أَفِ الْفِتْنَةِ قَامِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ١٠ / ابراهيم .
واشهر من عرف تجاهله وتظاهره بانكار الصانع : فرعون ، وقد كان
مستيقنا به في الباطن ، كما قال موسى :

(لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَزَلَّ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِمَا هُمَا) ١٠٢ / الاسراء .
وقال تعالى ، عنه وعن قومه :

(وَحَمْدُوا رَبًّا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظْمًا) ١٤ / النمل .

فليس في الطوائف من يُثبت للعالم صانعين متماثلين . ويستدل على ذلك
بدليل « التمانع » وهو : انه لو كان للعالم صانعان ، فعند اختلافهما ، مثل ان
يريد احدهما تحريك جسم وآخر تسكينه ، او يريد احدهما احياء والاخر
اماتته ، فاما ان يحصل مرادهما ، او مراد احدهما ، او لا يحصل مراد واحد
منهما ، والاول ممتنع ، لانه يستلزم الجمع بين الضدين ، والثالث ممتنع ، لانه
يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون ، وهو ممتنع ويستلزم ايضا عجز كل
منهما ، والعاجز لا يكون الها ، واذا حصل مراد احدهما دون الآخر : كان هذا
هو الاله القادر ، والاخر عاجزا لا يصلح للالهية . وكثير من اهل النظر يزعمون
ان دليل التمانع هو معنى قوله تعالى :

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) ٢٢ / الانبياء .

وسبب ذلك اعتقادهم ان توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الالهية
الذي بينه القرآن ، ودعت اليه الرسل عليهم السلام ، وليس الامر كذلك ، بل
التوحيد الذي دعت اليه الرسل ، ونزلت به الكتب ، هو توحيد الالهية المتضمن
توحيد الربوبية ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فان المشركين من العرب
كانوا يُقرّون بتوحيد الربوبية ، وان خالق السموات والارض واحد ، كما اخبر
تعالى عنهم بقوله :

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) ٢٥ / لقمان .
(أَقُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

٨٤ ، ٨٥ / المؤمنون .

ومثل هذا كثير في القرآن ، ولم يكونوا يعتقدون في الاصنام انها مشاركة
لله في خلق العالم ، بل كان حالهم فيها كحال امثالهم من مشركي الامم من الهند
والترك وغيرهم ، يعتقدون ان هذه تماثيل قوم صالحين ، ويتخذونهم شفعاء ،
ويتوسلون بهم الى الله ، وهذا كان اصل شرك العرب ، كما قال تعالى حكاية عن
قوم نوح :

(وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا ، أَسْوَأَ الَّذِي فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ) ٢٣ / نوح .

وقد ثبت في صحيح البخاري ، وكتب التفسير ، ان هذه اسماء قوم صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا : عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الامد ، فعبدوهم .

وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع ، وانه ليس للعالم صانعان ، ولكن اتخذوا هؤلاء شفعا ، كما اخبر عنهم تعالى بقوله :

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ اَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ اِلَّا لِيُقْرِبُوَنَا اِلَىٰ اِلٰهِ زُلْفَىٰ) ٢ / الزمر . وقال تعالى :

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اِلٰهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتٰوَلَاةٌ شَفَعَتُنَا بِاِلٰهِ) ١٨ / يونس . وبهذا نعلم ان التوحيد المطلوب هو توحيد الالهية ، الذي يتضمن توحيد الربوبية ، قال تعالى :

(فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتِ اِلٰهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيَّهَا لَا تَبْدِيلَ لِتِلْكَ اِلٰهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ٢٠ / الروم . وقال تعالى :

• مُبِينٌ اِلٰهِ وَاَقْرَبُ وَاقِعًا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ⑤
مِنَ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شِعْمًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَزِمَتْهُمْ قَرْحًا ⑥ ٢١ - ٢٢ / الروم .
والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الامثال له ، ومن ذلك : انه يقرر توحيد الربوبية ، ويبين انه لا خالق الا الله ، وان ذلك مستلزم ان لا يعبد الا الله ، فيجعل الاول دليلا على الثاني ، اذ كانوا يسلمون في الاول ، وينازعون في الثاني ، فيبين لهم سبحانه : انكم اذا كنتم تعلمون انه لا خالق الا الله وحده ، وانه هو الذي ياتي العباد بما ينفعهم ، ويدفع عنهم ما يضرهم ، لا شريك له في ذلك ، فلم تعبدون غيره ، وتجعلون معه الهة اخرى ؟ كقوله تعالى :

(قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ وَكَانَ عَلَىٰ عِبَادِهِ اِلٰهِيْنَ اَصْحٰبُ ۚ اَللّٰهُ عَزَّوَجَلَّ يُرْسِدُ الْبَحْرَيْنِ مِٔتَ سَنَةٍ ثُمَّ يُجْمَعُ بَيْنَهُمَا فَيَكُونُ اَحَدًا ۚ وَمَا يَكُونُ اَحَدًا اِلَّا فِيْ عِزِّ ۚ عِزِّ ذَاتِ جَبَرٍ ۚ مَا كَانَ لَكُمْ اَنْ تُنْبِئُوْا بِغَرْمِ اُولٰٓئِكَ مَعَ اِلٰهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُوْنَ) ٥٩ / النمل .

ففي هذه الايات يقول الله تعالى في اخر كل آية : (اِلٰهَ مَعَ اِلٰهِ) ، اي اِلٰه مع الله فعل هذا ؟ وهذا استفهام انكار ، يتضمن نفى ذلك ، وهم كانوا مقرين بانه لم يفعل ذلك غير الله ، فاحتج عليهم بذلك ، وليس المعنى انه استفهام ، هل مع الله اله ؟ كما ظنه بعضهم ، لان هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام ، والقوم كانوا يجعلون مع الله الهة اخرى ، كما قال تعالى :
(اِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اِلٰهَ مَعَ اِلٰهِ اُتْرَىٰ قُلْ لَا اَشْهَدُ) ١٩ / الانعام .

واذا كان توحيد الربوبية داخلا في التوحيد الذي جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب ، فليعلم ان دلائله متعددة ، كدلائل اثبات الصانع ، ودلائل صدق الرسول ، فان العلم كلما كان الناس اليه احوج كانت ادلته اظهر ، رحمة من الله بخلقه .

والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كل مثل ، وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية ، لكن القرآن يبين الحق في الحكم والدليل ، فماذا بعد الحق الا الضلال ؟

واما ما كان من المقدمات المتفق عليها ، المعلومة بالضرورة ، فيستدل بها ، ولم يحتج الى الاستدلال عليها .

ولما كان الشرك في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم ، باعتبار اثبات خالقين متمثلين في الصفات والافعال - وانما ذهب بعض المشركين الى ان ثم خالقا خلق بعض العالم ، وكما يقول القدرية في نسبة الشر الى غير الله تعالى ، وكما يقول الفلاسفة في حركة الافلاك - فان هؤلاء يثبتون امورا محدثة بدون احداث الله اياها ، فهم مشركون في بعض الربوبية ، وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في الهته شيئا من نفع او ضرر ، بدون ان يخلق الله ذلك .

فلما كان هذا الشرك في الربوبية موجودا في الناس : بين القرآن بطلانه ، كما في قوله تعالى : (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِكِه إِذَا أَذْهَبَ سَكُلُ الْنَمِّ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) ٩٢ / المؤمنون .

فتأمل هذا البرهان الباهر ، بهذا اللفظ الوجيز الظاهر ، فان الاله الحق لا بد ان يكون خالقا فاعلا ، يوصل الى عابده النفع ، ويدفع عنه الضرر ، فلو كان معه سبحانه اله اخر يشركه في ملكه ، لكان له خلق وفعل ، وحينئذ فلا يرضى تلك الشراكة ، بل ان قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والالهية دونه ، فعل ، وان لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق ، كما انفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه ، اذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه . فلا بد من احد ثلاثة امور اما ان يذهب كل اله بخلقه وسلطانه ، واما ان يعلو بعضهم على بعض ، واما ان يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء ، ولا يتصرفون فيه ، بل يكون وحده هو الاله ، وهم العبيد المريبون المقهورون .

وانتظام امر العالم كله واحكام امره من ادل الادلة على ان مدبره اله واحد ، وملك واحد ، ورب واحد ، لا اله للخلق غيره ، ولا رب لهم سواه ، كما قد دل دليل التمانع على ان خالق العالم واحد لا رب غيره ، فذلك تمانع في الفعل والايجاد ، وهذا تمانع في العبادة والالهية ، وكما يستحيل ان يكون للعالم ريان

خالقان متكافئان . كذلك يستحيل ان يكون لهم الهان معبودان .

فالعالم بان وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته ، فكذا تبطل الهية اثنين ، فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر في الفطر من توحيد الربوبية ، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الالهية .

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى :

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) ٢٢ / الانبياء .

وقد ظن البعض ان هذا دليل التمانع الذي تقدم ذكره ، وغفلوا عن مضمون الآية ، فانه سبحانه اخبر انه لو كان فيهما آلهة غيره ، ولم يقل ارباب .

وايضا ، فانه قال : لفسدتا ، وهذا فساد بعد الوجود ، ولم يقل : لم يوجد .

وتوحيد الالهية متضمن لتوحيد الربوبية ، دون العكس ، فمن لا يقدر على ان يخلق يكون عاجزا ، والعاجز لا يصلح ان يكون الها . قال تعالى :
(اِشْرِكُوهَا بِمَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) ١٩١ / الاعراف .

ثم التوحيد الذي دعت اليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان : توحيد في الاثبات والمعرفة ، وتوحيد في الطلب والقصد .

فالاول هو اثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وافعاله واسمائه ، ليس كمثله شيء في ذلك كله ، كما اخبر عن نفسه ، وكما اخبر رسوله صلى الله عليه وسلم .

والثاني : وهو توحيد الطلب والقصد ، مثل ما تضمنته سورة

(قُلْ يَا أَكْفَرُوهَا ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) ١٠٠ / البقرة .

(قُلْ يَا أَكْفَرُوهَا ۖ وَلَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) ١٠٠ / البقرة .

وكذلك قوله تعالى : (قُلْ يَأْمُرُ الْكِتَابُ نَعْلُوا إِلَىٰ كُلِّ مَسْجِدٍ سَوَاءً بَيْنًا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ) ٦٤ / آل عمران .

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد ، بل كل سورة في القرآن ، فان القرآن اما خبر عن الله واسمائه وصفاته ، وهو التوحيد العلمي الخبري ، واما دعوة الى عبادته وحده لا شريك له ، وخلع ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الارادي الطلبي ، واما امر ونهي وازام بطاعته ، فذلك من مكملات التوحيد ، واما خبر عن اكرامه لاهل توحيده ، وما فعل بهم في الدنيا ، وما يكرمهم به في الآخرة ، وهو جزاء توحيده ، واما خبر عن اهل الشرك ، وما فعل بهم في الدنيا

من النكال ، وما فعل بهم في العقبي من العذاب ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .

وقد شهد الله لنفسه بهذا التوحيد ، وشهدت له به ملائكته وانبيأؤه ورسله . قال تعالى :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٨
إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) ١٨ و ١٩ / آل عمران .

فلخصمت هذه الآية الكريمة اثبات حقيقة التوحيد ، والرد على جميع طوائف الضلال ، فتضمنت أجل شهادة وأعظمها ، وأعدلها وأصدقها ، من أجل شاهد ، بأجل مشهود به .

وعبارات السلف في « شهد » تدور على الحكم ، والقضاء ، والأعلام ، والبيان ، والأخبار . وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها ، فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره ، وتتضمن اعلامه وأخباره وبيانه .

فلها أربع مراتب :

فأول مراتبها : علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته .

وثانيها : تكلمه بذلك ، وإن لم يعلم به غيره ، بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها .

وثالثها : أن يُعلمَ غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له .

ورابعها : أن يلزمه بضمونها ويأمره به .

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع : علمه بذلك سبحانه ، وتكلمه به ، واعلامه وأخباره لخلقه به ، وأمرهم والزامهم به .

والمهم من هذه الشهادات الأربع : مرتبة الأمر بذلك والالزام به ، فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به وقضى وأمر والزم عباده به ، كما قال تعالى : (وَفَضَّلْنَاكَ أَلَّا تَعْبُدَ إِلَّا إِلَهًا) ٢٢ / الإسراء .

وقال الله تعالى : (لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ) ٥١ / النحل .

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك : أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو ، فقد أخبر ونبأ وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس باله ، وأن الهية ما سواه باطلة ، فلا يستحق العبادة سواه ، كما لا تصلح الالهية لغيره ، وذلك يستلزم الأمر باتخاذ وحده الها ، والنهي عن اتخاذ غيره معه الها ، وهذا يفهمه

المخاطب من هذا النفي والاثبات .

والحكم والقضاء بانه لا اله الا هو متضمن الالزام ، ولو كان المراد مجرد شهادة : لم يتمكنوا من العلم بها ، ولم ينتفعوا بها ، ولم تقم عليهم بها الحجة ، بل قد تضمنت البيان للعباد ودلائلهم وتعريفهم بما شهد به ، كما ان الشاهد من العباد اذا كانت عنده شهادة ولم يبينها ، بل كتمها لم ينتفع بها احد ، ولم تقم بها حجة .

واذا كان لا ينتفع بها الا ببيانها فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة : السمع ، والبصر ، والعقل .

اما السمع فبسمع آياته المتلوة المبينة لما عرّفنا إياه من صفات كماله كلها ، الوجدانية وغيرها ، غاية البيان ، كما قال تعالى

(هَذَا يَوْمُ لِنَاسٍ وَهَدَى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) ١٣٨ / ال عمران .

وقال تعالى (فَأَعْلَوْا أَنَّمَا عَلَيَّ رَسُولٌ الْتَمَعُ) ٩٢ / المائدة .

وقال (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا ظَلَمُوا فِيهِ) ٤٤ / النحل .

وكذلك السنة ، تأتي مبينة ومقررة لما دل عليه القرآن ، لم يحوجنا ربنا تعالى الى رأي فلان في اصول ديننا ، ولهذا تجد من خالف الكتاب والسنة مختلفين مضطربين ، بل قد قال تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) ٣ / المائدة .

واما آياته العيانة الخلقية : فالنظر فيها والاستدلال بها يدل على ما تدل عليه آياته القولية والسمعية ، والعقل يجمع بين هذه وهذه ، فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل ، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة .

فهو سبحانه لكمال عدله ورحمته واحسانه وحكمته ومحبته للعدر واقامة الحجة لم يبعث نبيا الا ومعه آية تدل على صدقه فيما اخبر به ، قال تعالى

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)

٢٥ / الحديد .

وقال تعالى (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) ٢٥ / فاطر .

ومن اسمائه تعالى « المؤمن » وهو في احد التفسيرين : المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم . فانه لا بد ان يُرى العباد من الآيات الانشائية والنفسية ما يبين لهم ان الوحي الذي بلغه رسل الله حق . قال تعالى

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۚ
وذلك ان القرآن هو المتقدم في قوله .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) ٥٢ / فصلت .
ثم قال : (او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد) .

فشهد سبحانه لرسوله بقوله ان ما جاء به حق ، ووعد انه يري العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك ايضا ، ثم ذكر ما هو اعظم من ذلك كله واجل ، وهو شهادته سبحانه بانه على كل شيء شهيد ، فان من اسمائه « الشهيد » الذي لا يغيب عنه شيء ، ولا يغرب عنه ، بل هو مطلع على كل شيء ، مشاهد له ، عليم بتفاصيله ، وهذا استدلال باسمائه وصفاته ، والاول استدلال بقوله وكلماته ، واستدلالة بالآيات الافقية والنفسية استدلال بافعاله ومخلوقاته .

● ثم قال الامام الطحاوي : (ولا شيء مثله)

وذلك ان اهل السنة قد اتفقوا على ان الله ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في افعاله ولكن لفظ « التشبيه » قد صار في كلام الناس لفظا مجملا يراد به المعنى الصحيح ، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل ، من ان خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات ، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته ، و « ليس كمثله شيء » رد على الممثلة المشبهة ، و « وهو السميع البصير » رد على النفاة المعطلة .

فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل المذموم ، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق ، فهو نظير النصارى في كفرهم .

ومن خلال نفي التشبيه دخل التعطيل الذي لا يُثبت لله اسماءه اذ يقولون لا نقول له قدرة ، ولا علم ، ولا حياة ، لأن العبد موصوف بهذه الصفات ، ولازم هذا القول انه لا يقال له قدير ، عليم ، حي ، لأن العبد يسمى بهذه الاسماء ، وكذلك كلامه وسمعه وبصره وغير ذلك ، مع انهم يوافقون اهل السنة على انه موجود ، عليم ، قدير ، حي ، والمخلوق يقال له : موجود حي عليم ، ولا يقال هذا تشبيه يجب نفيه

وهذا مما دل عليه الكتاب والسنة وصريح العقل ، ولا يخالف فيه عاقل ، فان الله سمي نفسه باسماء ، وسمى بعض عباده بها . وكذلك سمي صفاته باسماء وسمى ببعضها صفات خلقه ، فسمى نفسه حيا ، رؤوفا ، رحيفا ، عليما ، سميعا ، بصيرا ، عزيزا ، متكبرا ، جبارا ، فقال

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) ١٩ / الروم .

وقال : (بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) ١٢٨ / التوبة .

وقال : (وَبَشِّرُوهُ يَغْلِبْ عَلَيْهِ) ٢٨ / الذاريات .

وقال : (جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) ٢ / الانسان .

وقال : (قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ) ٥١ / يوسف .

وقال : (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ) ٣٥ / غافر .

ومعلوم انه لا يماثل الحي الحي ، ولا العليم العليم ، ولا العزيز العزيز .
وكذلك سائر الاسماء ، ونظائر هذا كثيرة ، وهذا لازم لجميع العقلاء .

فان نفى احد صفة من صفاته التي وصف بها سبحانه نفسه ، كالرضا والغضب ، والحب والبغض ، ونحو ذلك ، وزعم ان ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم ، قيل له فانت تثبت له الارادة والكلام والسمع والبصر ، مع ان ما تثبته له ليس مثل صفات المخلوقين ، فقل فيما نفيت واثبتته الله ورسوله مثل قولك فيما اثبتته ، اذ لا فرق بينهما .
فان قال انا لا اثبت شيئا من الصفات .

قيل له فانت تثبت له الاسماء الحسنى ، مثل : حي ، عليم ، قدير ، والعبد يسمى بهذه الاسماء ، وليس ما يثبت للرب من هذه الاسماء مماثلا لما يثبت للعبد ، فقل في صفاته نظير قولك في مسمى اسمائه .

واصل الخطأ والغلط توهمهم ان هذه الاسماء العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتا في هذا المعين وهذا المعين ، وليس كذلك ، فان ما يوجد في الخارج لا يوجد مطلقا كليا ، بل لا يوجد الا معينا مختصا ، وهذه الاسماء اذا سُمِّيَ الله بها : كان مسماها مختصا به ، واذا سُمِّيَ بها العبد كان مسماها مختصا به ، فوجود الله وحياته لا يشاركه فيها غيره ، بل وجود هذا الموجود المعين لا يشاركه فيه غيره ، فكيف بوجود الخالق ؟ ألا ترى انك تقول هذا هو ذاك ، فالشار اليه واحد ، لكن بوجهين مختلفين .

وبهذا ومثله يتبين لك ان المشبهة اخذوا هذا المعنى وزادوا فيه على الحق فضلوا ، وان المعطلة اخذوا نفى المماثلة بوجه من الوجوه وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا ، وان كتاب الله دل على الحق المحض الذي تعقله العقول السليمة الصحيحة ، وهو الحق المعتدل الذي لا انحراف فيه ، فالنفاة احسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من خلقه ، ولكن اساءوا في نفى المعاني الثابتة لله تعالى في نفس الامر ، والمشبهة احسنوا في اثبات الصفات ولكن اساءوا بزيادة التشبيه .

● قال الطحاوي : (ولا شيء يُفَجْزَه) .

وذلك لكمال قدرته .

قال تعالى (أَنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ١٢ / الطلاق .

وقال سبحانه .

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤ / فاطر .

وقال عز وجل :

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) ٢٥٥ / البقرة .

وقوله : لا يؤوده : اي لا يُثقله ولا يعجزه . فهذا النفي لثبوت كمال ضده ، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة انما هو الثبوت كمال ضده ، كقوله تعالى : (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) ٤٩ / الكهف ، لكمال عدله .

وكقوله : (لَا يَغْرِبُ عَنْهُ مُثْقَلُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)

٣ // سبأ ، لكمال علمه .

وقوله : (لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ) ٢٥٥ / البقرة ، لكمال حياته وقيوميته

والا فالنفي الصرف لا مدح فيه .

● قال : (ولا إله غيره)

وهذه كلمة التوحيد التي دعت اليها الرسل ، واثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والاثبات المقتضي للحصر ، فان الاثبات المجرد قد يتطرق اليه الاحتمال . ولهذا - والله اعلم - لما قال تعالى : (والهمم له واحد) قال بعده : (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) ١٦٣ / البقرة .

وذلك انه قد يخطر ببال احد خاطر شيطاني ، هُدى ان الهنا واحد ، فلغيرنا اله غيره ، فقال تعالى (لا اله الا هو) .

● قال الطحاوي : (قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء) .

وذلك هو قول الله تعالى (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ) ٣ / الحديد . وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم انت الاول فليس قبلك شيء ، وانت الآخر فليس بعدك شيء » .

فقول الشيخ (قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء) هو معنى اسمه (الاول والآخر) .

والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطرة ، فان الموجودات لا بد ان تنتهي الى واجب الوجود لذاته ، قطعاً للتسلسل ، فانت تشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو ، كالسحاب والمطر ، وغير ذلك ، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة ، فان الممتنع لا يوجد ، ولا واجبة الوجود

بنفسها ، فان واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ، لعدمها ينفي وجودها ، ووجودها ينفي امتناعها ، وما كان قابلا للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه ، كما قال تعالى :

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) ٣٥ / الطور .

يقول سبحانه : أحدثوا من غير مُحدث ، ام هم أحدثوا انفسهم ؟ ومعلوم ان الشيء المحدث لا يوجد نفسه . فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجودا بنفسه ، بل ان حصل ما يوجد والا كان معدوما ، وكل ما امكن وجوده بدلا من عدمه ، وعدمه بدلا عن وجوده ، فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم .

واذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية : وجد الصواب منها يعود الى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية باوضح عبارة واوجزها ، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يوجد عندهم مثله ، قال تعالى :

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْتَكِ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) ٣٣ / الفرقان .

ولا نقول : لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية والادلة النظرية ، فان الخفاء والظهور من الامور النسبية ، فربما ظهر لبعض الناس ما خفي على غيره ، ويظهر للانسان الواحد في حال ما خفي عليه في حال اخرى . وايضا : فالمقدمات وان كانت خفية فقد يُسَلَّم بها بعض الناس وينازع فيما هو اجل منها ، وقد تفرح النفس بما علمته بالبحث والنظر ما لا تفرح بما علمته من الامور الظاهرة ، ولا شك ان العلم باثبات الصانع ووجوب وجوده امر ضروري فطري ، وان كان يحصل لبعض الناس من الشُبْهِ ما يخرجهم الى الطرق النظرية .

وقد ادخل المتكلمون في اسماء الله تعالى « القديم » وليس هو من اسماء الله تعالى الحسنی ، فان القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن ، هو المتقدم على غيره ، فيقال : هذا قديم ، للعتيق ، وهذا حديث ، للجديد ، ولم يستعمل هذا الاسم الا في المتقدم على غيره ، لا فيما يسبقه عدم ، كما قال تعالى :

(حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) ٣٩ / يس .

والعُرْجُونُ القديم : الذي يبقى الى حين وجود العرجون الثاني ، وهو العِثْقُ الحامل للرُطْبِ في النخلة ، فاذا وجد الحديث قيل للاول : قديم .

وقال تعالى :

(وَإِذْ لَرَيْهَنَدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ مَآ أَفْكٌ قَدِيمٌ) ١١ / الاحقاف ، اي متقدم في الزمان .

واما ادخال « القديم » في اسماء الله تعالى فهو مشهور عند اكثر اهل الكلام ، وقد انكر ذلك كثير من السلف والخلف ، منهم : ابن حزم ، ولا يريد انه اذا كان مستعملا في نفس التقدم ، فان ما يقدم على الحوادث كلها فهو احق بالتقدم من غيره ، لكن اسماء الله تعالى هي الاسماء الحسنی التي تدل على خصوص ما يمدح به ، والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها ، فلا يكون من الاسماء الحسنی ، وجاء الشرع باسمه « الاول » وهو احسن من « القديم » لانه يشعر بان ما بعده آيل اليه وتابع له بخلاف القديم ، والله تعالى له الاسماء الحسنی .

● وقوله : (لا يفنى ولا يبيد)

اقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى ، قال عز من قائل : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) ٢٦، ٢٧ / الرحمن . والفناء والبيد متقاربان في المعنى ، والجمع بينهما في الذكر للتأكيد ، وهو ايضا مقرر ومؤكد لقوله : دائم بلا انتهاء .

● قال : (ولا يكون الا ما يريد) .

وهذا رد لقول القدرية والمعتزلة ، فانهم زعموا ان الله اراد الايمان من الناس كلهم ، والكافر اراد الكفر . وقولهم فاسد مردود ، لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح ، وهي مسألة القدر المشهورة ، وسيأتي لها زيادة بيان ان شاء الله تعالى .

وسموا « قدرية » لانكارهم القدر ، وكذلك تسمى الجبرية المستجوبون بالقدر : قدرية ايضا ، والتسمية على الطائفة الاولى اغلب .

واما اهل السنة فيقولون : ان الله وان كان يريد المعاصي قدرا ، فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها ، بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها ، وهذا قول السلف قاطبة ، فيقولون : ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

ان المحققين من اهل السنة يقولون : الارادة في كتاب الله نوعان : ارادة قدرية كونية خلقية ، وارادة دينية امرية شرعية ، فالارادة الشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضا ، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث . وهذا كقوله تعالى :

(قَمَنُ يَرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يُجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتَمًا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ) ١٢٥ / الانعام .

وقوله تعالى عن نوح عليه السلام (ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم) ٢٤ / هود .

وقوله تعالى (وَلَوْ كُنَّ أُمَّةً يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) ٢٥٢ / البقرة

واما الارادة الدينية الشرعية الامرية فكقوله تعالى
(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) ١٨٥ / البقرة .

وقوله تعالى :
(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَى كُفْرِكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا) ٢٧ / النساء .
فهذه الارادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح هذا
يفعل ما لا يريده الله ، اي ما لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به .
واما الارادة الكونية فهي الارادة المذكورة في قول المسلمين . ما شاء الله
كان وما لم يشأ لم يكن .

والفرق ثابت بين ارادة المريد ان يفعل ، وبين ارادته من غيره ان يفعل ،
فاذا اراد الفاعل ان يفعل فعلا فهذه الارادة معلقة بفعله ، واذا اراد من غيره ان
يفعل فعلا ، فهذه الارادة لفعل الغير ، وكلا النوعين معقول للناس ، والامر
يستلزم الارادة الثانية دون الاولى ، فالحق تعالى اذا امر العباد بامر فقد يريد
اعانة المأمور على ما أمر به ، وقد لا يريد ذلك ، وان كان مريدا منه فعله ، وهو
سبحانه - اذ امر فرعون وابا لهب وغيرهما بالايمان - كان قد بين لهم ما
ينفعهم وما يصلحهم اذا فعلوه ، ولا يلزم اذا امرهم ان يعينهم .
وكما انه يمكن في حق المخلوق الحكيم ان يأمر غيره بامر ولا يعينه عليه ،
فالخالق اولى بامكان ذلك في حقه مع حكمته ، فمن امره واعانه على فعل
المأمور : كان ذلك المأمور به قد تعلق به خلقه وامره ، فكان مرادا بجهة الخلق
ومرادا بجهة الامر ، ومن لم يُعِنْهُ على فعل المأمور : كان ذلك المأمور قد تعلق به
امره ولم يتعلق به خلقه ، لعدم الحكمة المقتضية لتعلق الخلق به ، ولحصول
الحكمة المقتضية لخلق ضده ، وخلق احد الضدين ينافي خلق الضد الآخر ، فان
خلق المرض - الذي يحصل به ذل العبد لربه ودعاؤه وتوبته وتكفير خطاياها ويرق
قلبه به ويذهب عنه الكبرياء - يضاد خلق الصحة التي لا تحصل معها هذه
المصالح ، وتفصيل حكمة الله في خلقه وامره تعجز عن معرفتها عقول البشر .

● قال الطحاوي : (لا تبلغه الاوهام ، ولا تدركه الأفهام) .

وهو معنى قوله الله تعالى : (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) ١١٠ / طه .
قال الجوهرى في صحاح اللغة : توهمت الشيء : ظننته ، وفهمت الشيء
علمته .

فمراد الشيخ رحمه الله : انه لا ينتهي اليه وهم ، ولا يحيط به علم .
قيل : الوهم ما يُرجى كونه ، اي يُظن انه على صيغة كذا ، والفهم هو
ما يحصله العقل ويحيط به ، والله تعالى لا يعلم كيف هو سبحانه الا هو
سبحانه ، وانما نعرفه سبحانه بصفاته ، وهو انه احد ، صمد ، لم يلد ولم
يولد .

● قال : (ولا يشبه الأنام) .

وهذا رد لقول المشبهة ، الذين يشبهون الخالق بالخلق ، سبحانه وتعالى .

قال عز وجل : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ١١ / الشورى .
وليس المراد نفي الصفات كما يقول أهل البدع ، فمن كلام أبي حنيفة رحمه الله في الفقه الأكبر : لا يشبه شيئاً من خلقه . ثم قال بعد ذلك : وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كروئيتنا .

وقال نعيم بن حماد المحدث الثقة : من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه .

والمشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السنة المشهورين : أنهم لا يريدون بنفي التشبيه نفي الصفات ، ولا يصفون به كل من اثبت الصفات ، بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق في اسمائه وصفاته وأفعاله ، كما تقدم من كلام أبي حنيفة ، وهذا معنى قوله تعالى في الآية المتقدمة ، فقد نفى الله تعالى المثل واثبت الوصف .

وسيأتي في كلام الطحاوي اثبات الصفات ، تنبيها على أن نفي التشبيه لا يستلزم نفي الصفات .

ومما يوضح هذا : أن العلم الإلهي لا يجوز أن يُستدل فيه بقياس تمثيلي يستوي فيه الأصل والفرع ، ولا بقياس شمولي يستوي أفراده ، فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء ، فلا يجوز أن يمثل بغيره ، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية يستوي أفرادها . ولهذا لما سلكت طوائف المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية : لم يصلوا بها إلى اليقين ، بل تناقضت أدلتهم ، وغلب عليهم الاضطراب .

ولكن يُستعمل في ذلك قياس « الأولى » سواء كان تمثيلاً أو شمولاً ، كما قال تعالى : والله المثل الأعلى ، مثل أن يعلم أن كل كمال ثبت للممكن أو للمحدث ، لا نقص فيه بوجه من الوجوه — وهو ما كان كمالاً للوجود غير مستلزم للعدم بوجه — فالواجب القديم أولى به . وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، ثبت نوعه للمخلوق والمربوب المدبر ، فانما استفادته من خالقه وربه ومدبره ، وهو أحق به منه . وإن كل نقص وعيب في نفسه — وهو ما تضمن سلب هذا الكمال ، إذا وجب نفيه عن شيء من أنواع المخلوقات والممكنات والمحدثات — فإنه يجب نفيه عن الرب تعالى بطريق الأولى .

● وأما قوله : (حي لا يموت ، قيوم لا ينام) .

فذلك هو قول الله تعالى : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة / ٢٥٥)
فنفي السنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته .
وقال صلى الله عليه وسلم : « ان الله لا ينام ، ولا ينبغي له ان ينام » .

فلما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه : اشار الى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه ، بما يتصف به تعالى دون خلقه . فمن ذلك . انه حي لا يموت ، لان صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى ، دون خلقه ، فانهم يموتون . ومنه : انه قيوم لا ينام ، اذ هو مختص بعدم السنة والنوم ، دون خلقه ، فانهم ينامون . وفي ذلك اشارة الى ان نفي التشبيه ليس المراد به نفي الصفات ، بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال ، لكمال ذاته ، فالحي بحياة باقية لا يشبهه الحي بحياة زائلة ، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعا ولهوا ولعبا :

(وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَمِيَ الْحَيَوَانُ) (٦٤/ العنكبوت .

فالحياة الدنيا كالمنام ، والحياة الآخرة كاليقظة ، ولا يقال : فهذه الحياة الآخرة كاملة ، وهي للمخلوق ، لأننا نقول : الحي الذي الحياة من صفات ذاته اللازمة لها هو الذي وَهَبَ المخلوق تلك الحياة الدائمة ، فهي دائمة بادامة الله لها ، لا ان الدوام وصف لازم لها لذاتها ، بخلاف حياة الرب تعالى . وكذلك سائر صفاته ، فصفات الخالق كما يليق به ، وصفات المخلوق كما يليق به .

واعلم ان هذين الاسمين (الحي القيوم) المذكوران في القرآن ، معا في ثلاث سور ، وهما من اعظم اسماء الله الحسنی ، حتى قيل : انهما الاسم الاعظم ، فانهما يتضمنان اثبات صفات الكمال اكمل تَضَمُّنًا واصدقه ، ويدل (القيوم) على معنى الازلية والابدية ما لا يدل عليه لفظ (القديم) . ويدل ايضا على كونه موجودا بنفسه ، وهو معنى كونه واجب الوجود . واقتترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال ، ويدل على بقائها ودوامها ، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلا وأبدا ، ولهذا كان قوله : (الله لا اله الا هو الحي القيوم) اعظم آية في القرآن ، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم .

فعلى هذين الاسمين مدار الاسماء الحسنی كلها ، واليها ترجع معانيها ، فان الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ، ولا يتخلف عنها صفة منها الا لضعف الحياة فاذا كانت حياته تعالى اكمل حياة واتمها : استلزم اثباتها اثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة . و (القيوم) متضمن كذلك كمال غناه ، وكمال قدرته ، فانه القيوم بنفسه ، فلا يحتاج الى غيره بوجه من الوجوه .

● قال الطحاوي : (خالق بلا حاجة ، رازق بلا مؤونة) .

فقد قال تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ

وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) (٥٦ و ٥٧ و ٥٨/ الذاريات .

وقال : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) ١٥ / فاطر .

وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى من الحديث القدسي :

« يا عبادي : لو ان أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم ، كانوا علي اتقى قلب رجل منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا . يا عبادي لو ان أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم ، كانوا علي أفجر قلب رجل واحد منكم : ما نقص ذلك في ملكي شيئا » . رواه مسلم .

وقوله بلا مؤونة : بلا ثقل ولا كلفة .

● ثم قال : (مميتٌ بلا مخافة ، باعثٌ بلا مشقة) .

وذلك ان الموت صفة وجودية ، خلافا للفلاسفة ومن وافقهم . قال تعالى :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) ٢ / الملك .

والعدم لا يوصف بكونه مخلوقا .

وفي الحديث انه : « يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَي صُورَةِ كَبِشٍ أَمْلَحَ ، فَيَذِيقُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ » وهو وان كان عَرَضًا ، فإله تعالى يقبله عينا .

وورد في الاعمال انها توضع في الميزان ، والاعيان هي التي تقبل الوزن دون الاعراض . وورد في سورة البقرة وآل عمران : انهما يوم القيامة « يُظْلَانِ » صاحبهما كأنهما غمامتان ، او غيابتان ، او فرقان من طير صوافٍ » وفي الصحيح : ان اعمال العباد تصعد الى السماء .

● قال : (ما زال بصفاته قديما قبل خلقه ، لم يَزِدْ - بكونهم - شيئا لم يكن قبلهم من صفته ، كما كان بصفاته ازلًا ، كذلك لا يزال عليها ابدًا) .

اي ان الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال ، صفات الذات وصفات الفعل ، ولا يجوز ان يعتقد ان الله وُصِفَ بصفة بعد ان لم يكن متصفا بها ، لأن صفاته سبحانه صفات كمال ، وفقدتها صفة نقص ، ولا يجوز ان يكون قد حصل له الكمال بعد ان كان متصفا بضده .

والصفات الاختيارية وصفات الفعل كلها ازلية ايضا ، كالخلق والتصوير ، والاحياء والاماتة ، والقبض والبسط والطي ، والاستواء والاتيان والمجيء والنزول ، والغضب والرضا ، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، وان كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله ، ولا ندخل في ذلك متأولين بأرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ، ولكن اصل معناه معلوم لنا ، كما قال الامام مالك رضي الله عنه ، لما سئل عن قوله تعالى (ثم استوى على العرش) : كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم ، وكيف مجهول ، وان كانت هذه الاحوال تحدث في وقت دون وقت ، كما في حديث الشفاعة : « ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله » لأن

هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع ، ولا يطلق عليه انه حدث بعد ان لم يكن . الا ترى ان الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل ، ولا يخرج عن كونه كاتباً في حال عدم مباشرته للكتابة ؟

وحلول الحوادث بالرب تعالى ، المنفي في علم الكلام المذموم : لم يرد نفيه ولا اثباته في كتاب ولا سنة . وفيه اجمال ، فان اريد بالنفي انه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثه ، ولا يحدث له وصف متجدد لم يكن ، فهذا نفي صحيح . وان اريد به نفي الصفات الاختيارية ، من انه لا يفعل ما يريد ، ولا يتكلم بما شاء اذا شاء ، ولا انه يغضب ويرضى — لا كأحد من الورى — ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والاتيان كما يليق بجلاله وعظمته ، فهذا نفي باطل .

وكذا مسألة « الصِّفَة » : هل هي زائدة على الذات ام لا ؟ لفظها مجمل .

وكذلك لفظ « الغير » فيه اجمال : فقد يراد به ما ليس هو اياه ، وقد يراد به ما جاز مفارقتة له .

ولهذا كان ائمة السُّنَّة لا يطلقون على صفات الله وكلامه انه « غيره » ولا انه « ليس غيره » لأن اطلاق الاثبات قد يشعر ان ذلك مبين له ، واطلاق النفي قد يشعر بانه هو ، اذ كان لفظ « الغير » فيه اجمال ، فلا يُطلق الا مع البيان والتفصيل ، فان اريد به ان هناك ذاتاً مجردة قائمة بنفسها منفصلة عن الصفات الزائدة عليها ، فهذا غير صحيح ، وان اريد به ان الصفات زائدة على الذات التي يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة ، فهذا حق ، ولكن ليس في الخارج ذات مجردة عن الصفات ، بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها لا تنفصل عنها ، وإنما يعرض للذهن ذات وصفة ، كل وحده ، ولكن ليس في الخارج ذات غير موصوفة ، فان هذا محال ، ولو لم يكن الا صفة الوجود فانها لا تنفك عن الوجود ، وان كان الذهن يفرض ذاتاً ووجوداً ، يتصور هذا وحده ، وهذا وحده ، لكن لا ينفك احدهما عن الآخر في الخارج .

وقد يقول بعضهم : الصفة لا عين الموصوف ولا غيره . وهذا له معنى صحيح ، وهو . ان الصفة ليست عين ذات الموصوف التي يفرضها الذهن مجردة بل هي غيرها ، وليست غير الموصوف ، بل الموصوف بصفاته واحد غير متعدد . فاذا قلت : اعوذ بالله ، فقد عُذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة الثابتة التي لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه ، واذا قلت : اعوذ بعزة الله ، فقد عذت بصفة من صفات الله ، ولم تعذ بغير الله . وهذا المعنى يفهم من لفظ « الذات » فان « ذات » في اصل معناها لا تستعمل الا مضافة ، اي : ذات وجود ، ذات قدرة ، ذات عز ، ذات علم ، ذات كرم ، الى غير ذلك من الصفات . فـ « ذات كذا » بمعنى : صاحبة كذا ، من تأنيث « ذو » هذا اصل معنى الكلمة ، فَعُلِمَ ان الذات لا يتصور انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه ، وان كان الذهن قد يفرض ذاتاً مجردة عن الصفات ، كما يفرض المحال . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « اعوذ بعزة الله وقدرته من

شر ما اجد وأحاذر » وقال صلى الله عليه وسلم « اعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » . وكذا قال صلى الله عليه وسلم اللهم اني اعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، واعوذ بك منك « ولا يعوذ النبي صلى الله عليه وسلم بغير الله .

● قال ابو جعفر الطحاوي : (ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم « الخالق » ولا باحداثه البرية استفاد اسم « الباري »)

وظاهر كلام الشيخ رحمه الله انه يمنع تسلسل الحوادث في الماضي ، ويأتي في كلامه ما يدل على انه لا يمنعه في المستقبل ، وهو قوله « والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان ابدا ولا تبديان » ، وهذا مذهب الجمهور ، ولا شك في فساد قول من منع ذلك في الماضي والمستقبل ، كما ذهب اليه الجهم واتباعه ، وقال بفناء الجنة والنار ، لما يأتي من الادلة ان شاء الله تعالى .

واما قول من قال بجواز حوادث لا اول لها ، من القائلين بحوادث لا آخر لها ، فظاهر في الصحة من قول من فرق بينهما ، فانه سبحانه لم يزل حيا ، والفعل من لوازم الحياة ، فلم يزل فاعلا لما يريد ، كما وصف بذلك نفسه ، حيث يقول (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﷻ ، فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ) ١٥ و ١٦ / البروج .

والآية تدل على امور

احدها . انه تعالى يفعل بارادته ومشيئته .

الثاني انه لم يزل كذلك ، لانه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه .

الثالث . انه اذا اراد شيئا : فَعَلَهُ ، فان « ما » موصولة عامة ، اي يفعل كل ما يريد ان يفعله ، وهذا في ارادته المتعلقة بفعله ، واما ارادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر ، فان اراد فعل العبد ولم يرد من نفسه ان يعينه عليه ويجعله فاعلا لم يوجد الفعل ؛ وان اراده حتى يريد من نفسه ان يجعله فاعلا اعانه واوجد الفعل ، وهذه النكتة التي خفيت على القدرية والجبرية ، وخطبوا في مسألة القدر ، لغفلتهم عنها .

الرابع . ان فعله وارادته متلازمان ، فان اراد ان يفعل : فَعَلَ ، وما فعله فقد اراده ، بخلاف المخلوق ، فانه يريد ما لا يفعل ، وقد يفعل ما لا يريده ، فما تَمَّ فَعَالٌ لما يريد الا الله وحده .

الخامس اثبات ارادات متعددة ، بحسب الافعال ، وان كل فعل له ارادة تخصه ، هذا هو المعقول في الفطر ، فشأنه سبحانه انه يريد على الدوام ويفعل ما يريد .

السادس ان كل ما صح ان تتعلق به ارادته جاز فعله ، فاذا اراد ان ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا ، وان يجيء يوم القيامة لفصل القضاء ، وان يُرَى عبادَه نفسه ، وان يتجلى لهم كيف شاء ، ويخاطبهم ، ويضحك اليهم ، وانما

يتوقف صحة ذلك على اخبار النبي صلى الله عليه وسلم به

والقول بان الحوادث لها اول يلزم التعطيل قبل ذلك ، وان الله سبحانه لم يزل غير فاعل ثم صار فاعلا ، ولا يلزم من ذلك قدم العالم ، لأن كل ما سوى الله محدث ممكن الوجود ، موجود بايجاد الله تعالى له ، ليس له من نفسه الا العدم ، والفقر والاحتياج وصف ذاتي لازم لكل ما سوى الله تعالى ، والله تعالى واجب الوجود لذاته ، غني لذاته ، والغنى وصف ذاتي لازم له سبحانه وتعالى .

والناس قولان في هذا العالم : هل هو مخلوق من مادة ام لا ؟ واختلفوا في اول هذا العالم ما هو ؟ وقد قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ٧ / هود .
وروى البخاري وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال اهل اليمن لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئناك لنتفق في الدين ، ولنسألك عن اول هذا الامر . فقال : « كان الله ولم يكن شيء قبله » . وفي رواية « ولم يكن شيء معه » . وفي رواية غيره : « وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء » ، وخلق السموات والارض » ، وفي لفظ « ثم خلق السموات والارض » وقوله كتب في الذكر ، يعني : اللوح المحفوظ .

والناس في هذا الحديث على قولين ، منهم من قال : ان المقصود اخباره بان الله كان موجودا وحده ولم يزل كذلك دائما ، ثم ابتداء احداث جميع الحوادث ، فجنسها واعيانها مسبقة بالعدم ، وان جنس الزمان حادث لا في زمان ، وان الله صار فاعلا بعد ان لم يكن يفعل ممكنا . والقول الثاني : المراد اخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة ايام ثم استوى على العرش ، كما اخبر القرآن بذلك في غير موضع . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « قدر الله تعالى مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة ، وكان عرشه على الماء » . فاخبر صلى الله عليه وسلم ان تقدير هذا العالم المخلوق في ستة ايام كان قبل خلق السموات بخمسين الف سنة ، وان عرش الرب تعالى حينئذ على الماء .

دليل صحة هذا القول الثاني ان قول اهل اليمن « جئناك لنسألك عن اول هذا الامر » هو اشارة الى حاضرمشهود موجود ، والامر هنا بمعنى المأمور ، اي الذي كونه الله بامره . وقد اجابهم النبي صلى الله عليه وسلم عن بدء هذا العالم الموجود ، لا عن جنس المخلوقات ، لأنهم لم يسألوه عنه ، وقد أخبرهم عن خلق السموات والارض حال كون عرشه على الماء ، ولم يخبرهم عن خلق العرش ، وهو مخلوق قبل خلق السموات والارض .

وايضا فانه قال « كان الله ولم يكن شيء قبله » ، وقد روي « معه » وروي « غيره » والمجلس كان واحدا ، فعلم انه قال احد الالفاظ ، والآخرون روي بالمعنى ... ولفظ « القبل » ثبت عنه في غير هذا الحديث ، ففي صحيح مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول في دعائه « اللهم انت الاول فليس قبلك شيء » ، واللفظان الآخريان لم يثبت

واحد منهما في موضع آخر ، ولهذا كان كثير من اهل الحديث انما يرويه بلفظ القبل ، كالحُمَيْدي ، والبَغوي ، وابن الاثير ، واذا كان كذلك ، لم يكن في هذا اللفظ تعرض لابتداء الحوادث ولا لأول مخلوق .

● قال ابوجعفر : (له معنى الربوبية ولا مربوب ، ومعنى الخالق ولا مخلوق) .

يعني ان الله تعالى موصوف بانه الرب قبل ان يوجد مربوب ، وموصوف بانه خالق قبل ان يوجد مخلوق .

● قال : (وكما انه محيي الموتى بعدما احيا ، استحق هذا الاسم قبل احيائهم ، كذلك استحق اسم الخالق قبل انشائهم) .

يعني انه سبحانه وتعالى موصوف بانه « محيي الموتى » قبل احيائهم ، فكذلك يوصف بانه « خالق » قبل خلقهم ، إلزاما للمعتزلة ومن قال بقولهم ، وتقدم تقرير انه تعالى لم يزل يفعل ما يشاء .

● قال : (ذلك بانه على كل شيء قدير ، وكل شيء اليه فقير ، وكل امر اليه يسير ، لا يحتاج الى شيء ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير) .

وذلك اشارة الى ثبوت صفاته في الازل قبل خلقه .

وقد حرّفت المعتزلة المعنى المفهوم من قوله تعالى

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ٦ / الحشر .

قالوا انه قادر على كل ما هو مقدور له ، واما نفس افعال العباد فلا يقدر عليها ولو كان هذا المعنى صحيحا لكان بمنزلة ان يقال هو عالم بكل ما يعلمه ، وخالق لكل ما يخلقه ، ونحو ذلك من العبارات التي لا فائدة فيها ، فسلبوا صفة كمال قدرته على كل شيء

واما اهل السنة فعندهم ان الله على كل شيء قدير ، وكل ممكن فهو مُندرج في هذا ، واما المحال لذاته - مثل كون الشيء الواحد موجودا معدوما في حال واحدة - فهذا لا حقيقة له ، ولا يتصور وجوده ، ولا يسمى شيئا ، باتفاق العقلاء

وهذا الاصل هو الايمان بربوبيته العامة التامة ، فانه لا يؤمن بانه رب كل شيء الا من آمن انه قادر على تلك الاشياء ، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها الا من آمن بانه على كل شيء قدير

وقوله « ليس كمثله شيء » رد على المشبهة وقوله « وهو السميع البصير » رد على المعطلة فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال ، وليس له فيها شبه ، فالمخلوق وان كان يوصف بانه سميع بصير فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره ، ولا يلزم من اثبات الصفة تشبيهه اذ صفات المخلوق كما يليق

به ، وصفات الخالق كما يليق به ، وقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثل الأعلى ، فقال تعالى :

(الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّىِّ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) ٦٠ / النحل .

وقال تعالى : (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ٢٧ / الروم .

فجعل سبحانه مثل السوء - المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال - لاعدائه المشركين واثانهم ، واخبر ان المثل الأعلى - المتضمن لاثبات الكمال كله - لله وحده ، فمن سلب صفات الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل السوء ، ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى ، وهو الكمال المطلق ، المتضمن للامور الوجودية ، والمعاني الثبوتية ، التي كلما كانت اكثر في الموصوف واكمل : كان بها اكمل واعلى من غيره .

ولما كانت صفات الرب تعالى اكثر واكمل ، كان له المثل الأعلى ، وكان احق به من كل ما سواه ، بل يستحيل ان يشترك في المثل الأعلى اثنان ، لأنهما ان تكافأ من كل وجه : لم يكن احدهما اعلى من الآخر ، وان لم يتكافأ : فالموصوف به احدهما وحده ، فيستحيل ان يكون لمن له المثل الأعلى مثل او نظير .

● قال : (خلق الخلق بعلمه) .

وخلق : اي اوجد وانشأ وابدع . ويأتي خلق ايضا بمعنى : قدر . والخلق مصدر ، وهو هنا بمعنى المخلوق . وقوله : « بعلمه » في محل نصب على الحال ، اي خلقهم علما بهم . قال تعالى : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ) ٥٩ ، ٦٠ / الانعام .

والدليل العقلي على علمه تعالى : انه يستحيل ايجاده الاشياء مع الجهل ، ولأن ايجاده الاشياء بارادته ، والارادة تستلزم تصور المراد ، وتصور المراد هو العلم بالمراد ، فكان الايجاد مستلزما للارادة ، والارادة مستلزمة للعلم ، فالايجاد مستلزم للعمل ، ولأن المخلوقات فيها من الاحكام والاتقان ما يستلزم علم الفاعل لها ، لأن الفعل المحكم المتقن ، يمتنع صدوره عن غير علم ، ولأن من المخلوقات ما هو عالم ، والعلم صفة كمال ، ويمتنع ان لا يكون الخالق عالما .

وهذا له طريقان :

احدهما : ان يقال : نحن نعلم بالضرورة ان الخالق اكمل من المخلوق ، وان الواجب اكمل من الممكن ، ونعلم ضرورة أن لو فرضنا شيئين ، احدهما عالم ، والآخر غير عالم : كان العالم اكمل ، فلو لم يكن الخالق عالما لزم ان

يكون الممكن اكمل منه ، وهو ممتنع .
الثاني : ان يقال كل علم في الممكنات ، التي هي المخلوقات ، فهو منه ،
ومن الممتنع ان يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا منه ، بل هو احق به ، والله
تعالى له المثل الاعلى ، ولا يستوي هو والمخلوق ، لا في قياس تعثلي ، ولا في
قياس شمولي ، بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به احق ، وكل نقص
تنزه عنه مخلوق ما فتنزه الخالق عنه اولى .

● قال : (وقدر لهم اقدارا) .

فقد قال تعالى : (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَقَدَرَهُ تَفْدِيرًا) ٢ / الفرقان .
وقال سبحانه : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) ٤٩ / القمر .

● قال : (وضرب لهم اجالا) .

يعني ان الله سبحانه وتعالى قدر اجال الخلائق ، بحيث اذا جاء اجلهم لا
يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

قال تعالى :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا) ١٤٥ / آل عمران .
وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قالت ام
حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم امتعني بزوجي رسول الله ،
وبأبي سفيان ، وبأخي معاوية . فقال النبي صلى الله عليه وسلم .
« قد سألت الله لآجال مضروبة ، وأيام معدودة ، وارزاق مقسومة . لن
يعجل شيئا قبل اجله ، ولن يؤخر شيئا عن اجله ، ولو كنت سألت الله ان
يعيدك من عذاب في النار ، وعذاب في القبر : كان خيرا وافضل » .

فالمقتول ميت باجله ، فعلم الله تعالى وقدر ان هذا يموت بسبب المرض ،
وهذا بسبب القتل ، وهذا بسبب الهدم ، الى غير ذلك من الاسباب ، والله
سبحانه خلق الموت والحياة ، وخلق سبب الموت والحياة .

وعند المعتزلة : المقتول مقطوع عليه اجله ، ولو لم يقتل لعاش الى اجله ،
فكأن له اجلان !! وهذا باطل ، لأنه لا يليق ان ينسب الى الله تعالى انه جعل له
اجلا يعلم انه لا يعيش اليه البتة ، او يجعل اجله احد الامرين ، كفعل الجاهل
بالعواقب ، واوجب القصاص والضمان على القاتل لارتكابه المنهي عنه ومباشرته
السبب المحذور ، وعلى هذا يخرج قوله صلى الله عليه وسلم « صلة الرحم
تزيد في العمر » اي سبب طول العمر ، وقد قدر الله ان هذا يصل رحمه فيعيش
بهذا السبب الى هذه الغاية ، ولولا ذلك السبب لم يصل الى هذه الغاية ، ولكن
قدر هذا السبب وقضاه . وكذلك قدر ان هذا يقطع رحمه فيعيش الى كذا ، كما

قلنا في القتل وعدمه .

فان قيل : هل يلزم من تأثير صلة الرحم في زيادة العمر ونقصانه تأثير الدعاء في ذلك ام لا ؟

فالجواب : ان ذلك غير لازم ، لقوله صلى الله عليه وسلم لام حبيبة . قد سألت الله تعالى لأجال مضرورية ، كما تقدم ، فعلم ان الاعمار مقدرة ، لم يشرع الدعاء بتغييرها ، بخلاف النجاة من عذاب الآخرة ، فان الدعاء مشروع له نافع فيه . الا ترى ان الدعاء بتغيير العمر لما تضمن النفع الاخروي شرع في الدعاء الذي رواه النسائي من حديث عمار بن ياسر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق : احيني ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي »

ويؤيد هذا ما رواه الحاكم في صحيحه من حديث ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يرد القدر الا الدعاء ، ولا يزيد في العمر الا البر : وان الرجل ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه » وفي الحديث رد على من يظن ان النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء ، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم : انه نهى عن النذر ، وقال . « انه لا يأتي بخير ، وانما يُستخرج به من البخيل » .

واعلم ان الدعاء يكون نافعا مشروعا في بعض الاشياء دون بعض ، وكذلك هو ولهذا لا يجيب الله المعتدين في الدعاء ، وكان الامام احمد يكره ان يدعى له بطول العمر ويقول : هذا امر قد فرغ منه .
واما قوله تعالى : (وَمَا يُعَمِّرْ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ) .
١١ / فاطر .

فقد قيل في الضمير المذكور في قوله تعالى (من عمره) انه بمنزلة قولهم : عندي درهم ونصفه ، اي ونصف درهم آخر ، فيكون المعنى : ولا ينقص من عمر معمر آخر . وقيل : الزيادة والنقصان في الصحف التي في ايدي الملائكة .
وقال تعالى :

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) ٣٨ و ٣٩ / الرعد .
وقد حمل ذلك على ان المحو والاثبات من الصحف التي في ايدي الملائكة ، وان قوله : وعنده ام الكتاب : اللوح المحفوظ .

● قال الطحاوي : (لم يخفَ عليه شيء قبل ان يخلقهم ، وعلم ما هم عاملون قبل ان يخلقهم) .

فانه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن ان لو كان كيف يكون ، كما قال تعالى : (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) ٢٨ / الانعام

وان كان يعلم انهم لا يردون ، ولكن اخبر انهم لو ردوا لعادوا .
وقال سبحانه

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) ٢٣ / الانفال .

● قال : (وامرهم بطاعته ، ونهاهم عن معصيته) .

فذكر الشيخ الامر والنهي ، بعد ذكر الخلق والقدر ، اشارة الى ان الله تعالى خلق الخلق لعبادته ، كما قال تعالى :
(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ٥٦ / الذاريات .

● قال : (وكل شيء يجري بتقديره ، ومشيتته تنفذ لا مشيئة للعباد ، الا ما شاء لهم ، فما شاء لهم : كان ، وما لم يشأ لم يكن) .

وذلك من قول الله تعالى :

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) ٣٠ / الدهر .

وقال سبحانه :

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) ٢٩ / التكويد .

الى غير ذلك من الادلة على انه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وكيف يكون في ملكه ما لا يشاء ! ومن اضل سبيلا واكفر ممن يزعم ان الله شاء الايمان من الكافر ، والكافر شاء الكفر ، فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله ! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . .

فان قيل . يشكل على هذا قوله تعالى

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا) ١٤٨ / الانعام .

وقوله تعالى

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) ٣٥ / النحل .

قيل قد اجيب عن هذا باجوبة ، من احسنها : انه انكر عليهم ذلك لانهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته ، وقالوا لو كره ذلك وسخطه لما شاءه ، فجعلوا مشيئته دليل رضاه ، فرد الله عليهم ذلك ، او انه انكر عليهم اعتقادهم ان مشيئة الله دليل على امره به ، او انه انكر عليهم معارضتهم شرعه وامره الذي ارسل به رسله وانزل به كتبه بقضائه وقدره ، فجعلوا المشيئة العامة دافعة للامر ، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد ، وانما ذكروها معارضين بها لامره ، دافعين بها لشرعه ، كفعل الزنادقة والجهال اذا امروا

او نهوا : احتجوا بالقدر ، وقد احتج سارق على عمر رضي الله عنه بالقدر ، فقال : وانا اقطع يدك بقضاء الله وقدره .

● قال : (يهدي مَنْ يشاء ، ويعصم ويعافي : فضلا . ويضل من يشاء ، ويخذل ويبتلي : عدلا) .

وهذا رد على المعتزلة حين يقولون بوجوب فعل الاصلح للعبد على الله ، وهي مسألة الهدى والضلال .

قالت المعتزلة : الهدى من الله : بيان طريق الصواب ، والاضلال : تسمية العبد ضالا ، وحكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه .

وهذا مبني على اصلهم الفاسد : ان افعال العباد مخلوقة لهم .

والدليل على ما قلناه قوله تعالى :

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ٥٦ / القصص .

ولو كان الهدى بيان الطريق لما صح هذا النفي عن نبيه ، لانه صلى الله عليه وسلم بين الطريق لمن احب وايغض ، ولو كان الهدى من الله البيان - وهو عام في كل نفس - لما صح التقييد بالمشيئة .

● قوله : (وكلهم يتقلبون في مشيئته ، بين فضله وعدله) .

فانهم كما قال تعالى :

(مَرَّأَيْنِي خَلَقْتُكُمْ فَنُكِرْتُمْ كَافِرِينَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) ٢ / التغابن .

فمن هداه الى الايمان فبفضله ، وله الحمد ، ومن اضله فبعده ، وله الحمد . وسيأتي لهذا المعنى زيادة ايضاح ، ان شاء الله تعالى ، فان الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام في القدر في مكان واحد ، بل فرقه ، فاتيت به على ترتيبه .

● قوله : (وهو مُتَعَالٍ عن الاضداد والانداد) .

الضد : المخالف ، والند : المثل ، وهو سبحانه لا معارض له ، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا مثل له ، كما قال تعالى

(وَلََّا يَكُنْ لَهُ كُفْرًا أَحَدٌ) ٤ / الاخلاص .

● قال : (لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غلب لأمره) .

اي لا يرد قضاء الله راد ، ولا يعقب ، اي لا يؤخر حكمه مؤخر ، ولا

يغلب امره غالب ، بل هو الله الواحد القهار .

- قال : (ائنا بذلك كله ، وايقنا ان كلا من عنده) .
- ثم قال : (وان محمدا عبده المصطفى ، ونبيه المجتبي ، ورسوله المرتضى) .

الاصطفاء والاجتباء والارتضاء : متقارب المعنى ، واعلم ان كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى ، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ، ومن توهم ان المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه ، وان الخروج عنها اكمل ، فهو من اجهل الخلق واضلهم . قال تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُۥٓ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمٰتٌ) ٢٦ / الانبياء .

وذكر الله نبيه صلى الله عليه وسلم باسم « العبد » في اشرف المقامات ، فقال في ذكر الاسراء : (سُبْحٰنَ الَّذِىۤ اَسْرٰى بِعَبْدِهٖ) ١ / الاسراء .

وقوله : (وان محمدا) بكسر الهمزة عطفا على قوله (ان الله وحده لا شريك له) لان الكل معمول القول ، اعني قوله (نقول في توحيد الله) .

والطريقة المشهورة عند اهل الكلام والنظر : تقرير نبوة الانبياء بالمعجزات .

ولا ريب ان المعجزات دليل صحيح ، لكن الدليل غير محصور في المعجزات ، فان النبوة يدعيها اصدق الصادقين او اكذب الكاذبين ، ولا يلتبس هذا الا على اجهل الجاهلين ، بل قرائن احوالهما تعرب عنهما ، وتعرف بهما ، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة ، فكيف بدعوى النبوة ؟ وما احسن ما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

لو لم يكن فيه آيات مبيّنة
كانت بديهة تأتيك بالخبر

وما من احد ادعى النبوة من الكاذبين الا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له ادنى تمييز ، فان الرسول لا بد ان يخبر الناس بامور ويأمرهم بامور ، ولا بد ان يفعل امورا يبين فيها صدقه . والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يتبين به كذبه من وجوه كثيرة ، والصادق ضده . بل كل شخصين ادعى امرا أحدهما صادق والآخر كاذب لا بد ان يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة ، ان الصدق مستلزم للبر ، والكذب مستلزم للفجور ، كما في الصحيحين عن النبي

صلى الله عليه وسلم انه قال « عليكم بالصدق ، فان الصدق يهدي الى البر ، وان البر يهدي الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، واياكم والكذب ، فان الكذب يهدي الى الفجور ، وان الفجور يهدي الى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .

فاذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقتزن من القرائن ، فكيف بدعوى المدعي انه رسول الله ؟ كيف يخفى صدق هذا من كذبه ؟ وكيف لا يتميز الصادق في ذلك من الكاذب بوجوه من الادلة ؟

ولهذا لما كانت خديجة رضي الله عنها تعلم من النبي صلى الله عليه وسلم انه الصادق البار ، وقال لها لما جاءه الوحي : « اني قد خشيت على نفسي » ، فقالت : « كلا ، والله لا يخزيك الله ، انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق » .

وكذلك قال النجاشي لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرأوا عليه . « ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة » .

وكذلك ورقة بن نوفل ، لما اخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما رآه ، وكان ورقة قد تنصّر ، وكان يكتب الانجيل بالعربية - وقالت له خديجة رضي الله عنها : اي عم ، اسمع من ابن اخيك ما يقول ، فاخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما رأى قال : « هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى » .

وايضا : فان الله سبحانه ابقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بانبيائه والمؤمنين من الكرامة ، وما فعله بمكذبيهم من العقوبة ، كثبوت الطوفان ، واغراق فرعون وجنوده ، ولما ذكر سبحانه قصص الانبياء نبيا بعد نبى ، في سورة الشعراء ، كقصة موسى وابراهيم ونوح ومن بعده ، يقول في آخر كل قصة :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةًٌ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) ٨ و ٩ / الشعراء .

ونحن اليوم علمنا بالتواتر من احوال الانبياء واوليائهم واعدائهم علما يقينا انهم كانوا صادقين من وجوه متعددة

منها : انهم اخبروا الامم بما سيكون من انتصارهم وخذلان اولئك وبقاء العاقبة لهم .

ومنها ما احدثه الله لهم من نصرهم واهلاك عدوهم ، اذا عرف الوجه الذي حصل عليه - كغرق فرعون وغرق قوم نوح - عرف صدق الرسل

ومنها ان من عرف صدق ما جاءت به الرسر من الشرائع رفاصيل
احوالها تبين له انهم اعلم الخلق . وانه لا يحضر مثلك من كذاب جاهل
بل انكار رسالته صلى الله عليه وسلم طعن في الرب تبارك وتعالى ، ونسبة
له الى الظلم . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، بل جحد للرب بالكلية وانكار .

وبيان ذلك انه اذا كان محمد عندهم ليس بنبي صادق ، بل ملك ظالم ،
فقد تهيأ له ان يفتري على الله ، ويتقول عليه ، ويستمر حتى يحل ويحرم ،
 ويفرض الفرائض ، ويشرع الشرائع ، وينسخ المثل ، ويضرب الرقاب ، ويقتل
اتباع الرسل وهم اهل الحق ، ويتم ذلك حتى تفتح له الارض ، وينسب ذلك كله
الى امر الله له به ، والرب تعالى يشاهده وهو يفعل باهل الحق ، وهو مستمر
بالافتراء عليه ثلاثا وعشرين سنة . وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره ، ويعلي امره
ويمكن له من اسباب النصر الخارجة عن عادة البشر ، وابلغ من ذلك انه يجيب
دعوته ، ويهلك اعداءه ، ويرفع له ذكره ، هذا وهو عندهم في غاية الافتراء
والظلم ، والله تعالى يقره على ذلك ، فيلزمهم ان يقولوا لا صانع للعالم ولا
مدبر ، ولو كان له مدبر قدير لأخذ على يديه وجعله نكالا للعالمين ، اذ لا يليق
بالمملوك غير ذلك ، فكيف بملك الملوك واحكم الحاكمين ؟

ونحن لا ننكر ان كثيرا من الكذابين قائم في الوجود ، وظهرت له شوكة ،
ولكن لم يتم امره ، ولم تطل مدته ، بل يسلط الله عليه رسله واتباعه .

هذه سنة الله قد خلت من قبل ، حتى ان الكفار يعلمون ذلك . قال
تعالى (اَمْ يَقُولُونَ شِعْرُ نَبِيِّنَا بِهِ . رَبِّبَ الْمُؤْمِنِينَ . قُلْ تَرَبُّواْ فِىْ اَنْفُسِكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ)
٢٠ - (٣) / الطور .

● قال الطحاوي : (وانه خاتم الانبياء) .

وذلك قول الله تعالى

(وَلَٰكِنْ رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) ٤٠ / الاحزاب .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل
رجل بنى بيتا فاحسنه واجمله الا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس
يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فانا
اللبنة ، وانا خاتم النبيين » . رواه البخاري

وقال صلى الله عليه وسلم « لي خمسة اسماء انا محمد واحمد ، وانا
المحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وانا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ،
وانا العاقب » رواه البخاري ، والعاقب الذي ليس بعده نبي

● قال : (وامام الاتقياء) .

والامام : الذي يؤتم به ، اي يقتدون به ، والنبي صلى الله عليه وسلم
انما بعث للاقتداء به ، لقوله تعالى :

(قُلْ اِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) ٣١ / آل عمران .

وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الاتقياء .

● قال : (وسيد المرسلين) .

فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « انا سيد ولد آدم يوم القيامة ،
واول من ينشق عنه القبر ، واول شافع ، واول مشفع » . ر . ه . مسلم .

فان قيل : يشكل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تفضلوني على
موسى ، فان الناس يصعقون يوم القيامة ، فاكون اول من يفيق ، فاجد
موسى باطشاً بساق العرش ، فلا ادري : هل افاق قبلي ؟ او كان ممن
استثنى الله ؟ » خرّجاه في الصحيحين . فكيف يجمع بين هذا وبين قوله .
« انا سيد ولد آدم » ؟

فالجواب ان هذا كان له سبب . فانه كان قد قال يهودي ، لا والذي اصطفى موسى على
البشر . فلطمه مسلم وقال ، اتقول هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين اظهرنا ؟ فجاء
اليهودي فاشتكى من المسلم الذي لطمه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم . لأن التفضيل اذا
كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس . كان مذموماً . بل نفس الجهاد اذا قاتل الرجل
حمية وعصبية : كان مذموماً . فان الله حرم الفخر . وقد قال تعالى :

(نَكَرَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْ كَلَمِ اللَّهِ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ)
٢٥٢ / البقرة .

فعلم ان المذموم انما هو التفضيل على وجه الفخر ، او على وجه الانتقاص
بالمفضول .

واما ما يروى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال . « لا تفضلوني على
يونس بن متى » ، فان هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه احد من اهل الكتب
المعتمدة ، وانما اللفظ الذي في الصحيح : « لا ينبغي لعبد ان يقول : انا خير
من يونس بن متى » . وفي رواية : « من قال : اني خير من يونس بن متى
فقد كذب » . وهذا اللفظ يدل على العموم . لا ينبغي لاحد ان يفضل نفسه على
يونس ، ليس فيه نهى المسلمين ان يفضلوا محمداً على يونس ، وذلك لأن الله
تعالى قد اخبر عنه انه التقمه الحوت وهو مليم ، اي فاعل ما يلام عليه ، ثم ذكر

الله خبره من بعد فقال

(وَذَا الثُّرُبِ إِذْ ذَمَّ مُغْنِضًا فَظَرُّهُ أَنْ لَنْ تُقَدَّرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) ٨٧ / الأنبياء ..
فقد يقع في نفس بعض الناس انه اكمل من يونس ، فلا يحتاج الى هذا
المقام ، مقام الاستغفار والاعتراف والتسبيح ، فمن ظن هذا فقد كذب ، بل
كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس ان : (لا اله الا انت سبحانك اني كنت
من الظالمين) ، كما قال اول الانبياء وآخرهم ، فاولهم آدم . قال :
(رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ٢٣ / الاعراف .
وآخرهم وافضلهم وسيدهم : محمد صلى الله عليه وسلم : قال في
الحديث الصحيح : « اللهم انت الملك لا اله الا انت ، انت ربي وانا عبدك ،
ظلمت نفسي ، واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعا ، لا يغفر الذنوب
الا انت » .

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « أُوحِيَ إِلَيَّ
أَنْ تَوَاضَعُوا ، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ » .

فالله تعالى نهى ان يفخر على عموم المؤمنين ، فكيف على نبي كريم ؟

وانما اخبر صلى الله عليه وسلم انه سيد ولد آدم لانا لا يمكننا ان نعلم
ذلك الا بخبره ، اذ لا نبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله ، كما اخبرنا هو
بفضائل الانبياء قبله ، صلى الله عليهم اجمعين ، ولهذا اتبعه بقوله « ولا
فخر » كما جاء في رواية .

وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر : ان مقام الذي اسري به الى ربه ،
وهو مقرب مكرم ، كمقام الذي القي في بطن الحوت وهو ملهم ؟

● ثم قال الطحاوي : (وحبيب رب العالمين) .

فقد ثبت له صلى الله عليه وسلم اعلى مراتب المحبة ، وهي الخلّة ، كما
صح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال « ان الله اتخذنني خليلا كما اتخذ
ابراهيم خليلا » ، وقال : « ولو كنت متخذا من اهل الارض خليلا لاتخذت
ابا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الرحمن » .

والحديثان في الصحيح ، وهما يُبطلان قول من قال الخلّة لابراهيم والمحبة
لمحمد ، فقد ثبتت المحبة لغيره من المؤمنين ، كما قال الله تعالى

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) ٢٢٢ / البقرة

واما حديث « ان ابراهيم خليل الله ، الا وانا حبيب الله ولا فخر » الذي رواه الترمذي فانه لم يثبت ، لضعف راويه زمعة بن صالح .

● قال : (وكل دعوى النبوة بعده ففي وهوى) .

وذلك لانه خاتم النبيين ، فعلم ان من ادعى النبوة بعده فهو كاذب .

ولا يقال : فلوجاء المدعي للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة كيف يقال بتكذيبه ؟ لاننا نقول : هذا لا يتصور ان يوجد ، وهو من باب فرض المحال ، لان الله تعالى لما اخبر انه خاتم النبيين ، فمن المحال ان يأتي مدع يدعي النبوة ولا يظهر كذبه .

والغي : ضد الرشاد .

والهوى : عبارة عن شهوة النفس .

● قال : (وهو المبعوث الى عامة الجن وكافة الورى ، بالحق والهدى ، وبالنور والضياء) .

فاما كونه مبعوثا الى عامة الجن فثبت في قوله تعالى :

(يَتَقَوَّمَتَا اٰجِبُوْا دَاْعِيَ اللّٰهِ وَءَامِنُوْا بِهِۦٓ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوْبِكُمْ وَيَجْرُكُم مِّنْ عَذَابٍ اَلِيْمٍ)
٣١ / الاحقاف .

والذين يخاطبون الجن هنا ويقولون : يا قومنا ، هم نفر من انفسهم ، وهم الذين صرفهم الله الى النبي صلى الله عليه وسلم لاستماع القرآن ، ثم ولوا الى قومهم منذرين . . . وكذا سورة الجن تدل على انه ارسل اليهم .

وظاهر القرآن يدل على ان موسى عليه السلام مرسل اليهم ايضا ، والله اعلم ، وذلك قوله تعالى : (قَالُوْا يَتَقَوَّمَتَا اِنَّا سَمِعْنَا كُتُبًا اُنْزِلَ مِنْۢ بَعْدِ مُوسٰى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىْ اِلَى الْحَقِّ وَاِلٰى طَرِيْقٍ مُّسْتَقِيْمٍ) ٣٠ / الاحقاف .

واما كونه مبعوثا الى كافة الورى فقد قال الله تعالى :

(وَمَا اَرْسَلْنَاكَ اِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيْرًا وَنَذِيْرًا) ٢٨ / سبأ .

وقال سبحانه :

(قُلْ يٰٓاَيُّهَا النَّاسُ اِنِّىۤ رَسُوْلُ اللّٰهِ اِلَيْكُمْ جَمِيْعًا) ١٥٨ / الاعراف)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اعطيت خمسا لم يعطهن احد من الانبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الارض مسجداً

وطهورا ، فأيمارجل من امتي ادركته الصلاة فليصل . وأُحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي ، وأُعطيْتُ الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، ويُبعثُ إلى الناس عامة » رواه البخاري ومسلم في الصحيحين .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » . رواه مسلم .

وكونه صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى الناس كافة معلوم من دين الاسلام بالضرورة .

وأما قول النصاري : انه رسول إلى العرب خاصة فظان البطلان ، فقد قال انه رسول الله إلى الناس عامة ، والرسول لا يكذب ؛ فلزم تصديقه حتما ، فقد ارسل رسله وبعث كتبه في اقطار الارض ، إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وسائر ملوك الاطراف ، يدعوهم إلى الاسلام .

● قال الطحاوي رحمه الله :

(وان القرآن كلام الله ، منه بدا بلا كيفية ، قولاً ، وانزله على رسوله ، وحياً ، وصدقه المؤمنون على ذلك ، حقاً ، وايقنوا انه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق ككلام البرية ، فمن سمعه فزعم انه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله وعابه واوعده بسقر ، حيث قال تعالى : « ساصليه سقر » ، فلما اوعد الله بسقر لمن قال « ان هذا الا قول البشر » : علمنا وايقنا انه قول خالق البشر ، ولا يشبه قول البشر) .

قال ابن ابي العز الاذري الشارح رحمه الله

وهذه قاعدة شريفة ، واصل كبير من اصول التدين ، ضل فيه طوائف كثيرة من الناس . وهذا الذي حكاه الطحاوي رحمه الله هو الحق الذي دلت عليه الادلة ، من الكتاب والسنة ، لمن تدبرهما ، وشهد به الفطرة السليمة التي لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة .

وقوله « منه بدا بلا كيفية قولاً » رد على المعتزلة وغيرهم ، فان المعتزلة تزعم ان القرآن لم يبد منه . قالوا واضافته اليه اضافة تشريف ، كبيت الله ، وناقاة الله ، يحرفون الكلام عن مواضعه ، وقولهم باطل ، فان المضاف إلى الله تعالى معانٍ واعيانٌ ، فاضافة الاعيان إلى الله للتشريف ، وهي مخلوقة له ، كبيت الله ، بخلاف اضافة المعاني ، كعلم الله ، وقدرته ، وعزته ، وكلامه ، فان هذا كله من صفاته ، لا يمكن ان يكون شيء من ذلك

والوصف بالتكلم من اوصاف الكمال ، وضده من اوصاف النقص . قال تعالى : (وَأَتَّخِذُ قَوْمٌ مُّوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ ۚ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمٌ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يُهَيِّئُ لَهُمْ سَبِيلًا) ١٤٨ / الاعراف .

فكان عجل العجل — مع كفرهم — اعرف بالله من المعتزلة ، فانهم لم يقولوا لموسى : وربك لا يتكلم ايضا .

وقد قال تعالى عن العجل ايضا :

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) ٨٩ / طه .
فعلم ان نفي رجوع القول ونفي التكلم نقص يُستدل به على عدم الوهية العجل .

وغاية شبهتهم انهم يقولون : يلزم منه التشبيه والتجسيم . فيقال لهم : اذا قلنا انه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله : انتفت . الا ترى انه تعالى قال : (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ) ٦٥ / يس .
فنحن نؤمن انها تتكلم ، ولا نعرف كيف تتكلم .

وكذا قوله تعالى :

(وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ تُهْدَمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ) ٢١ / فصلت .

والى هذا اشار الشيخ رحمه الله بقوله : « منه بدا بلا كيفية قولا » ، اي : ظهر منه ولا ندري كيفية تكلمه به . واكد هذا المعنى بقوله : « قولا » اتى بالمصدر المعرف للحقيقة ، كما اكد الله تعالى بالمصدر المثبت النافي للمجاز في قوله : (وكلم الله موسى تكليما) فماذا بعد الحق الا الضلال ؟

ولقد قال بعضهم لابي عمرو بن العلاء — احد القراء السبعة — اريد ان تقرأ وكلم الله موسى ، بنصب اسم الله ، ليكون موسى هو المتكلم لا الله ، فقال له ابو عمرو : هب اني قرأت هذه الآية كذا ، فكيف تصنع بقوله تعالى . (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) ؟ فبهت المعتزلي .

وكم في الكتاب والسنة من دليل على تكلم الله تعالى لاهل الجنة وغيرهم «

قال تعالى : (سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ) ٥٨ / يس .

وقال سبحانه : (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا يَخْلُقُ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ) ٧٧ / آل عمران .

فأهانهم بترك تكليمهم . والمراد انه لا يكلمهم تكليم تكريم ، وهو الصحيح ، اذ قد اخبر في الآية الاخرى انه يقول لهم في النار :

(اَخْفُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا) ١٠٨ / المؤمنون .

فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين لكانوا في ذلك هم واعدائه سواء ، ولم يكن في تخصيص اعدائه بانه لا يكلمهم فائدة اصلا .

وقال البخاري في صحيحه : باب كلام الرب تبارك وتعالى مع اهل الجنة . وساق فيه عدة احاديث .

فافضل نعيم اهل الجنة : رؤية وجهه تبارك وتعالى ، وتكليمه لهم ، فانكار ذلك : انكار لروح الجنة واعلى نعيمها وافضله الذي ما طابت لاهلها الا به .

واما استدلالهم بقوله تعالى : « الله خالق كل شيء » والقرآن شيء فيكون داخلا في عموم « كل » ، فيكون مخلوقا !! فمن اعجب العجب . وذلك ان افعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى ، وانما يخلقها العباد جميعا ، لا يخلقها الله ، فاخرجوها من عموم « كل » وادخلوا كلام الله في عمومها ، مع انه صفة من صفاته ، به تكون الاشياء المخلوقة ، اذ بأمره تكون المخلوقات . قال تعالى :

(وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخُورَاتٌ بِأَمْرِ اللَّهِ ۚ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) ٥٤ / الاعراف .

ففرق بين الخلق والامر ، فلو كان الامر مخلوقا للزم ان يكون مخلوقا بامر آخر ، والآخر باخر ، الى ما لا نهاية له ، فيلزم التسلسل ، وهو باطل .

وعوم « كل » في كل موضع بحسبه ، ويعرف ذلك بالقرائن . الا ترى الى قوله تعالى : (تدمر كل شيء بامر ربها فاصبحوا لا يرى الا مساكنهم) ، ومساكنهم شيء ، ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح ؟ وذلك لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير .

وكذا قوله تعالى حكاية عن بلقيس : (وأوتيت من كل شيء) ، المراد : من كل شيء يحتاج اليه الملوك ، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام ، اذ مراد الهدد انها ملكة كاملة في امر الملك .

ولهذا نظائر كثيرة .

والمراد من قوله تعالى : (خالق كل شيء) اي : كل شيء مخلوق ، وكل موجود سوى الله فهو مخلوق ، فدخل في هذا العموم افعال العباد حتما ، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى ، وصفاته ليست غيره ، لأنه سبحانه وتعالى هو

الموصوف بصفات الكمال ، وصفاته لازمة لذاته المقدسة ، لا يتصور انفصال صفاته عنه .

واما استدلالهم بقوله تعالى : (انا جعلناه قرآنا عربيا) فما افسده من استدلال ! فان « جعل » اذا كان بمعنى خلق يتعدى الى مفعول واحد ، كقوله تعالى : (وجعل الظلمات والنور) ، وقوله تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) . واذا تعدى الى مفعولين : لم يكن بمعنى خلق . قال تعالى : (وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) ٩١ / النحل . وقال تعالى : (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) ٩١ / الحجر . ونظائره كثيرة .

فكذا قوله تعالى : (اِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) ٣ / الزخرف . فان قيل : قد قال الله تعالى : (اِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) ١٩ / التكوين . وهذا يدل على ان الرسول احده ، اما جبريل او محمد . قيل : ذكر الرسول معرّف انه مُبلّغ عن مرسله ، لانه لم يقل انه قول ملك او نبي ، فعلم انه بلغه عن مرسله به ، لا انه انشأه من جهة نفسه . وايضا : فالرسول في احدي الآيتين : جبريل ، وفي الاخرى : محمد ، فاضافته الى كل منهما تبين ان الاضافة للتبليغ ، اذ لو احدهما ، امتنع ان يُحدثه الآخر .

وايضا : فقوله « امين » دليل على انه لا يزيد في الكلام الذي أُرسِل بتبليغه ولا ينقص منه ، بل هو امين على ما أُرسِل به ، يبلغه عن مرسله . وايضا : فان الله قد كفر من جعله قول البشر ، ومحمد صلى الله عليه وسلم بشر ، فمن جعله قول محمد ، بمعنى انه انشأه ، فقد كفر ، ولا فرق بين ان يقول انه قول بشر ، او جنّي ، او ملك . والكلام كلام من قاله مبتدئا ، لا من قاله مُبلغا .

وبالجملة : فاهل السُّنة كلهم ، من اهل المذاهب الاربعة وغيرهم ، من السلف والخلف ، متفقون على ان كلام الله غير مخلوق . ولو ترك الناس على فطرتهم السليمة وعقولهم المستقيمة لم يكن بينهم نزاع ، ولكن القى الشيطان الى بعض الناس اغلوطة من اغاليطه فرّق بها بينهم ، وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد

والذي يدل عليه كلام الطحاوي رحمه الله انه تعالى لم يزل متكلم اذا شاء كيف شاء . وان نوع كلامه قديم وكذلك ظاهر كلام الامام ابي حنيفة

رحمه الله في الفقه الاكبر ، فانه قال والقرآن في المصاحف مكتوب ، وفي القلوب محفوظ ، وعلى اللسان مقروء ، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم مُنْزَل ، ولفظنا بالقرآن مخلوق ، والقرآن غير مخلوق .

ولا شك ان الرسل الذين خاطبوا الناس واخبروهم ان الله قال ونادى وناجى ويقول : لم يفهموهم ان هذه مخلوقات منفصلة عنه ، بل الذي افهموهم اياه : ان الله نفسه هو الذي تكلم ، والكلام قائم به لا بغيره ، وانه هو الذي تكلم به وقاله . كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديث الافك : « ولشأنني في نفسي احقر من ان يتكلم الله في بؤحي يُتلى » ولو كان المراد من ذلك كله خلاف مفهومه لوجب بيانه ، اذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اعوذ بكلمات الله التامات » . فهل يقول عاقل انه صلى الله عليه وسلم عاذ بمخلوق ؟ بل هذا كقوله : « اعوذ برضاك من سخطك » ، واعوذ بمعافاتك من عقوبتك » . كل هذه من صفات الله تعالى .

وحقيقة كلام الله تعالى الخارجية : هي ما يسمع منه او من المبلغ عنه ، فاذا سمعه السامع : علمه وحفظه ، فكلام الله مسموع له محفوظ معلوم . فاذا قاله السامع فهو مقروء له متلو ، فان كتبه فهو مكتوب له مرسوم ، وهو حقيقة في هذه الوجوه ، لا يصح نفيه ، والمجاز يصح نفيه ، فلا يجوز ان يقال : ليس في المصاحف كلام الله ، ولا : ما قرأ القارئ كلام الله ، وقد قال تعالى :

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ) ٦ / التوبة . وهو لا يسمع كلام الله من الله ، وانما يسمعه من مُبلّغه عن الله ، وهذه الآية تدل على فساد قول من قال : ان المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله ، فانه تعالى قال : (حتى يسمع كلام الله) ، ولم يقل : حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله والاصل : الحقيقة ، ومن قال : ان المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله ، او حكاية كلام الله ، وليس فيها كلام الله : فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الامة ، وكفى بذلك ضلالا .

وكلام الطحاوي يرد قول من قال انه معنى واحد لا يتصور سماعه منه ، وان المسموع المنزل المقروء والمكتوب ليس كلام الله وانما هو عبارة عنه ، فان الطحاوي رحمه الله يقول : « كلام الله منه بدا » وكذلك قال غيره من السلف : « ويقولون منه بدا ، واليه يعود » وانما قالوا : منه بدا ، لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون انه خلق الكلام في محل ، فبدا الكلام من ذلك المحل ، فقال السلف : منه بدا . اي هو المتكلم به ، فمنه بدا ، لا من بعض المخلوقات ، كما قال تعالى

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) ١ / الزمر

وقال سبحانه . (وَلَئِكَ خَرَّ الْقَوْلُ مِنِّي) ١٣ / السجدة .

ومعنى قولهم : « واليه يعود » اي يرفع من الصدور والمصاحف ، فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف ، كما جاء ذلك في عدة آثار .

وقوله « بلا كيفية » اي لا يعرف كيفية تكلمه به قولا ليس بالمجاز ، وانزله على رسوله وحيا ، اي انزله اليه على لسان الملك ، فسمعه الملك جبريل من الله ، وسمعه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من الملك وقراه على الناس .

قال تعالى : (تَزَلُّ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٤﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٥﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٥ / الشعراء .

وقوله : « وایقنوا انه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية » رد على المعتزلة وغيرهم . وفي قوله : « بالحقيقة » رد على من قال انه معنى واحد قائم بذات الله لم يسمع منه وانما هو الكلام النفساني ، لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفساني ولم يتكلم به : ان هذا كلام حقيقة ، والا للزم ان يكون الاخرس متكلماً ، ولزم ان لا يكون الذي في المصحف عند الاطلاق هو القرآن ولا كلام الله ، ولكن عبارة عنه ليست هي كلام الله ، كما لو اشار اخرس الى شخص باشارة فهم بها مقصوده ، فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذي اوحاه اليه ذلك الاخرس ، فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى ، وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه ، وان كان الله تعالى لا يسميه احد « اخرس » ، لكن عندهم ان الملك فهم منه معنى قائماً بنفسه ، لم يسمع منه حرفاً ولا صوتاً ، بل فهم معنى مجرداً ، ثم عبر عنه ، فهو الذي احدث نظم القرآن وتأليفه العربي .

ويرد قول من قال بان الكلام هو المعنى القائم بالفس : قوله صلى الله عليه وسلم : « ان صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس » . وقال : « ان الله يحدث من امره ما يشاء ؛ وان مما احدث : ان لا تكلموا في الصلاة » . فقد اتفق العلماء على ان المصلي اذا تكلم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته . واتفقوا كلهم على ان ما يقوم بالقلب — من تصديق بامور دنيوية وطلب — لا يبطل الصلاة ، وانما يبطلها التكلم بذلك ، فعلم اتفاق المسلمين على ان هذا ليس بكلام .

ولا شك ان من قال : ان كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى ، وان المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارئ حكاية كلام الله ، وهو مخلوق . فقد قال بخلق القرآن وهو لا يشعر ، فان الله يقول

(قُلْ لِّیْنَ اجْتَمَعَتِ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ عَلٰی اَنْ یَّاتُوْا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْاٰنِ لَا یَاتُوْنَ بِمِثْلِهٖ) ٨٨ / الاسراء .

افتراه سبحانه يشير الى ما في نفسه او الى المتلو المسموع ؟

لا شك ان الاشارة انما هي الى هذا المتلو المسموع ، اذ ما في ذات الله غير مشار اليه ولا متلو ولا مسموع .

وقوله . « لا يأتون بمثله » افتراه سبحانه يقول : لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعه ولم يعرفوه ؟ وما في نفس الله عز وجل لا سبيل الى الوصول اليه ؟

وقوله : « ومن سمعه وقال انه كلام البشر فقد كفر » قول صحيح ، اذ لا شك في تكفير من انكر ان القرآن كلام الله ، ومن قال انه كلام محمد او غيره من الخلق ، ملكا كان او بشرا . واما اذا اقر انه كلام الله ، ثم اولّ وحرّف : فقد وافق قول من قال : (ان هذا الا قول البشر) في بعض ما به كفر .

وقوله : « ولا يشبه قول البشر » يعني : انه اشرف وافصح واصدق . قال تعالى : (وَمَنْ أَضْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) ٨٧ / النساء .

وقال تعالى : (قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) ٣٨ / يونس .

فلما عجزوا - وهم فصحاء العرب ، مع شدة العداوة - عن الاتيان بسورة مثله : تبين صدق الرسول صلى الله عليه وسلم انه من عند الله ، واعجازه من جهة نظمه ومعناه ، لا من جهة احدهما فقط .

● قال الطحاوي : (ومن وصف الله بمعاني البشر ، فقد كفر . من ابصر هذا اعتبر ، وعن مثل قول الكفار انزجر ، علم انه بصفته ليس كالبشر) .

لما ذكر الشيخ فيما تقدم ان القرآن كلام الله حقيقة ، منه بدا : نبه بعد ذلك على انه تعالى بصفاته ليس كالبشر ، نفيا للتشبيه عقيب الاثبات . يعني ان الله تعالى وان وصف بانه متكلم ، لكن لا يوصف بمعنى من معاني البشر التي يكون الانسان بها متكلم ، فان الله ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير .

● قال : (والرؤية حق لاهل الجنة ، بغير احاطة ولا كيفية ، كما نطق به كتاب ربنا : « وَبِشَرِّ يَوْمٍئِذٍ نَاضِرَةٌ اِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ » وتفسيره على ما اراد الله تعالى وعلمه ، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كما قال : ومعناه على ما اراد ، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ، ولا متوهمين باهوائنا ، فانه ما سلم في دينه الا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ورد علم ما اشتبه عليه الى عالمه) .

وهذا رد من الطحاوي على من خالف في الرؤية ، رؤية المؤمنين اذا دخلوا الجنة الرب سبحانه ، اذ انكر ذلك الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم ، وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة . وقد قال بثبوت الرؤية : الصحابة والتابعون ، وائمة الاسلام المعروفون بالامامة في الدين ، واهل الحديث ، وسائر طوائف اهل الكلام المنسوبون الى السنة والجماعة .

وقد ذكر الشيخ رحمه الله من الادلة قوله تعالى :

(وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ) ٢٢ / القيامة .

وهي من اظهر الادلة ، واما من ابى الا تحريفها بما يسميه تأويلا : فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب اسهل من تأويلها على ارباب التأويل ، ولا يشاء مبطل ان يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها الا وجد الى ذلك من السبيل ما وجده متأول هذه النصوص .

وهذا الذي افسد الدنيا والدين ، وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والانجيل ، وحذرنا الله ان نفعل مثلهم ، وابى المبطلون الا سلوك سبيلهم .

واضافة النظر الى الوجه - الذي هو محله - في هذه الآية ، وتعديته باداة « الى » الصريحة في نظر العين ، واخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافه : حقيقة موضوعية في ان الله اراد بذلك نظر العين التي في الوجه الى الرب جل جلاله ، فان « النظر » له عدة استعمالات ، بحسب صلاته ، وتعديه بنفسه ، فان عدي بنفسه فمعناه : التوقف والانتظار ، كقوله : (انظرونا نقتبس من نوركم) . وان عدي بـ « في » فمعناه : التفكير والاعتبار ، كقوله تعالى : (او لم ينظروا في ملكوت السموات والارض) . وان عدي بـ « الى » فمعناه : المعاينة بالابصار ، كقوله تعالى : (انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه) . فكيف اذا اضيف الى الوجه الذي هو محل البصر ؟

وقال تعالى : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) ٢٦ / يونس .

فالحسنى : الجنة ، والزيادة : هي النظر الى وجهه الكريم ، فسرهما بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما روى مسلم في صحيحه عن صهيب قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : للذين احسنوا الحسنى وزيادة ثم قال :

« اذا دخل اهل الجنة الجنة ، واهل النار النار : نادى مناد : يا اهل الجنة ، ان لكم عند الله موعدا يريد ان يتجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ الم يُثقل موازيننا ويُبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُجربنا من النار ؟ فيُكشَف الحجاب ، فينظرون اليه ، فما اعطاهم شيئا احب اليهم من النظر اليه ،

وهي الزيادة .

ورواه غيره باسانيد متعددة والفاظ أخر ، وكذلك فسرهما الصحابة رضي الله عنهم ، روى ابن جرير الطبري ذلك عن جماعة منهم : ابو بكر الصديق رضي الله عنه ، وحذيفة ، وابو موسى الاشعري ، وابن عباس ، رضي الله عنهم .

وقال تعالى : (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ) ١٥ / المطففين .

وقد احتج الشافعي رحمه الله وغيره من الائمة بهذه الآية على الرؤية لاهل الجنة . ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني عن الشافعي قال : لما ان حجب هؤلاء في السخط : كان في هذا دليل على ان اولياءه يرونه في الرضاء .

واما استدلال المعتزلة بقوله تعالى : (لن تراني) ، ويقولون تعالى : (لا تدركه الابصار) - فالآيتان دليل عليهم .

اما الآية الاولى : فالاستدلال منها على ثبوت الرؤية من وجوه :

احدها : انه لا يُظن بكليم الله ورسوله الكريم واعلم الناس بربه في وقته ان يسأل ما لا يجوز عليه .

الثاني : ان الله لم ينكر عليه سؤاله ، ولما سأل نوح ربه نجاه ابنه : انكر سؤاله وقال : (اني اعظك ان تكون من الجاهلين) .

الثالث : انه تعالى قال : لن تراني ، ولم يقل : اني لا أرى ، او لا يجوز رؤيتي ، والفرق بين الجوابين ظاهر ، وموسى لا تحتل قواه رؤيته في هذه الدار ، لضعف قوى البشر فيها .

الرابع : قول الله تعالى :

(وَلَئِنْ أَنْظَرْنَا إِلَى الْجَبَلِ لَإِنَّا سَنَجْعَلُهُ دُكَّانًا فَسَوْفَ تَرَوْنِي) ١٤٣ / الاعراف .

فاعلمه ان الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار ، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف ؟

الخامس : قوله تعالى :

(فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا) ١٤٣ / الاعراف .

فاذا جاز ان يتجلي للجبل ، الذي هو جماد ، فكيف يمتنع ان يتجلي لرسوله واوليائه في دار كرامته ؟ ولكن الله تعالى أعلم موسى ان الجبل اذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر اضعف .

السادس ان الله كلم موسى وناداه وناجاه ، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وان يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة فرويته اولى بالجواز ، ولهذا لا يتم انكار رؤيته الا بانكار كلامه .

واما دعوى المعتزلة تأييد النفي بـ « لن » . وان ذلك يدل على نفي الرؤية في الآخرة :- ففاسد ، فانها لو قيدت بالتأييد لا يدل على دوام النفي في الآخرة ، فكيف اذا اطلقت ؟

قال تعالى : (وَلَنْ يَمَسَّهُ أَبَدًا) ٩٥ / البقرة .

مع قوله : (وَنَادَايَمْلِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ) ٧٧ / الزخرف .

ولأنها لو كانت للتأييد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها ، وقد جاء ذلك . قال تعالى : (فَلَنْ أَرْجَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ رَبِّ) ٨٠ / يوسف .

فثبت ان « لن » لا تقتضي النفي المؤبد .

قال الشيخ جمال الدين بن مالك رحمه الله في الالفية المشهورة :

ومن رأى النفي بلن مؤبدا فقله اردد وسواء فاعضدا

واما الآية الثانية : فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف ، وهو : ان الله تعالى انما ذكرها في سياق التمدح ، ومعلوم ان المدح انما يكون بالصفات الثبوتية ، واما العدم المحض فليس بكمال ، فلا يمدح به ، وانما يمدح الرب تعالى بالنفي اذا تضمن امرا وجوديا ، كمدحه بنفي السنة والنوم ، المتضمن كمال القيومية ، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة ، ونفي اللغوب والاعياء ، المتضمن كمال القدرة ، ونفي الشريك والصاحبة ، والولد والظهير ، المتضمن كمال الربوبية والالوهية وقهره . ونفي الظلم ، المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه . ونفي النسيان وعزوب شيء من علمه ، المتضمن كمال علمه واحاطته . ونفي المثل ، المتضمن لكمال ذاته وصفاته .

ولهذا لم يمتدح بعدم محض لم يتضمن امرا ثبوتيا ، فان المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم ، ولا يوصف الكامل بامر يشترك هو والمعدوم فيه ، فان المعنى : انه يرى ولا يدرك ولا يحاط به ، فقله : لا تدركه الابصار : يدل على كمال عظمته : وانه اكبر من كل شيء ، وانه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به ، فان الادراك هو الاحاطة بالشيء ، وهو قدر زائد على الرؤية ، فالرب تعالى يرى ولا يدرك ، كما يعلم ولا يحاط به علما ، وهو الذي فهمه الصحابة والائمة

من هذه الآية ، بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من ادراكها على ما هي عليه .

واما الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، الدالة على الرؤية ، فمتواترة . منها : حديث ابي هريرة : ان ناسا قالوا : يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا . قال : فانكم ترونه كذلك » . اخرجاه في الصحيحين .

وحديث ابي سعيد الخدري ايضا في الصحيحين نظيره .

وحديث جرير بن عبد الله التجلي قال : « كنا جلوسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فنظر الى القمر ليلة اربع عشرة ، فقال : انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا ، لا تضامون في رؤيته » اخرجاه في الصحيحين .

وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيها لله ، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية ، لا تشبيه المرئي بالمرئي .

وقول الطحاوي « والرؤية حق لاهل الجنة » : تخصيص اهل الجنة بالذكر ، فيفهم منه نفى الرؤية عن غيرهم .

وكذلك يروونه في المحشر قبل دخولهم الجنة ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدل عليه قوله تعالى :

(نَجِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) ٤٤ / الاحزاب .

واتفقت الامة على انه لا يراه احد في الدنيا بعينه ، ولم يتنازعوا في ذلك ، الا في نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة : منهم من نفى رؤيته بالعين : ومنهم من اثبتها له صلى الله عليه وسلم . وحكى القاضي عياض في كتابه « الشفا » اختلاف الصحابة ومن بعدهم في رؤيته صلى الله عليه وسلم ، وانكار عائشة رضي الله عنها ان يكون النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين راسه ، وانها قالت لمسروق حين سألها : هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت . ثم قالت : من حدثك ان محمدا رأى ربه فقد كذب . ثم قال : وقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها ، وهو المشهور عن ابن مسعود وابي هريرة في قول عنه : وقال بانكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : انه صلى الله عليه وسلم رآه بعينه ، وروى عطاء عنه انه رآه بقلبه .

قال عياض : القول بانه رآه بعينه ليس فيه قاطع ولا نص ، والمعول فيه على آيتي النجم ، والتنازع فيهما ماثور ، والاحتمال لهما ممكن .

وهذا القول الذي قاله القاضي عياض رحمه الله هو الحق ، فان الرؤية في الدنيا ممكنة ، اذ لو لم تكن ممكنة لما سألها موسى عليه السلام ، لكن لم يرد نص بانه صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين راسه ، بل ورد ما يدل على نفي الرؤية ، وهو ما رواه مسلم في صحيحه عن ابي ذر رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل رأيت ربك ؟ فقال : نورٌ ، أنى اراه ؟ » وفي رواية « رأيت نورا » .

وقد روى مسلم ايضا عن ابي موسى الاشعري رضي الله عنه قال : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، فقال : ان الله لا ينام ولا ينبغي له ان ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجاب النور » . وفي رواية « لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » فيكون - والله اعلم - معنى قوله لابي ذر : رأيت نورا : انه رأى الحجاب . ومعنى قوله : نور أنى اراه ؟ النور الذي هو الحجاب يمنع من رؤيته ، فأنى اراه ؟ اي : فكيف اراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني من رؤيته ؟

فهذا صريح في نفي رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه ، والله اعلم .

وقول الطحاوي : « بغير احاطة ولا كيفية » هذا لكمال عظمته وبهائه ، سبحانه وتعالى . قال تعالى (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) ١١٠ / طه .

وقول الطحاوي « فانه ما سلم في دينه الا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ورد علم ما اشتبه عليه الى عالمه » . اي سلم لنصوص الكتاب والسنة ، ولم يعترض عليها بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة ، او بقوله : العقل يشهد بصدق ما دل عليه النقل ، والعقل اصل النقل !! فاذا عارضه قدمنا العقل ! وهذا لا يكون قط . لكن اذا جاء ما يوهم مثل ذلك : فان كان النقل صحيحا فذلك الذي يدعي انه معقول انما هو مجهول ، ولو حقق النظر لظهر ذلك ، وان كان النقل غير صحيح فلا يصلح للمعارضة ، فلا يتصور ان يتعارض عقل صريح ، ونقل صحيح ابدا . ويعارض كلام من يقول ذلك بنظره ، فيقال : اذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل ، لأن الجمع بين المدلولين : جمع بين النقيضين ، وتقديم العقل ممتنع ، لأن العقل دل على صحة السمع ووجوب قبول ما اخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلو ابطالنا النقل لكنا قد ابطالنا دلالة العقل ، ولو ابطالنا دلالة العقل لم يصلح ان يكون معارضا للنقل ،

لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء من الأشياء ، فكان تقديم العقل موجبا
عدم تقديمه ، فلا يجوز تقديمه ، وهذا بَيِّن واضح ، فان العقل هو الذي دل على
صدق السمع وصحته ، وان خبره مطابق لخبره ، فان جاز ان تكون الدلالة
باطلة لبطلان النقل : لزم ان لا يكون النقل دليلا صحيحا ، واذا لم يكن دليلا
صحيحا : لم يجز ان يُتبع بحال ، فضلا عن ان يقدم ، فصار تقديم العقل على
النقل قدحا في العقل .

فالواجب : كمال التسليم للرسول صلى الله عليه وسلم ، والانقياد
لامره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون ان نعارضه بخيال باطل نسميه
معقولا ، او نحمله شبهة اوشكا ، او نقدم عليه آراء الرجال ، فنوحده بالتحكيم
والتسليم والانقياد والاذعان ، كما نوحده المرسل بالعبادة والخضوع والذل
والانابة والتوكل .

فهما توحيدان ، لا نجاة للعبد من عذاب الله الا بهما : توحيد المرسل
تعالى ، وتوحيد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال الامام احمد بن حنبل : حدثنا انس بن عياض ، حدثنا ابو حازم ،
« لقد جلست انا واخي مجلسا ما احب ان لي به حمر النعم . اقبلت انا واخي ،
واذا مشيخة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس عند باب من
ابوابه ، فكرهنا ان نفرق بينهم ، فجلسنا حجرة ، اذ ذكروا آية من القرآن ،
فتماروا فيها ، حتى ارتفعت اصواتهم ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم
مغضبا قد احمر وجهه ، يرميهم بالتراب ويقول :
مهلا يا قوم ، بهذا اهلك الامم من قبلكم ، باختلافهم على انبيائهم ، وضربهم
الكتب بعضها ببعض . ان القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا ، بل يصدق بعضه
بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه الى عالمه » .

قال احمد محمد شاكر : هذا الحديث هو الحديث رقم ٦٧٠٢ في مسند
الامام احمد ، بتحقيقنا ، وهو حديث صحيح ، ومعناه ثابت في المسند ايضا ،
مختصرا برقم ٦٦٦٨ ، ورواه البخاري في كتاب خلق افعال العباد ص ٧٨ ،
وروى مسلم في صحيحه ٢/٣٠٤ نحو معناه .

قال العلامة الاندري الشارح :

ولا شك ان الله قد حرم القول عليه بغير علم .

قال تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالنَّفْسَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ٢٢ / الاعراف .
وقال تعالى : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) ٣٦ / الاسراء .

فعل العبد ان يجعل ما بعث الله به رسله وانزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه ، فيصدق بانه حق وصدق ، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه ، فان وافقه فهو حق ، وان خالفه فهو باطل ، وان لم يعلم : هل خالفه او وافقه : يكون ذلك الكلام مجملا لا يعرف مراد صاحبه ، او قد عرف مراده لكن لم يعرف : هل جاء رسول بتصديقه او بتكذيبه : فانه يمسك عنه ، ولا يتكلم الا بعلم ، والعلم ما قام عليه الدليل ، والنافع منه ما جاء به الرسول ، وقد يكون علم من غير الرسول ، لكن في الامور الدنيوية ، مثل الطب والحساب ، واما الامور الالهية فتؤخذ عن الرسول لا غير .

● قال الطحاوي : (ولا تثبت قدم الاسلام الى على ظهر التسليم والاستسلام) .

وهذا من باب الاستعارة ، اذ القدم الحسي لا تثبت الا على ظهر شيء ، اي لا تثبت اسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين ، وينقد اليها ، ولا يعترض عليها ، ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه .

روى البخاري عن الامام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله انه قال : من الله الرسالة ، ومن الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم .

● قال : (فمن رام علم ما حُظِر عنه علمه ، ولم يقنع بالتسليم فهمه : حجب مرامه عن خالص التوحيد ، وصافي المعرفة ، وصحيح الايمان) .

وهذا تقرير للكلام الاول ، وزيادة تحذير ان يتكلم في اصول الدين - بل وفي غيرها - بغير علم .

قال تعالى :

(وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعْ كُلَّ شَيْطَانٍ مُرِيدٍ) ٢ / الحج .

وقال سبحانه :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) ٥٠ / القصص .
وعن ابي امامة الباهلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا اوتوا الجدل . ثم تلا : ما ضربوه لك الا جدلا » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

● قال : (فيتذبذب بين الكفر والايمان ، والتصديق والتكذيب ، والاقرار والانكار ، مؤسوسا تائها ، شاكاً ، لا مؤمناً مصداقاً ، ولا جاحداً مكذباً) .

يتذبذب : يضطرب ويتردد .

وهذه الحال التي وصفها الشيخ رحمه الله حال كل من عدل عن الكتاب والسنة الى علم الكلام المذموم ، او اراد ان يجمع بينه وبين الكتاب والسنة وعند التعارض يتأول النص ويرده الى الرأي والأراء المختلفة ، فيؤول امره الى الحيرة والضلال والشك ، كما قال ابن رشد ، الحفيد ، - وهو من اعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم - في كتابه « تهافت التهافت » : ومن ذا الذي قال في الالهيات شيئاً يعتد به ؟

وكذلك الأمدى - افضل اهل زمانه - واقف في المسائل الكبار ، حائر .

وكذلك الغزالي رحمه الله : انتهى آخر امره الى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية ، ثم اعرض عن تلك الطرق واقبل على احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فمات وصحيح البخاري على صدره .

وكذلك ابو عبدالله محمد بن عمر الرازي : قال : لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي غليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت اقرب الطرق : طريقة القرآن . إقرأ في الاثبات : (الرحمن على العرش استوى) . (اليه يصعد الكلم الطيب) . وإقرأ في النفي : (ليس كمثله شيء) . (ولا يحيطون به علماً) . ثم قال : ومن جرب مثل تجربتي : عرف مثل معرفتي .

وكذلك الشيخ محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين الا الحيرة والندم ، فقال :

لعمري لقد طفتُ المعاهدَ كلها وسيّرتُ طرفي بين تلك المعالمِ
فلم أرَ إلا واضِعاً كفَّ حائر على ذقنٍ ، او قارعاً سنَّ نادمِ

وقال ابو المعالي الجويني . لقد خضتُ البحرَ الخضم ، وخليت اهل الاسلام وعلومهم ، ودخلت في الذي نهوني عنه ، والآن فان لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني ، وها انا ذا اموت على عقيدة امي وعجائز نيسابور .

والدواء النافع لمثل هذا المرض ما كان من طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله - اذا قام من الليل يفتتح الصلاة - :

« اللهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والارض ، عالم الغيب والشهادة ، انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك ، انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم » . خرَّجه مسلم .

● قال : (ولا يصح الايمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم ، او تأولها بفهم ، اذ كان تأويل الرؤية - وتأويل كل معنى يضاف الى الرؤية - بترك التأويل ، ولزوم التسليم ، وعليه دين المسلمين ، ومن لم يتوقَّ النفي والتشبيه : زلَّ ولم يُصِب التنزيه) .

ويشير الشيخ رحمه الله بقوله هذا الى الرد على المعتزلة ومن يقول بقولهم في نفي الرؤية ، وعلى من يشبه الله بشيء من مخلوقاته ، فان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » ، فادخل « كاف » التشبيه على « ما » المصدرية أو الموصولة بـ « ترون » التي تتأول مع صلتها الى المصدر الذي هو « الرؤية » ، فيكون التشبيه في الرؤية لا في المرئي . وهذا بين واضح في ان المراد اثبات الرؤية وتحقيقها ، ودفع الاحتمالات عنها ، وماذا بعد هذا البيان وهذا الايضاح ؟ فاذا سلط التأويل على مثل هذا النص : كيف يُستدل بنص من النصوص ؟ وهل يحتمل هذا النص ان يكون معناه : انكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ؟

ويُستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) ، ونحو ذلك مما استعمل فيه « رأى » التي هي من افعال القلوب . ولا شك ان « ترى » تارة تكون بصرية ، وتارة تكون قلبية ، وتارة تكون من رؤيا الحلم ، وغير ذلك ، ولكن ما يخلو الكلام من قرينة تخلص اصل معانيه من الباقي ، والا لو اخل المتكلم كلامه من القرينة المخلصة لأحد المعاني لكان مجملاً مُلغزاً ، لا مبيناً ولا موضحاً . واي قرينة فوق قوله صلى الله عليه وسلم : « ترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب » ؟

فان قالوا : الجأنا الى هذا التأويل حكم العقل بأن رؤيته تعالى محال لا يُتصور امكانها !

فالجواب : ان هذه دعوى منكم ، خالفكم فيها اكثر العقلاء ، وليس في العقل ما يحيلها ، بل لو عرض على العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته

لحكم بأن هذا محال .

وقوله : « لمن اعتبرها منهم بوهم » : أي توهم ان الله تعالى يرى على صفة كذا ، فيتوهم تشبيهها ، ثم بعد هذا التوهم - إن اثبت ما توهمه من الوصف - فهو مشبه ، وإن نفي الرؤية من أصلها لأجل ذلك التوهم فهو جاهد معطل ، بل الواجب دفع ذلك الوهم وحده ، ولا يعمم بنفيه الحق والباطل ، فينفيهما زدا على من اثبت الباطل ، بل الواجب رد الباطل وإثبات الحق .

والى هذا المعنى اشار الشيخ رحمه الله بقوله : « ومن لم يتوق النفي والتشبيه : زل ولم يصب التنزيه » ، فإن هؤلاء المعتزلة يزعمون انهم ينزهون الله بهذا النفي ! وهل يكون التنزيه بنفي صفة الكمال ؟ فإن نفي الرؤية ليس بصفة كمال ، اذ المعدوم لا يرى ، وإنما الكمال في اثبات الرؤية ونفي ادراك الرائي له ادراك إحاطة ، كما في العلم ، فإن نفي العلم به ليس بكمال ، وإنما الكمال في اثبات العلم ونفي الاحاطة به علما ، فهو سبحانه لا يُحاط به رؤية ، كما لا يُحاط به علما .

وقوله : « او تأولها بفهم » : أي ادعى انه فهم لها تأويلا يخالف ظاهرها ، وما يفهمه كل عربي من معناها ، فانه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل : انه صرف اللفظ عن ظاهره ، وبهذا تسلط المحرفون على النصوص ، فسموا التحريف : تأويلا ، تزيينا له وزخرفة ليقبل ، وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل ، فقال : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) ١١٢ / الانعام .
والعبرة للمعاني لا للالفاظ ، فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق .

وليس مراد الطحاوي ترك كل ما يسمى بتأويلا ، وإنما مراده : ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة ، فإن التأويل في كتاب الله وسنة رسوله : هو الحقيقة التي يؤول اليها الكلام . فتأويل الخبر : هو عين الخبر به . وتأويل الأمر : نفس الفعل المأمور به . كما قالت عائشة رضي الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي . يتناول القرآن » .

وقال تعالى : (مَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نُسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلٌ مِنْ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) ٥٢ / الاعراف .
ومنه تأويل الرؤيا ، وتأويل العمل ، كقوله تعالى :

(هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ) ١٠٠ / يوسف .

وقوله سبحانه :- (وَيَعْلَمُ مَنْ تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ) ٦ / يوسف .

فمن ينكرو وقوع مثل هذا التأويل ؟

وأما ما كان خبرا ، كالاخبار عن الله واليوم الآخر ، فهذا قد لا يُعلم تأويله ، الذي هو حقيقته ، فإن المخبر ان لم يكن قد تصور المخبر به ، او لم يعرفه قبل ذلك : لم يعرف حقيقته ، التي هي تأويله ، بمجرد الاخبار ، وهذا هو التأويل الذي لا يعلمه الا الله ، لكن لا يلزم من نفي العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنى الذي قصد المخاطب افهام المخاطب اياه ، فما في القرآن آية الا وقد امر الله بتدبرها ، وما انزل آية الا وهو يحب ان يعلم ما عنى بها ، وان كان من تأويله ما لا يعلمه الا الله ، فهذا هو معنى التأويل في الكتاب والسنة وكلام السلف ، وسواء كان هذا التأويل موافقا للظاهر او مخالفا له .

ولكن التأويل في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين : هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجع الى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك ، وهذا هو التأويل الذي تنازع الناس فيه في كثير من الامور الخبرية والطلبية فالتأويل الصحيح منه : هو الذي يوافق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد .

ويقال لأهل التأويل : هذا الباب الذي فتحتموه فتحتم به بابا لانواع المشركين والمبتدعين لا تقدرُونَ على سده ، فانكم اذا سوغتم صرف القرآن عن دلالاته المفهومة بغير دليل شرعي ، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ ؟ فان قلتم : ما دل القاطع العقلي على استحالة تأويلناه ، وإلا أقررناه ! قيل : وبأي عقل نزن القاطع العقلي ؟ فان القرمطي يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع ، ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الاجساد ، ويزعم المعتزلي قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى . ويلزم حينئذ محذوران عظيمان :

احدهما : ان لا نقرب شيء من معاني الكتاب والسنة حتى نبحت قبل ذلك بحوثا طويلة عريضة في امكان ذلك بالعقل . وكل طائفة من المختلفين في الكتاب يدعون ان العقل يدل على ما ذهبوا اليه ، فيؤول الأمر الى الحيرة المحذورة .

الثاني : ان القلوب تتخلى عن الجزم بشيء تعتقده ، مما اخبر به الرسول ، اذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد ، والتأويلات مضطربة ، فيلزم عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والارشاد الى ما انبأ الله به العباد ، وخاصة النبي هي الانبياء ، والقرآن هو النبأ العظيم ، ولهذا نجد اهل التأويل انما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد ، ان وافقت ما ادعوا ان العقل دل عليه : قبلوها ، وان خالفته . اولوها ، وهذا فتح باب الزندقة ، نسأل الله

العافية .

واما ما قاله الطحاوي من ان « من لم يتوق النفي والتشبيه : زل ولم يصب التنزيه » فذلك لان النفي والتشبيه من امراض القلوب ، فان امراض القلوب نوعان : مرض شبهة ، ومرض شهوة ، وكلاهما مذكور في القرآن .

قال تعالى : (فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ)

٣٢/ الاحزاب .

فهذا مرض الشهوة .

وقال تعالى : (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ)

١٢٥/ التوبة .

وهذا مرض الشبهة ، وهو اردأ من مرض الشهوة ، ان مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة ، ومرض الشبهة لا شفاء له ان لم يتداركه الله برحمته .

والشبهة التي في مسألة الصفات : نفيا وتشبيها . وشبه النفي اردأ من شبه التشبيه ، فان شبه النفي رد وتكذيب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشبه التشبيه غلو ومجاوزة للحد .

● قال الطحاوي : (فان ربنا جلّ وعلا موصوف بصفات الوجدانية ، منعوت بنعوت الفردانية ، ليس في معناه احد من البرية) .

ويشير الشيخ بقوله هذا الى تنزيه الرب تعالى بالذي هو وصفه ، كما وصف نفسه نفيا وإثباتا . وكلام الشيخ مأخوذ من معنى سورة الاخلاص ، فقوله : « موصوف بصفات الوجدانية » مأخوذ من قوله تعالى : (قل هو الله احد) . وقوله : « منعوت بنعوت الفردانية » من قوله تعالى : (الله الصمد ، لم يلد ولم يولد) . وقوله : « ليس في معناه احد من البرية » من قوله تعالى : (ولم يكن له كفوا احد) . وهو ايضا مؤكد لما تقدم من اثبات الصفات ونفي التشبيه .

والوصف والنعوت مترادفان ، وقيل : متقاربان ، فالوصف للذات ، والنعوت للفعل . وكذلك الوجدانية والفردانية ، وقيل في الفرق بينهما : ان الوجدانية للذات ، والفردانية للصفات ، فهو تعالى موحد في ذاته ، منفرد بصفاته .

● قال : (وتعالى عن الحدود والغايات ، والأركان والأعضاء والأدوات ، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات) .

والناس في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال . فطائفة تنفيها ، وطائفة تثبتها ، وطائفة تفصل ، وهم المتبعون للسلف ، فلا يطلقون نفيها ولا اثباتها إلا إذا تبين ، ما أثبت بها فهو ثابت ، وما نفي بها فهو منفي ، لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحهم فيها أجمالاً وإبهاماً ، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية ، فليس كلهم يستعملها في نفس معناها اللغوي ، ولهذا كان النفاة ينفون بها حقاً وباطلاً ، ويذكرون عن مثبتها ما لا يقول به ، وبعض المثبتين لها يدخلها معنى باطلاً ، مخالفاً لقول السلف ولما دل عليه الكتاب والميزان ، ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنة بنفيها ولا اثباتها ، وليس لنا أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله ، نفيًا ولا إثباتًا ، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون .

فالواجب أن تثبت في باب الصفات ما أثبتته الله ورسوله ، وأن تنفي ما نفاه الله ورسوله ، والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات والنفي ، وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها . فإن كان معنى صحيحاً : قيل ، لكن ينبغي التعبير عنه بالألفاظ النصوص ، دون الألفاظ المجملة ، إلا عند الحاجة ، مع قرائن تبين المراد ، والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه أن لم يخاطب بها ، ونحو ذلك .

والشيخ رحمه الله أراد الرد بهذا الكلام على المشبهة القائلين : أن الله جسم ، وأنه جثة وأعضاء ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . فالمعنى الذي أراده الشيخ رحمه الله من النفي الذي ذكره هنا : حق ، لكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقاً وباطلاً ، فيحتاج إلى بيان ذلك ، وهو . أن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون الله حذاً ، وأنهم لا يحدون شيئاً من صفاته .

قال أبو داود الطيالسي : كان سفيان الثوري ، وشعبة ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وشريك ، وأبو عوانة ، لا يحدون ولا يشبهون ولا يمثلون يروون الحديث ولا يقولون : كيف ؟ وإذا سئلوا قالوا بالآثر .

ومن المعلوم أن الحد يقال على ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره ، والله تعالى غير حال في خلقه ، ولا قائم بهم ، بل هو القيوم القائم بنفسه ، المقيم لما سواه . فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلاً ، فإنه ليس وراء نفيه وجوب وجود الرب ونفي حقيقته . وأما الحد بمعنى العلم والقول ، وهو أن يحده العباد ، فهذا منتف بلا منازعة بين أهل السنة

قال ابو القاسم القشيري في رساله ، سمعت ابا عبد الرحمن السلمي . سمعت ابا منصور بن عبد الله . سمعت ابا الحسن العنبري . سمعت بهل بن عبد الله التستري يقول . وقد سئل عن ذات الله . فقال ، ذات الله موصوفة بالعلم . غير مدركة بالاحاطة . ولا مرئية بالابصار في دار الدنيا . وهي موجودة بحقائق الايمان . من غير حد ولا احاطة ولا حلول . وتراه العيون في العقبى . ظاهرا في ملكه وقدرته . وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته . ودلهم بآياته . فالقلوب تعرفه . والعيون تدركه . ينظر اليه المؤمن بالابصار . من غير احاطة ولا ادراك . نهاية .

واما لفظ « الاركان » و « الاعضاء » و « الادوات » فيستدل بها بالنفاة على نفي بعض الصفات الثابتة بالادلة القطعية ، كاليد والوجه .

قال ابو حنيفة رضي الله عنه في الفقه الاكبر : له يد ووجه ونفس ، كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس ، فهو له صفة بلا كيف ، ولا يقال ان يده قدرته ونعمته ، لأن فيه ابطال الصفة . انتهى .

وهذا الذي قاله الامام رضي الله عنه ثابت بالادلة القاطعة .

قال تعالى : (مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيْـدَيَّ) ٧٥/ص .

وقال سبحانه : (وَالْاَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) ٦٧/الزمر .

وقال عز وجل : (كُلُّ شَيْءٍ مَّا لَكَ اِلَّا وَجْهٌ) ٨٨/القصص .

وقال تعالى : (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا اَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) ١١٦/المائدة .

وقال صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة لما يأتي الناس ادم فيقولون له : « خلقتك الله بيده واسجد لك ملائكته » .

ولا يصح تأويل من قال : ان المراد باليد القدرة ، فان قوله : (لما خلقت بيدي) لا يصح ان يكون معناه : بقدرتي ، مع تشنية اليد .

ولا دليل لهم في قوله تعالى : (اَلَمْ يَرَوْا اَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ اَيْدِيْنَا اَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ) ، لأنه تعالى جمع الايدي لما اضافها الى ضمير الجمع ، ليتناسب الجمعان .

ولكن لا يقال لهذه الصفات انها اعضاء ، او جوارح ، او ادوات ، او اركان ، لأن الركن جزء الماهية ، والله تعالى هو الأحد الصمد ، لا يتجزأ ، سبحانه وتعالى ، والاعضاء فيها معنى التفريق ، تعالى الله عن ذلك ، والجوارح

فيها معنى الاكتساب والانتفاع ، وكذلك الادوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرة ، وكل هذه المعاني منتفية عن الله تعالى ، ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالى ، فالالفاظ الشرعية صحيحة المعاني ، سالمة من الاحتمالات الفاسدة ، فكذلك يجب ان لا يعدل عن الالفاظ الشرعية نفيا ولا اثباتا ، لنألا يثبت معنى فاسد ، او يُنفى معنى صحيح ، وكل هذه الالفاظ المجملة عرضة للمحق والمبطل .

واما لفظ « الجهة » فقد يراد به ما هو موجود ، وقد يراد به ما هو معدوم ، ومن المعلوم انه لا موجود الا الخالق والمخلوق ، فاذا اريد بالجهة امر موجود غير الله تعالى كان مخلوقا ، والله تعالى لا يحصره شيء ، ولا يحيط به شيء من المخلوقات ، تعالى الله عن ذلك . وان اريد بالجهة امر عديمي ، وهو ما فوق العالم ، فليس هناك الا الله وحده ، فاذا قيل « انه في جهة » بهذا الاعتبار فهو صحيح ، ومعناه : انه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات ، فهو فوق الجميع ، عال عليه .

ونفاة لفظ « الجهة » الذين يريدون بذلك نفى العلو ، يذكرون من ادلتهم : ان الجهات كلها مخلوقة ، وانه كان قبل الجهات ، وان من قال انه في جهة يلزمه القول بقدوم شيء من العالم ، وانه كان مستغنيا عن الجهة ثم صار فيها ، وهذه الالفاظ ونحوها انما تدل على انه ليس في شيء من المخلوقات ، سواء سمي جهة اولم يسم ، وهذا حق . ولكن الجهة ليست امرا وجوديا ، بل امر اعتباري ، ولا شك ان الجهات لا نهاية لها ، وما لا يوجد فيما لا نهاية له فليس بموجود .

وقول الشيخ رحمه الله « لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات » هو حق ، باعتبار انه لا يحيط به شيء من مخلوقاته ، بل هو محيط بكل شيء وفوقه . وهذا المعنى هو الذي اراده الشيخ رحمه الله ، لما يأتي في كلامه : « انه تعالى محيط بكل شيء وفوقه » . فاذا جمع بين كلامه ، وهو قوله : « لا تحويه الجهات الست » وقوله . « محيط بكل شيء وفوقه » : علم ان مراده ان الله تعالى لا يحويه شيء ، ولا يحيط به شيء ، كما يكون لغيره من المخلوقات ، وانه تعالى هو المحيط بكل شيء ، العالي على كل شيء .

والجهال هنا اوهام ، وبصورة خاصة ازاء حديث نزول الرب تعالى الى السماء الدنيا كل ليلة ، فيظنون انه اذا نزل - كما اخبر الصادق صلى الله عليه وسلم - : يكون العرش فوقه ، ويكون محصورا بين طبقتين من العالم . وهذا ظن مخالف لاجماع السلف ، مخالف للكتاب والسنة .

قال شيخ الاسلام ابو عثمان اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني : سمعت
الاستاذ ابا منصور بن حماد - بعد روايته بحديث النزول - يقول : سئل ابو
حنيفة عنه فقال : ينزل بلا كيف .

وانما توقف من توقف في نفي ذلك لضعف علمه بمعاني الكتاب والسنة
واقوال السلف ، ولذلك ينكر بعضهم ان يكون فوق العرش ، بل يقول : لا مباين
ولا مجانب ، لا داخل العالم ولا خارجه ، فيصفونه بصفة الغدوم والممتنع ، ولا
يصفونه بما وصف به نفسه من العلو والاستواء على العرش .

● قال الطحاوي : (والمعراج حق ، وقد أُسري بالنبى صلى الله
عليه وسلم وعُرج بشخصه في اليقظة الى السماء ، ثم الى حيث
شاء الله من العلا ، واكرمه الله بما شاء ، واوحى اليه ما اوحى ،
ما كذب الفؤاد ما رأى ، فصلى الله عليه في الآخرة والاولى) .

قال الشارح قاضي القضاة ابن ابي العز :

المعراج : مفعال ، من العروج ، اي الآلة التي يُعرج فيها ، اي يُصعد ،
وهو بمنزلة السلم ، لكن لا يعلم كيف هو ، وحكمه كحكم غيره من المغيبات ،
ونؤمن به ولا نشغل بكيفيته .

واختلف الناس في الاسراء :

فقيل : كان الاسراء بروحه ولم يفقد جسده . نقله ابن اسحاق عن عائشة
رضي الله عنها ، ونقل عن الحسن البصري نحوه ، لكن ينبغي ان يعرف الفرق
بين ان يقال : كان الاسراء مناما ، وبين ان يقال : كان بروحه دون جسده ،
وبينهما فرق عظيم ، فعائشة ومعاوية رضي الله عنهما لم يقلوا : كان مناما ،
وانما قالوا : اسري بروحه ولم يفقد جسده ، وفرق ما بين الأمرين : ان ما يراه
النائم قد يكون امثالا مضروية للمعلوم في الصورة المحسوسة ، فيرى كأنه قد
عرج الى السماء ، وذهب به الى مكة ، وروحه لم تصعد ولم تذهب ، وانما ملك
الرؤيا ضرب له المثال ، فما ارادت عائشة ولا اراد معاوية ان الاسراء كان
مناما ، وانما اراد ان الروح ذاتها هي بها ، ففارقت الجسد ثم عادت اليه ،
ويجعلان هذا من خصائصه ، فان غيره لا تنال ذات روحه الصعود الكامل الى
السماء الا بعد الموت .

وقيل : كان الاسراء مرتين ، مرة يقظة ، ومرة مناما . واصحاب هذا
القول كأنهم ارادوا الجمع بين حديث شريك وقوله : « ثم استيقظت » وبين
سائر الروايات . وكذلك منهم من قال : بل كان مرتين ، مرة قبل الوحي ، ومرة

بعده . ومنهم من قال : بل ثلاث مرات ، مرة قبل الوحي ، ومرتين بعده . وكلما اشتبه عليهم لفظ : زادوا مرة ، للتوفيق ! وهذا يفعله ضعفاء اهل الحديث ، والا فالذي عليه ائمة النقل : ان الاسراء كان مرة واحدة بمكة ، بعد البعثة ، قبل الهجرة بسنة ، وقيل : بسنة وشهرين . ذكره ابن عبد البر .

قال شمس الدين ابن قيم الجوزية : يا عجباً لهؤلاء الذين زعموا انه كان مراراً ! كيف ساغ لهم ان يظنوا انه في كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين مرة ، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمسا ، فيقول : « امضيت فريضتي ، وخففت عن عبادي » ، ثم يعيدها في المرة الثانية الى خمسين ، ثم يحطها الى خمس ؟ وقد غلط الحفاظ شريكاً في الفاظ من حديث الاسراء ، ومسلم اورد المسند منه ثم قال « فقدّم وأخر ، وزاد ونقص » ، وأجاد رحمه الله . انتهى كلام ابن القيم رحمه الله .

وكان من حديث الاسراء : انه صلى الله عليه وسلم اسري بجسده في اليقظة ، على الصحيح ، من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ، راكباً على البراق .

قال البخاري في الجزء الخامس من صحيحه : حدثنا هُدْبَةُ بن خالد ، حدثنا هَمَّام بن يحيى ، حدثنا قَتَادَةَ ، عن انس بن مالك ، عن مالك بن صَعْصَعَةَ رضي الله عنهما ، ان نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أُسري به : « بينما انا في الحَطِيم - وربما قال : في الحِجْر - مُضْطَجِعاً ، اذ اتاني اتُّ فَقَدْ قَالَ : وسمعته يقول : فشق ما بين هذه الى هذه . فقلت للجارود وهو الى جنبي : ما يعني به ؟ قال : من ثُغْرَةِ نَحْرِهِ الى شِعْرَتِهِ ، وسمعته يقول : من قَصْبِهِ الى شِعْرَتِهِ ، فاستخرج قلبي ، ثم أتيت بطستٍ من ذهبٍ مملوءة ايماناً ، فغسل قلبي ، ثم حُشِيَ ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار ، ابيض . فقال له الجارود : هو البراق يا ابا حمزة ؟ قال انس : نعم ، يضع خطوه عند اقصى طرفه ، فحُمِلت عليه ، فانطلق بي جبريلُ ، حتى اتى السماء الدنيا فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد أُرسِل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به ، فنعم المجيء جاء .

ففتح ، فلما خلصت ، فاذا فيها آدم ، فقال : هذا ابوك آدم فسلم عليه .
فسلمت عليه ، فرد السلام ، ثم قال : مرحبا بالابن الصالح والنبي
الصالح .

ثم صعد حتى اتى السماء الثانية ، فاستفتح . قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد ارسل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به ، فنعم المجيء جاء .

ففتح ، فلما خلصت اذا يحيى وعيسى ، وهما ابنا الخالة .

قال : هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما ، فسلمت ، فردا ، ثم قالا :
مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح .

ثم صعد بي الى السماء الثالثة فاستفتح . قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد ارسل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به ، فنعم المجيء جاء .

ففتح ، فلما خلصت اذا يوسف . قال : هذا يوسف فسلم عليه .

فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح .

ثم صعد بي ، حتى اتى السماء الرابعة فاستفتح . قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : او قد ارسل اليه ؟

قال : نعم

قيل : مرحبا به ، فنعم المجيء جاء . ففتح ، فلما خلصت الى ادريس ،
قال : هذا ادريس فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحبا بالاخ
الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بي ، حتى اتى السماء الخامسة ، فاستفتح .

قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

قيل : وقد ارسل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به ، فنعم المجيء جاء .

فلما خلصت فاذا هارون . قال : هذا هارون فسلم عليه ، فسلمت
عليه ، فرد ثم قال : مرحبا بالاخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بي حتى اتى السماء السادسة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : من معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد ارسل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به ، فنعم المجيء جاء .

فلما خلصت فاذا موسى . قال : هذا موسى فسلم عليه ، فسلمت

عليه ، فرد ، ثم قال : مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح .

فلما تجاوزت بكى .

قيل له : ما يبكيك ؟

قال : ابكي لان غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من امته اكثر ممن يدخلها من امتي .

ثم صعد الى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد بعث اليه ؟

قال : نعم .

قال : مرحبا به ، فنعم المجيء جاء .

فلما خلصت فاذا ابراهيم ، قال : هذا ابوك فسلم عليه ، قال : فسلمت عليه ، فرد السلام ، قال : مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح .

ثم رفعت لي سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى ، فاذا نَبَقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرٍ ، واذا ورقها مِثْلُ اَذَانِ الْفِيلَةِ . قال : هذه سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى . واذا اربعة انهار ، نهران باطنان ونهران ظاهران . فقلت : ما هذا يا جبريل ؟

قال : اما الباطنان فنهران في الجنة ، واما الظاهران فالنيل والفرات ،

ثم رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ ، ثم اتيت باناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل ، فاخذت اللبن ، فقال : هي الفطرة ، انت عليها وامتك .

ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم ، فرجعت ، فمررت على موسى ، فقال : بما امرت ؟

قال : امرت بخمسين صلاة كل يوم .

قال : ان امتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، واني والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني اسرائيل اشد المعالجة ، فارجع الى ربك فاساله بالخفيف لامتك .

فرجعت ، فوضع عني عشرا ، فرجعت الى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشرا ، فرجعت الى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشرا ، فرجعت الى موسى فقال مثله ، فرجعت فامرت بعشر صلوات كل يوم ، فرجعت فقال مثله ، فرجعت فامرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت الى موسى فقال : بما امرت ؟

قلت : امرت بخمس صلوات كل يوم .

قال : ان امتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، واني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل اشد المعالجة ، فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك .

قال : سألت ربي حتى استحييت ، ولكن ارضى وأُسَلِّم .

قال : فلما جاوزت نادى مناد : امضيت فريضتي ، وخففت عن عبادي .

حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس ، قال : هي رؤيا عين اريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسري به الى بيت المقدس . .

وقد اختلف الصحابة في رؤيته صلى الله عليه ربه عز وجل بعيني رأسه ، والصحيح انه رآه بقلبه ، ولم يره بعيني رأسه

وقوله . (ما كذب الفؤاد ما رأى ، ولقد رآه نزلة اخرى) صح عن النبي صلى الله عليه وسلم ان هذا المرئي جبرائيل ، رآه مرتين على صورته التي خلق عليها

واما قوله تعالى في سورة النجم (ثم دنى فتدلى) فهو غير الدنو والتدلي المذكورين في قصة الاسراء ، فان الذي في سورة النجم هو دنو جبرائيل وتدليه ، كما قالت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما ، فانه قال ٨.٧.٦.٥ (عَلَيْهِ شَدِيدُ الْقُوَى ۖ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۖ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۚ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) النجم .

فالضمائر كلها راجعة الى هذا المعلم شديد القوى ، واما الدنو والتدلي الذي في حديث الاسراء فذلك صريح في انه دنو الرب تعالى وتدليه واما الذي في سورة النجم انه رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى فهذا هو جبرائيل ، رآه مرتين ، مرة في الارض ، ومرة عند سدرة المنتهى

ومما يدل على ان الاسراء بجسده في اليقظة قوله تعالى

(سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا)

١ / الاسراء

والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح ، كما ان الانسان اسم لمجموع الجسد والروح هذا هو المعروف عند الاطلاق . وهو الصحيح ، فيكون الاسراء بهذا المجموع ، ولا يمتنع ذلك عقلا ، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة ، وذلك يؤدي الى انكار النبوة ، فهو كفر

فان قيل فما الحكمة في الاسراء الى بيت المقدس اولا ؟

فالجواب - والله اعلم - انه كان ذلك اظهارا لصدق دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم المعراج . حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس ، فنعتة لهم ، واخبرهم عن غيرهم التي مر عليها في طريقه ، ولو كان عروجه الى السماء من مكة لما حصل ذلك ، اذ لا يمكن اطلاعهم على ما في السماء لو اخبرهم عنه ، وقد اطلعوا على بيت المقدس ، فاخبرهم بنعته

وفي حديث المعراج دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى من وجوه ، لمن تدبره . وبالله التوفيق

● قال : (والحوض - الذي اكرمه الله تعالى به غياثا لأمته - : حق) .

وذلك ان الاحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر ، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيا . ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير ، تغمده الله برحمته ، في آخر تاريخه الكبير ، المسمى بـ « البداية والنهاية » .

فمنها ما رواه البخاري رحمه الله تعالى ، عن انس بن مالك رضي الله عنه ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان قدر حوضي كما بين ايلة الى صنعاء من اليمن ، وان فيه من الاباريق كعدد نجوم السماء » .

والذي يتلخص من الاحاديث الواردة في صفة الحوض ، انه حوض عظيم ومورد كريم . يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر . الذي هو اشد بياضا من اللبن وابلج من الثلج . واحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك وهو في غاية الاتساع عرضه وطوله سواء . وكل زاوية من زواياه مسيرة شهر . فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء .

وقد ورد في بعض الاحاديث ان لكل نبي حوضا وان حوض نبينا صلى الله عليه وسلم أعظمها وأحلاها وأكثرها واردا حملنا الله منهم بفضلهم وكرمهم .

● قال : (والشفاعة التي ادخرها لهم حق ، كما روي في الاخبار) .

والشفاعة انواع منها ما هو متفق عليه بين الامة ، ومنها ما خالف فيه المعتزلة وبحوهم من اهل البدع

النوع الاول الشفاعة الاولى . وهي العظمى . الخاصة بنبينا صلى الله

عليه وسلم من بين سائر اخواته من الانبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم اجمعين ، وفي الصحيحين وغيرهما ، عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، جملة احاديث تثبت بها .

منها : قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح :

« اتى تحت العرش ، فاقع ساجدا لربي عز وجل ، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه علي احد قبلي ، فيقال : يا محمد : ارفع رأسك ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فاقول : يا رب : امتي امتي ، يارب : امتي امتي ، يارب : امتي امتي . فيقول : ادخل من امتك من لا حساب عليه من الباب الايمن من ابواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سواه من الابواب . ثم قال : والذي نفس محمد بيده ، لما بين مصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر ، او كما بين مكة وبصري » .

النوع الثاني والثالث من الشفاعة : شفاعته صلى الله عليه وسلم في اقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة ، وفي اقوام آخرين قد امر بهم الى النار ، لا يدخلونها .

النوع الرابع : شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب اعمالهم ، وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة ، وخالفوا فيما عداها من المقامات ، مع تواتر الاحاديث فيها .

النوع الخامس : الشفاعة في اقوام ان يدخلوا الجنة بغير حساب ، ويحسن ان يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن ، حين دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يجعله من السبعين الفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، والحديث مخرج في الصحيحين .

النوع السادس : الشفاعة في تخفيف العذاب عن يستحقه ، كشفاعته في عمه ابي طالب ان يخفف عنه عذابه . ثم قال انقرطبي في التذكرة بعد ذكر هذا النوع : فان قيل : فقد قال الله تعالى . (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) ؟ قيل له : لا تنفعه في الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة .

النوع السابع : شفاعته ان يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة ، كما تقدم . وفي صحيح مسلم عن انس رضي الله عنه . ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انا اول شفيع في الجنة » .

النوع الثامن : شفاعته في اهل الكبائر من امته ، فمن دخل النار ، فيخرجون منها . وقد تواترت بهذا النوع الاحاديث ، وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة ، فخالفوا في ذلك ، جهلا منهم بصحة الاحاديث ، وعنادا ممن علم ذلك واستمر على بدعته .

وهذه الشفاعة تشاركها فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون ايضا . وهي

تتكرر منه صلى الله عليه وسلم اربع مرات .

ومن احاديث هذا النوع حديث انس بن مالك قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شفاعتي لأهل الكبائر من امتي » . رواه الامام احمد بن حنبل .

ثم ان الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال : فالمشركون ، والنصارى ، والمبتدعون من الغلاة في تقليد المشايخ : يجعلون شفاعته من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا . والمعتزلة والخوارج انكروا شفاعته نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره في أهل الكبائر . واما أهل السنة والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر ، وشفاعة غيره ، لكن لا يشفع احد حتى يأذن الله له ويحد له حدا ، كما في الحديث الصحيح - حديث الشفاعة - انهم يأتون آدم ، ثم نوحا ، ثم ابراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، فيقول لهم عيسى عليه السلام : اذهبوا الى محمد ، فانه عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، « فيأتوني ، فاذهب ، فاذا رايت ربي خررت له ساجدا ، فاحمد ربي بمحامد يفتحها علي ، لا احسنها الآن ، فيقول : اي محمد : ارفع رأسك ، وقل يسمع ، واشفع تشفع . فاقول : ربي : امتي ، فيحد لي حدا ، فادخلهم الجنة ، ثم انطلق فاسجد ، فيحد لي حدا » . ذكر هذا ثلاث مرات .

واما الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم وغيره في الدنيا الى الله تعالى في الدعاء ، ففيه تفصيل ، فان الداعي تارة يقول : بحق فلان ، يقسم على الله بأحد من مخلوقاته ، فهذا محذور من وجهين : احدهما : انه اقسم بغير الله .

الثاني : اعتقاده ان لأحد على الله حقا ، ولا يجوز الحلف بغير الله ، وليس لأحد على الله حق الا ما احقه على نفسه ، كقوله تعالى :

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) ٤٧ / الروم .

وكذلك ما ثبت في الصحيحين من قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه ، وهو رديفه : « يا معاذ : اتدري ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله اعلم . قال : حقه عليهم ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . اتدري ما حق العباد على الله اذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله اعلم . قال : حقهم عليه ان لا يعذبهم » .

فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعد الصديق ، لا ان العبد نفسه يستحق على الله شيئا كما يكون للمخلوق على المخلوق ، فان الله هو المنعم على العباد بكل خير ، وحقهم الواجب بوعدده هو ان لا يعذبهم ، وترك تعذيبهم معنى لا يصلح ان يُقسم به ، ولا ان يسأل بسببه ويتوسل به ، لأن السبب هو ما نصبه الله سببا .

وكذلك الحديث الذي في المسند من حديث ابي سعيد الخدري عن النبي

صلى الله عليه وسلم في قول الماشي الى الصلاة :
« اسألك بحق مشاي ، وبحق السائلين عليك » ، فهذا حق السائلين ، هو
اوجبه على نفسه ، فهو الذي احق للسائلين ان يجيبهم ، وللعابدين ان يثيبهم ،
ولقد احسن القائل :

ما للعباد عليه حق واجب
ان عذبوا فبعدله ، او نعموا
كلا ، ولا سعي لديه ضائع
فبفضله ، وهو الكريم الواسع

فان قيل : فاي فرق بين قول الداعي : « بحق السائلين عليك » وبين
قوله : « بحق نبيك » او نحو ذلك ؟

فالجواب : ان معنى قوله : « بحق السائلين عليك » : انك وعدت
السائلين بالاجابة ، وانا من جملة السائلين ، فاجب دعائي .. بخلاف قوله :
« بحق فلان » - وان كان له حق على الله بوعده الصادق - فلا مناسبة بين ذلك
وبين اجابة دعاء هذا السائل ، فكأنه يقول : لكون فلان من عبادك الصالحين
اجب دعائي ! واي مناسبة في هذا واي ملازمة ؟ وانما هذا من الاعتداء في
الدعاء ، وقد قال تعالى :

(اذْءَارِبْكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً اِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَدِّينَ) ٥٥ / الاعراف .

وهذا ونحوه من الادعية المبتدعة ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه
وسلم ، ولا عن الصحابة ، ولا عن التابعين ، ولا عن احد من الائمة ، وانما
يؤجه مثل هذا في الحروز والهيكل التي يكتب بها الجهال والطرقية ، والدعاء
من افضل العبادات ، والعبادات مبناها على السنة والاتباع ، لا عن الهوى
والابتداع .

وان كان مراده : الاقسام على الله بحق فلان ، فذلك محذور ايضا ، لأن
الاقسام بالمخلوق على المخلوق لا يجوز ، فكيف على الخالق ؟ وقد قال صلى الله
عليه وسلم : « من حلف بغير الله فقد اشرك » ولهذا قال ابو حنيفة وصاحبا
رضي الله عنهم : يكره ان يقول الداعي : اسألك بحق فلان : او بحق انبيائك
ورسلك ، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام ، ونحو ذلك ، حتى كره ابو
حنيفة ومحمد بن الحسن الشيباني ان يقول الرجل اللهم اني اسألك بمعقد العز
من عرشك ، ولم يكرهه ابو يوسف لما بلغه الاثر فيه .

وتارة يقول : بجاه فلان عندك . او يقول : نتوسل اليك بانبيائك ورسلك
واوليائك ، ومراهه : لأن فلانا عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة فاجب دعانا .
وهذا ايضا محذور ، فانه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلون في

حياة النبي صلى الله عليه وسلم لفعلوه بعد موته ، وانما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه ، يطلبون منه ان يدعو لهم ، وهم يؤمنون على دعائه ، كما في الاستسقاء وغيره ، فلما مات : قال عمر رضي الله عنه — لما خرجوا يستسقون — « اللهم انا كنا اذا اجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقيننا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا » معناه : بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله ، ليس المراد انا نقسم عليك به ، او نسألك بجاهه عندك ، اذ لو كان ذلك مرادا لكان جاء النبي صلى الله عليه وسلم اعظم واعظم من جاء العباس .

وتارة يقول : باتباعي لرسولك ومحبتي له وايماني به وسائر انبيائك ورسلك وتصديقي لهم ، ونحو ذلك ، فهذا من احسن ما يكون من الدعاء والتوسل والاستشفاع .

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به : فيه اجمال ، غلط بسببه من لم يفهم معناه فان اريد به التسبب به لكونه داعيا وشافعا — وهذا في حياته يكون — او لكون الداعي محبا له مطيعا لامره : فيكون التوسل اما بدعاء الوسيلة وشفاعته ، واما بمحبة السائل واتباعه ، او يراد به الاقسام به والتوسل بذاته ، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه .

وكذلك السؤال بالشيء : قد يراد به التسبب به ، لكونه سببا في حصول المطلوب ، وقد يراد به الاقسام به .

ومن الاول : حديث الثلاثة الذين اوا الى الغار ، وهو حديث مشهور في الصحيحين وغيرهما ، فان الصخرة انطبقت عليهم ، فتوسلوا الى الله بذكر اعمالهم الصالحة الخالصة ، وكل واحد منهم يقول : فان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفجرت الصخرة فخرجوا يمشون . فهؤلاء دعوا الله بصالح الاعمال ، لأن الاعمال الصالحة هي اعظم ما يتوسل به العبد الى الله ، ويتوجه اليه ويسأله به ، لأنه وعد ان يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله .

فالحاصل : ان الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر ، فلا يشفع عنده أحد الا باذنه ، فالامر كله لله ، كما قال تعالى :

(قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) ١٥٤ / آل عمران .

وقال سبحانه : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) ١٢٨ / آل عمران .
فاذا كان لا يشفع عنده أحد الا باذنه لمن يشاء ، ولكن يكرم الشفيع بقبول شفاعته ، كما قال صلى الله عليه وسلم « اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء » وفي الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم

قال : « يا بني عبد مناف : لا املك لكم من الله شيئاً . يا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا املك لك من الله شيئاً . يا عباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا املك لك من الله شيئاً » .

فاذا كان سيد الخلق وافضل الشفعاء يقول لأخص الناس به : لا املك لك من الله من شيء ، فما الظن بغيره ؟

واذا دعاه الداعي ، وشفع عنده الشفيع ، فسمع الدعاء وقبل الشفاعة : لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق ، فانه سبحانه وتعالى هو الذي جعل هذا يدعو ويشفع ، وهو الخالق لافعال العباد ، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها ، وهو الذي وفقه للعمل ثم اثابه ، وهو الذي وفقه للدعاء ثم اجابه ، وهذا مستقيم على اصول اهل السنة المؤمنين بالقدر ، وان الله خالق كل شيء .

● قال الطحاوي : (والميثاق الذي اخذه الله تعالى من آدم وذريته : حق)

فقد قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) ١٧٢ / الاعراف .
يخبر سبحانه انه استخرج ذرية بني آدم من اصلابهم شاهدين على انفسهم ان الله ربهم ومليكم وانه لا اله الا هو .

وقد وردت احاديث في اخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتمييزهم الى اصحاب اليمين والى اصحاب الشمال ، وفي بعضها الاشهاد عليهم بان الله ربهم .

● قال : (وقد علم الله تعالى في الازل عدد من يدخل الجنة ، وعدد من يدخل النار ، جملة واحدة ، فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه ، وكذلك افعالهم فيما علم منهم ان يفعلوه) .

قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ١١٥ / التوبة .
وقال سبحانه : (وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) ٢٦ / الفتح .
فالله تعالى موصوف بانه بكل شيء عليم ، ازلا وابدا ، لم يتقدم علمه بالاشياء جهالة ، وما كان ربك نسيا .

وعن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال : كنا في جنازة في بقيع

الغرق ، فاتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففقد وقعدنا حوله ،
ومعه مخرقة ، فنكس رأسه ينكت بمنخصرته ، ثم قال : ما من نفس
منفوسة الا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، والا قد كتبت شقية او
سعيدة . قال : فقال رجل : يا رسول الله ، افلا نمكث على كتابنا وندع
العمل ؟ فقال : من كان من اهل السعادة فسيصير الى عمل اهل السعادة ،
ومن كان من اهل الشقاوة فسيصير الى عمل اهل الشقاوة . ثم قال : اعملوا
فكل ميسر لما خلق له . اما اهل السعادة فسييسرون لعمل اهل السعادة ،
واما اهل الشقاوة فييسرون لعمل اهل الشقاوة ، ثم قرا :

« فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . واما من بخل
واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى .
خرجاه في الصحيحين .

● قال : (وكل ميسر لما خلق له ، والاعمال بالخواتيم : السعيد
من سعد بقضاء الله ، والشقي من شقي بقضاء الله) .

ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال . حدثنا رسول
الله صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصدوق -

« ان احدكم يجمع خلقه في بطن امه اربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل
ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح ،
ويؤمر باربع كلمات : يكتب رزقه واجله وعمله وشقيا ام سعيدا . فوالذي
لا اله غيري : ان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها
الا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها . وان
احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع ، فيسبق
عليه الكتاب ، فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها » .

والاحاديث في هذا الباب كثيرة ، وكذلك الآثار عن السلف .
قال ابو عمر بن عبد البر في التمهيد : قد اكثر الناس من تخريج الآثار في
هذا الباب ، واكثر المتكلمون من الكلام فيه ، واهل السنة مجتمعون على
الايمان بهذه الآثار واعتقادها وترك المجادلة فيها ، وبالله العصمة والتوفيق .

● قال : (وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، لم يطلع على ذلك
ملك مقرب ، ولا نبي مرسل . والتعمق والنظر في ذلك : ذريعة
الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر
من ذلك ، نظرا وفكرا ووسوسة ، فان الله تعالى طوى علم القدر

عن اَنَامِهِ ، وَنَهَاہُمْ عَنْ مَرَامِهِ ، کَمَا قَالَ تَعَالٰی فِی کِتَابِهِ : لَا یُسْأَلُ
عَمَّا یَفْعَلُ وَهَمْ یُسْأَلُونَ ، فَمَنْ سَأَلَ : لِمَ فَعَلَ ؟ فَقَدْ رَدَّ حُکْمَ
الْکِتَابِ ، وَمَنْ رَدَّ حُکْمَ الْکِتَابِ : کَانَ مِنَ الْکَافِرِیْنَ .

والذي عليه اهل السنة والجماعة : ان كل شيء بقضاء الله وقدره ،
وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة ، وزعموا ان الله شاء الايمان من الكافر ، ولكن
الكافر شاء الكفر ، ف وقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى ! وهذا من اقبح
الاعتقاد ، وهو قول لا دليل عليه ، بل هو مخالف للدليل ، فقد قال الله تعالى :
(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)
١٣ / السجدة .

وقال تعالى :
(لَنْ يُرِدَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، بَشَرٌ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَبًّا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعُدُ فِي السَّمَاءِ) ١٢٥ / الانعام .

ومنشأ الضلال : من التسوية بين المشيئة والارادة ، وبين المحبة والرضا ، فسوى بينهما الجبرية والقدرية ، ثم اختلفوا فحالت الجبرية : الكون كله بقضاء الله وقدره ، فيكون محبوبا مرضيا . وقالت القدرية النفاة : ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له ، فليست مقدرة ولا مقضية ، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه .

وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة : الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة .

اما نصوص المشيئة والارادة من الكتاب فقد تقدم ذكر بعضها .
واما نصوص المحبة والرضا فقال الله تعالى :
(وَاللَّهُ لَا يُبْغِ الْفَسَادَ) ٢٠٥ / البقرة .

وقال سبحانه : (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) ٧ / الزمر .
وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله خره لكم
ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال » .
وفي المسند : « ان الله يحب ان يؤخذ برخصه كما يكره ان تؤتى
معاصيه » .

فان قيل : كيف يريد الله امرا ولا يرضاه ولا يحبه ؟ وكيف يشاؤه ويكونه ؟ وكيف تجتمع ارادته وبغضه وكراهته ؟

قيل : هذا السؤال هو الذي افترق الناس لاجله فرقا وتباينت طرقهم واقوالهم ، فاعلم ان المراد نوعان : مراد لنفسه ، ومراد لغيره ، فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير ، فهو مُرادُ ارادة الغايات والمقاصد .

والمراد لغيره : قد لا يكون مقصوداً لما يريد ، ولا فيه مصلحة له بالنظر الى ذاته ، وان كان وسيلة الى مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته ، مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله الى مراده ، فيجتمع فيه الامران : بغضه وارادته ، ولا يتنافيان ، لاختلاف متعلقهما ، وهذا كالدواء الكريه ، اذا علم المتناول له ان فيه شفاءه ، وقطع العضو المتآكل ، اذا علم ان في قطعه بقاء جسده ، وكقطع المسافة الشاقة ، اذا علم انها توصل الى مراده ومحبيه . بل العاقل يكتفي في ايثار هذا المكروه وارادته بالظن الغالب وان خفيت عنه عاقبته ، فكيف ممن لا يخفى عليه خافية . فهو سبحانه يكره الشيء ، ولا ينافي ذلك ارادته لأجل غيره ، وكونه سبباً الى امر هو احب اليه من فوقه .

من ذلك : انه خلق ابليس ، الذي هو مادة لفساد الاديان والاعمال والاعتقادات والارادات وهو سبب لشقاوة كثير من العباد ، وعملهم بما يغضب الرب سبحانه ، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه ومع هذا فهو وسيلة الى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ، ووجودها احب اليه من عدمها .

منها : انه يظهر للعباد قدرة الله تعالى على خلق المتضادات المتقابلات ، فخلق هذه الذات ، التي هي اخبث الذوات وشرها ، في مقابلة ذات جبرائيل التي هي اشرف الذوات واطهرها ، فتبارك خالق هذا وهذا ، كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار ، والداء والدواء ، والحسن والقبح ، وذلك دليل كمال قدرته .

ومنها ظهور آثار اسمائه القهرية ، مثل : القهار ، والمنتقم ، وشديد العقاب ، وذو البطش الشديد ، فان هذه الاسماء والافعال كمال ، لا بد من وجود متعلقها ، ولو كان الجن والانس على طبيعة الملائكة لم يظهر اثر هذه الاسماء .

ومنها ظهور آثار اسمائه المتضمنة عفوه ومغفرته ، وقد اشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا بقوله : « لو لم تذنّبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون ، فيغفر لهم » .

ومنها حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق ابليس لما حصلت فان عبودية الجهاد من احب انواع العبودية اليه سبحانه ، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها ، من الموالاة لله سبحانه وتعالى والمعاداة فيه ، وعبودية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعبودية الصبر ، والتوبة . فان قيل : فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الاسباب ؟

فهذا سؤال فاسد ! وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه ، كفرض وجود

الحركة بدون المتحرك ، والتوبة بدون التائب .

فان قيل : كيف يرضى لعبده شيئا ولا يعينه عليه ؟

قيل : لأن اعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له اعظم من حصول تلك الطاعة التي رضى بها له ، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي اكراه اليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة . وقد اشار تعالى الى ذلك في قوله : (وَلَوْ ارَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَائِمِينَ)

٤٦ / التوبة

فاخبر سبحانه انه كره انبعاثهم الى الغزو مع رسوله ، وهو طاعته ، فلما كرهه منهم ثبطهم عنه ، ثم ذكر سبحانه بعض المفاصد التي تترتب على خروجهم مع رسوله ، فقال :

(لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا) ٤٧ / التوبة

اي فسادا وشرًا .

(وَلَا تَضُرُّوهُم بِغُرُوبِكُمْ الْفِتْنَةُ فِيكُمْ تُنْفِرُ لَهُمْ وَأَنَّ عِلْمَ الْفَالِغِينَ) ٤٧ / التوبة

اي سعوا بينكم بالفساد ، وفيكم من يستجيب لهم ، فيتولد من سعي هؤلاء واستجابة هؤلاء من الشر ما هو اعظم من مصلحة خروجهم ، فاقتضت الحكمة والرحمة ان اقعدهم عنه . فاجعل هذا المثال اصلا ، وقس عليه . فان قيل : اذا كان الكفر بقضاء الله وقدره ونحن مأمورون ان نرضى بقضاء الله ، فكيف ننكره ونكرهه ؟

فالجواب : ان يقال اولا : نحن غير مأمورين بالرضا بكل ما يقضيه الله ويقدره ، ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة ، بل من المقضي ما يرضى به ، ومنه ما يسخط ويمقت . كما لا يرضى به القاضي لا قضيته سبحانه ، بل من القضاء ما يسخط ، كما ان من الاعيان المقضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويذم . ويقال ثانيا : هنا امران : قضاء الله ، وهو فعل قائم بذات الله تعالى . ومقضي ، وهو المفعول المنفصل عنه ، فالقضاء كله خير وعدل وحكمة ، نرضى به كله ، والمقضي قسمان : منه ما يرضى به ، ومنه ما لا يرضى به .

ويقال ثالثا : القضاء له وجهان : احدهما تعلقه بالرب تعالى ، فمن هذا الوجه ونسبته اليه . يُرضى به . والوجه الثاني : تعلقه بالعبد ونسبته اليه ، فمن هذا الوجه ينقسم الى ما يُرضى به والى ما لا يُرضى به .

سئال ذلك قتل النفس له اعتباران : فمن حيث قدره الله وقضاه وكتبه وشاء وجعله اجلا للمقتول : يرضى به . ومن حيث صدر من القاتل وباشره

واقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله : نسخته ولا نرضى به .

وقول الطحاوي . « فمن سأل لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين » قول صحيح ، فان مبنى العبودية والايمان بالله وكتبه ورسله على التسليم وعدم الاسئلة عن تفاصيل الحكمة في الاوامر والنواهي والشرائع ، ولهذا لم يحك الله سبحانه عن امة نبي صدقت بنبيها وأمنت بما جاء به انها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما امرها به ونهاها عنه وبلغها ، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها ، بل انقادت وسلمت واذعنت ، وما عرفت من الحكمة : عرفت ، وما خفي عنها . لم تتوقف في انقيادها وتسليمها على معرفته . ولهذا كان سلف هذه الامة المحمدية - التي هي اكمل الامم عقولا ومعارف وعلوما - لا تسأل نبيها . لم امر الله بكذا ؟ ولم قدر كذا ؟ لعلمهم ان ذلك مضاد للايمان والاستسلام .

● قال الطحاوي : (فهذا جُملة ما يَحْتَاج اليه مَنْ هو مُنَوَّر قلبه من اولياء الله تعالى ، وهي درجة الراسخين في العلم ، لأن العلم علما ، علم في الخلق موجود ، وعلم في الخلق مفقود ، فانكار العلم الموجود : كفر ، وادعاء العلم المفقود : كفر ، ولا يثبت الايمان الا بقبول العلم الموجود ، وترك طلب العلم المفقود) .

والاشارة بقوله (فهذا) الى ما تقدم ذكره ، مما يجب اعتقاده والعمل به ، مما جاءت به الشريعة .

وقوله . « وهي درجة الراسخين في العلم » ، اي علم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم جملة وتفصيلا ، نفيا واثباتا .

ويعني بالعلم المفقود : علم القدر الذي طواه الله عن انامه ، ونهاهم عن مرامه .

ويعني بالعلم الموجود علم الشريعة ، اصولها وفروعها .

فمن انكر شيئا مما جاء به الرسول كان من الكافرين ، ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين .

قال تعالى : (عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَهُ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَّىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) ٢٦ - ٢٨ / الجن .

ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها ، ولا من جهلنا انتفاء حكمته . الا ترى ان خفاء حكمة الله علينا في خلق العقارب والحشرات - التي لا يعلم

منها الا المصرة - لم ينف ان يكون الله تعالى خالقها ، ولا يلزم ان لا يكون فيها حكمة خفيت علينا ، لأن عدم العلم لا يكون علما بالمعدوم .

● قال : (ونؤمن باللوح والقلم ، وبجميع ما فيه قد رَقَمَ) .

فقد قال الله تعالى

(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْمُودٍ) ٢١ و ٢٢ / البروج .

واللوح المذكور هو الذي كتب الله مقادير الخلائق فيه ، والقلم المذكور هو الذي خلقه الله وكتب به في اللوح المذكور المقادير ، كما في سنن ابي داود ، عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان اول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . قال : يا رب وماذا اكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » .

واختلف العلماء هل القلم اول المخلوقات او العرش ؟ على قولين ، ذكرهما الحافظ ابو العلاء الهمداني ، اصحهما ان العرش قبل القلم ، لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « كتب الله مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة . قال : وعرشه على الماء » . فهذا صريح ان التقدير وقع بعد خلق العرش ، والتقدير وقع عند اول خلق القلم ، بحديث عبادة هذا .

ولا يخلو قوله « اول ما خلق الله القلم » الى اخره اما ان يكون جملة او جملتين . فان كان جملة - وهو الصحيح - كان معناه انه عند اول خلقه قال له « اكتب » كما في اللفظ « اول ما خلق الله القلم قال له اكتب » بنصب « اول » و « القلم » وان كان جملتين - وهو مروي - برفع « اول » و « القلم » ، فيتعين حملة على انه اول المخلوقات من هذا العالم ، فيتفق الحديثان اذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في ان العرش سابق على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم

فهذا القلم اول الاقلام وافضلها واجلها ، وقد قال غير واحد من اهل التفسير انه القلم الذي اقسم الله به في قوله تعالى (ن والقلم وما يسطرون) والقلم الثاني قلم الوحي ، وهو الذي يكتب به الوحي الى انبيائه ورسله ، واصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم ، والاقلام كلها خدم لاقلامهم ، وقد رفع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أُسري به الى مستوى يسمع فيه صريف الاقلام فهذه الاقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الامور التي يديرها امر العالم العلوي والسفلي

● ثم قال ابو جعفر رحمه الله :

(فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى انه

كائن : ليجعلوه غير كائن ، لم يقدرُوا عليه . ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى ، ليجعلوه كائنا : لم يقدرُوا عليه . جَفَّ القلم بما هو كائن الى يوم القيامة) .

وذلك في حديث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « جاء سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ بْنِ جُعْشَمٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بَيَّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خَلَقْنَا الْآنَ : ففيم العمل اليوم ؟ افيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير ؟ ام فيما استقبل ؟ قال : لا ، بل فيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير » .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال :

« كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : يا غلام : الا اعلمك كلمات !! احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعجبت فاستعن بالله . واعلم ان الامة لو اجتمعت على ان ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك . ولو اجتمعوا على ان يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الاقلام ، وجفت الصحف » .

رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

واذا علم العبد ان كلا من عند الله فالواجب افراده سبحانه بالخشية والتقوى . قال تعالى : (فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُوا) ٤٤ / المائدة .

وقال سبحانه :

(وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) ٥٢ / النور .

وقال بعض السلف ما احتاج تقي قط ، لقوله تعالى :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) ٢ و ٣ / الطلاق .

فقد ضمن الله للمتقين ان يجعل لهم مخرجا مما يضيق على الناس ، وان يرزقهم من حيث لا يحتسبون ، فاذا لم يحصل ذلك دل على ان في التقوى خلا ، فليستغفر الله وليتب اليه .

ثم قال تعالى

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) ٣ / الطلاق .

اي فهو كافيه غير محوجه الى غيره .

وقد ظن بعض الناس ان التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الاسباب ، وان الامور اذا كانت مقدرة فلا حاجة الى الاسباب ، وهذا فاسد ، فان الاكتساب منه فرض ، ومنه مستحب ، ومنه مباح ، ومنه مكروه ، ومنه حرام ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم افضل المتوكلين يلبس لامة الحرب ويمشي في الاسواق للاكتساب حتى قال الكافرون

(مَا لِمَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ أَنْطَعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) ٧ / الفرقان .

ولهذا تجد كثيرا ممن يرى الاكتساب ينافي التوكل يرزقون على يد من يعطيهم ، اما صدقة ، واما هدية .

● قال : (وما اخطأ العبدَ لم يكن ليصيبه وما اصابه لم يكن ليُخطئه) .

وهذا بناء على ما تقدم من ان المقدور كائن لا محالة .

● قال : (وعلى العبد ان يعلم ان الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه ، فقدّر ذلك تقديرا مُحْكَمَا مُبرَما ، ليس فيه ناقص ، ولا مُعَقَّب ولا مُزِيل ولا مُغَيَّر ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وارضه) .

وهذا بناء على ما تقدم من ان الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات ، وانه قدر مقاديرها قبل خلقها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « قدّر الله مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة ، وعرشه على الماء » فيعلم ان الله قد علم ان الاشياء تصير موجودة لاوقاتها ، على ما اقتضته حكمته البالغة ، فكانت كما علم ، فان حصول المخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم لا يتصور ايجادها الا من عالم قد سبق علمه على ايجادها .

قال تعالى : (أَلَيْعَلَّ مِنْ خَلْقِ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) ١٤ / الملك .

وانكر غلاة المعتزلة ان الله كان عالما في الازل ، وقالوا : ان الله تعالى لا يعلم افعال العباد حتى يفعلوا ! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

● قال : (وذلك من عَقْد الايمان واصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته ، كما قال تعالى في كتابه : وخلق كل شيء فقدره تقديرا ، وقال تعالى : وكان امر الله قدرا مقدورا) .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال : « القدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده » .

وهذا لأن الايمان بالقدر يتضمن الايمان بعلم الله القديم وما اظهر من علمه الذي لا يحاط به ، وكتابة مقادير الخلائق . وقد ضل في هذا الموضع خلائق من المشركين والصائبين والفلاسفة وغيرهم ، ممن ينكر علمه بالجزئيات او بغير ذلك ، فان ذلك كله مما يدخل في التكذيب بالقدر ، واما قدرة الله على كل شيء فهو الذي يكذب به القدريّة جملة ، حيث جعلوه لم يخلق افعال العباد ، فأخرجوها عن قدرته وخلقها .

والقدر - الذي لا ريب في دلالة الكتاب والسنة والاجماع عليه ، وان الذين جحدوه هم القدريّة المحضة بلا نزاع - هو ما قدره الله من مقادير

العباد . وعامة ما يوجد من كلام الصحابة والائمة في ذم القدرية يعني به هؤلاء .

● قال : (فويل لمن صار قلبه في القدر قلبا سقيما ، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرا كتيما ، وعاد بما قال فيه أفاكا اثيما) .

اعلم ان القلب له حياة وموت ، ومرض وشفاء ، وذلك اعظم مما للبدن . قال تعالى : (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) ١٢٢ / الانعام .

اي كان ميتا بالكفر فاحييناه بالايمان . فالقلب الصحيح الحي اذا عرض عليه الباطل والقبائح نفر منها بطبعه وابغضها ولم يلتفت اليها ، بخلاف القلب الميت فانه لا يفرق بين الحسن والقبيح ، كما قال عبد الله بن مسعود : « هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر » وكذلك القلب المريض بالشهوة فانه لضعفه يميل الى ما يعرض له من ذلك ، بحسب قوة المرض وضعفه .

ومرض القلب نوعان : مرض شهوة ، ومرض شبهة ، وارادوها : مرض الشبهة ، واردا الشبه : ما كان من امر القدر . وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يشعر به صاحبه ، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته واسبابها ، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته . وعلامة ذلك انه لا تؤلمه جراحات القبائح ، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة ، فان القلب اذا كانت فيه حياة : تألم بورود القبيح عليه ، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته .

* ما لجرح بميت إيلام *

وقد يشعر بمرضه ، ولكن يشتد عليه تحمّل مرارة الدواء والصبر عليها ، فيؤثر بقاء الله على مشقة الدواء ، فان دواءه في مخالفة الهوى ، وذلك اصعب شيء في النفس ، وليس له انفع منه . وتارة يوطن نفسه على الصبر ، ثم يفسخ عزمه ولا يستمر معه ، لضعف علمه وبصيرته وصبره ، كمن دخل في طريق مخوف مفض الى غاية الامن ، وهو يعلم انه ان صبر عليه انقضى الخوف واعقبه الامن ، فهو محتاج الى قوة صبر وقوة يقين بما يصير اليه ، ومتى ضعف صبره ويقينه : رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها ، ولا سيما ان عدم الرفيق واستوحش من الوحدة ، وجعل يقول : اين ذهب الناس فلي اسوة بهم ! وهذه حال اكثر الخلق ، وهي التي اهلكتهم . فالصابر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقدته اذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الاول :

(الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)

٦٩ / النساء .

وما احسن ما قال ابو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل ، المعروف بابي شامة ، في كتاب : الحوادث والبدع : حيث جاء الامر بلزوم الجماعة ، فالمراد :

لزوم الحق واتباعه ، وان كان المتمسك به قليلا والمخالف له كثيرا . لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الاولى من عهد النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه ، ولا تنظر الى كثرة اهل الباطل بعدهم .

وعن الحسن البصري رحمه الله انه قال : السُّنَّةُ - والذي لا اله الا هو - بين الغالي والجاني ، فأصبروا عليها رحمكم الله ، فان اهل السنة كانوا اقل الناس فيما مضى ، وهم اقل الناس فيما بقي ، الذين لم يذهبوا مع اهل الاثراف في اترافهم ، ولا مع اهل البدع في بدعتهم ، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم ، فكذاك فكونوا .

وعلاوة مرض القلب : عدوله عن الاغذية النافعة الموافقة ، الى الاغذية الضارة ، وعدوله عن دوائه النافع ، الى دوائه الضار منها هنا اربعة اشياء : غذاء نافع ، ودواء شاف ، وغذاء ضار ، ودواء مهلك . فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي ، والقلب المريض بضد ذلك ، وانفع الاغذية : غذاء الايمان ، وانفع الادوية : دواء القرآن ، وكل منهما فيه الغذاء والدواء ، فمن طلب الشفاء في غير الكتاب والسنة فهو من اهل الجاهل الجاهلين واهل الضالين ، فان الله تعالى يقول :

(قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا بِهِ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ سَمِىٌّ اُولٰٓئِكَ يَبْذَلُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ) ٤٤ / فصلت .
وقال تعالى :

(وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَافُوشَةً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) ٨٢ / الاسراء .
و « من » في قوله : « من القرآن » لبيان الجنس ، لا للتبويض .

● قال الطحاوي : (والعرش والكرسي حق) .

وذلك كما بين الله تعالى في كتابه .
قال تعالى : (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ١٥٠ فَعَالٌ لِّمَآبِرِيدُ) ١٥ و ١٦ / البروج .
وقال سبحانه : (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ) ١٥ / غافر .
وقال عز وجل : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) ٥ / طه .
وقال تعالى : (اَللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) ٢٦ / النمل .
وفي صحيح البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال :
« اذا سالتم الله الجنة فاسالوه الفردوس ، فانه اوسط الجنة واعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » .

وقد ثبت ان له قوائم تحمله الملائكة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الناس يُصعقون ، فاكون اول من يفيق ، فاذا انا بموسى اخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا ادري افاق قبلي ؟ ام جُورِي بصعقة

الطور ؟ » رواه البخاري ومسلم .
والعرش في اللغة : عبارة عن السرير الذي للملك ، كما قال تعالى عن بلقيس : (ولها عرش عظيم) .

واما مَنْ حَرَفَ كلام الله ، وجعل العرش عبارة عن الملك ، كيف يصنع بقوله تعالى : (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ) ١٧ / الحاقة .
ويقوله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ٧ / هود .

ايقول : ويحمل ملكه يومئذ ثمانية ؟ وكان ملكه على الماء ؟ ويكون موسى عليه السلام اخذا بقائمة من قوائم الملك ؟ هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول ؟

واما الكرسي فقال تعالى :

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) ٢٥٥ / البقرة .

وقد قيل : هو العرش ، والصحيح انه غيره . نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره .

روى ابن ابي شيبة في كتاب « صفة العرش » والحاكم في مستدركه ، وقال : انه على شرط الشيخين البخاري ومسلم ولم يخرجاه ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله تعالى : (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) انه قال : « الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره الا الله تعالى » . وقد روي مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم ، والصواب انه موقوف على ابن عباس .

وقال غير واحد من السلف : هو بين يدي العرش كالمراقبة اليه .

● قال : (وهو مُسْتَغْنٍ عن العرش وما دونه ، محيط بكل شيء وفوقه ، وقد أعجزَ عن الاحاطة خلقه) .

اما قوله : « وهو مستغن عن العرش وما دونه » فقال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) ٦ / العنكبوت .

وانما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا ، لانه لما ذكر العرش والكرسي ، ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش ، لبيان ان خلقه للعرش لاستوائه عليه ، ليس لحاجته اليه ، بل له في ذلك حكمة اقتضته ، وكون العالي فوقا للسافل لا يلزم ان يكون السافل حاويا للعالي ، محيطا به ، حائلا له ، ولا ان يكون الاعلى مفتقرا اليه . فانظر الى السماء كيف هي فوق الارض وليست مفتقرة اليها ؟ فالرب تعالى اعظم شأننا واجل ان يلزم من علوه ذلك ، بل لوازم علوه من خصائصه ، وهي حمله بقدرته للسافل ، وفقر

السافل ، وغناه هو سبحانه عن السافل ، واحاطته عز وجل به ، فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحكمته ، وغناه عن العرش وفقر العرش اليه واحاطته بالعرش وعدم احاطة العرش به ، وحصره للعرش وعدم حصر العرش له ، وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق .

ونُفَاةُ الْعُلُوِّ ، اهل التعطيل ، لو فصلوا بهذا التفصيل ، لهدوا الى سواء السبيل ، وعلموا مطابقة العقل للتنزيل ، ولسلكوا خلف الدليل ، ولكن فارقوا الدليل ، فضلوا عن سواء السبيل ، والامر في ذلك كما قال الامام مالك رحمه الله : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول .

واما قوله : « محيط بكل شيء وفوقه » فمعناه : انه تعالى محيط بكل شيء وفوق كل شيء ، فقد قام الدليل على ان العرش فوق المخلوقات ، وليس فوقه شيء من المخلوقات .

اما كونه محيطا بكل شيء فذلك قوله تعالى :
(وَفِي مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا)
١٢٦ / النساء .

وليس المراد من احاطته بخلقه انه كالفلك ، وان المخلوقات داخل ذاته المقدسة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وانما المراد : احاطة عظمته ؛ وسعة علمه وقدرته ، وانها بالنسبة الى علمه كخردلة .

واما كونه فوق المخلوقات فذلك ثابت ، وقد صرحت بالفوقية آيات عديدة واحاديث صحيحة .

قال تعالى : (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) ١٨ / الانعام .

وقال سبحانه : (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَرَاقِهِمْ) ٥٠ / النحل .

وعن ابي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : ان رحمتي سبقت غضبي » رواه البخاري وغيره .

وفي قصة سعد بن معاذ يوم بني قريظة ، لما حكم فيهم ان تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات » وهو حديث صحيح اخرجه الاموي في مغازيه ، واصله في الصحيحين .

وروى البخاري عن زينب رضي الله عنها انها كانت تفخر على ازواج النبي

صلى الله عليه وسلم وتقول : « زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات » .

وعن عمر رضي الله عنه أنه مرَّ بعجوز فاستوقفته ، فوقف معها يحدثها ، فقال رجل : يا امير المؤمنين . حبست الناس بسبب هذه العجوز ! فقال . ويلك ! اتدري من هذه ؟ امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة التي انزل الله فيها : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله) . اخرجہ الدارمي .

ومن سمع احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام السلف : وجد منه في اثبات الفوقية ما لا ينحصر ، والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه وكونه فوق عباده . تقرب من عشرين نوعا .

الاول التصريح بالفوقية مقرونا باداة « من » المعينة للفوقية بالذات ، كقوله تعالى . (يخافون ربهم من فوقهم) .

الثاني ذكرها مجردة عن الاداة ، كقوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) .

الثالث التصريح بالعروج ، نحو . (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) ٤ / المعارج .

الرابع . التصريح بالصعود اليه ، كقوله تعالى . (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) ١٠ / فاطر .

الخامس التصريح برفعه بعض المخلوقات اليه ، كقوله تعالى . (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) ١٥٨ / النساء .

وقوله (إِنِّي مُرْقِّعٌ وَرَافِعُكَ إِلَيْنَا) ٥٥ / آل عمران .
السادس التصريح بالعلو المطلق ، الدال على جميع مراتب العلو ، ذاتا وقدرًا وشرفًا ، كقوله تعالى ، (وهو اعلیٰ العظیم) .

السابع : التصريح بتنزيل الكتاب منه ، كقوله تعالى : (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) ٢ / غافر .

وقوله : (تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ٢ / فصلت .
وقوله : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) ١٠٢ / النحل .

الثامن . التصريح باختصاص بعض المخلوقات بانها عنده ، وان بعضها

اقرب اليه من بعض ، كقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ) ٢٠٦ / الاعراف .
وقوله (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ) ١٩ / الانبياء .
ففرق بين « من له » عموما ، وبين « من عنده » من ملائكته وعبيده
خصوصا .

التاسع : التصريح بانه تعالى في السماء ، كقوله :
(أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا) ١٧ / الملك .
العاشر : التصريح بالاستواء على العرش الذي هو اعلى المخلوقات .
الحادي عشر : التصريح برفع الايدي الى الله تعالى ، كقوله صلى الله
عليه وسلم : « ان الله يستحي من عبده اذا رفع اليه يديه ان يردهما
صفرا »

الثاني عشر : التصريح بنزوله كل ليلة الى سماء الدنيا .
الثالث عشر : الاشارة اليه حسا الى العلو ، كما اشار اليه من هو اعلم
بربه ، محمد صلى الله عليه وسلم ، لما كان بعرفة ، فرفع اصبعه الكريمة الى
السواء وقال : « اللهم اشهد » .

الرابع عشر : التصريح بلفظ « اين » فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم
للفتاة : « اين الله ؟ » .

الخامس عشر : شهادته صلى الله عليه وسلم لمن قال ان ربه في السماء
بالايمان .

السادس عشر : اخباره تعالى عن فرعون انه رام الصعود الى السماء
ليطلع الى اله موسى فيكذبه فيما اخبر من انه سبحانه فوق السموات ، فقال
(يَهْمَنُ ابْنُ كَافٍ أَنْ يُبْلَغَ الْآسْبَابُ) ٣٦ / غافر

السابع عشر : اخباره صلى الله عليه وسلم انه تردد بين موسى عليه
السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة ، فيصعد الى ربه ثم يعود
الى موسى عدة مرار .

الثامن عشر : النصوص الدالة على رؤية اهل الجنة له تعالى : من الكتاب
والسنة ، فهم يرونه من فوقهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « بينا
اهل الجنة في نعيمهم اذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم فاذا الجبار جل
جلاله قد اشرف عليهم من فوقهم وقال : يا اهل الجنة : سلام عليكم » رواه

الامام احمد في المسند وغيره

ولا يتم انكار الفوقية الا بانكار الرؤية ، ولهذا طُرِدَ الجهمية⁹ الشقين ،
وَصَدَّقَ اهل السنة بالامرین معا .

وهذه الانواع من الادلة لو بُسِطت افرادها لبلغت نحو الف دليل ، فعلى
التأول ان يجيب عن ذلك كله ، وهيئات له بجواب صحيح .

ومن تأول « فوق » بانه خير من عبادته وافضل منهم ، وانه خير من
العرش وافضل منه ، كما يقال الامير فوق الوزير ، والدينار فوق الدرهم ،
فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة ، فان قول القائل ابتداء الله خير من
عباده من جنس قوله الثلج بارد ، والنار حارة ، ورسول الله افضل من
اليهود ، وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم

وانما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل
وجه ، فله سبحانه وتعالى فوقية القهر ، وفوقية الذات ، ومن اثبت البعض ونفى
البعض فقد تنقص ، وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه

فان قيل المراد علوه في القلوب ، قيل ، وكذلك هو ، وهذا العلومطابق
لعلوه في نفسه على كل شيء ، فان لم يكن عاليا بنفسه على كل شيء كان علوه في
القلوب غير مطابق .

وعلوه سبحانه كفاً هو ثابت بالسمع ترويه النصوص ثابت بالفطرة ،
كما ذكر محمد بن طاهر المقدسي ان الشيخ ابا جعفر الهمداني حضر مجلس
الاستاذ ابي المعالي الجويني المعروف بامام الحرمين ، وهو يتكلم في نفي صفة
العلو ، ويقول كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان فقال الشيخ ابو جعفر
اخبرنا يا استاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ، فانه ما قال عارف
قط يا الله ، الا وجد في قلبه ضرورة طلب العلو ، لا يلتفت يمناً ولا يسرة ،
فكيف ندفع هذه الضرورة عن انفسنا قال فلطم ابو المعالي على راسه ونزل ،
واظنه قال وبكى ، وقال حيرني الهمداني ، حيرني اراد الشيخ ، ان هذا
امر فطر الله عليه عبادته ، من غير ان يتلقوه من المرسلين . يجدون في قلوبهم
طلباً ضرورياً يتوجه الى الله ويطلبه في العلو

واعترض على الدليل الفطري ان ذلك انما كان لكون السماء فيه
للدعاء . كما ان الكعبة قبله للصلاة تم هو مقوض بوضع الجبهة على الارض
مع انه ليس في جهة الارض

وأجيب عن هذا الاعتراض من وجوه

أحدها : ان قولكم : ان السماء قبلة الدعاء : لم يقله احد من سلف الامة ، ولا انزل الله به من سلطان ، وهذا من الامور الشرعية الدينية ، فلا يجوز ان يخفى على جميع سلف الامة وعلمائها .

الثاني : ان قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستقبل القبلة في دعائه .

واما النقض بوضع الجبهة فما افسده من نقض ، فان واضع الجبهة انما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له ، لا بان يميل اليه اذ هو تحته . هذا لا يخطر في قلب ساجد .

وقول الطحاوي : « وقد اعجز عن الاحاطة خلقه » اي لا يحيطون به علما ولا رؤية .

● قال الطحاوي : (ونقول : ان الله اتخذ ابراهيم خليلا ، وكلم الله موسى تكليما ، ايماننا وتصديقا وتسلينا) .

وذلك لقول الله تعالى : (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) ١٢٥ / النساء .

وقال سبحانه : (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) ١٦٤ / النساء .

والخلة : كمال المحبة .

وانكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين ، زعما منهم ان المحبة لا تكون الا لمناسبة بين المحب والمحبوب ، وانه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة ! وكذلك انكروا حقيقة التكليم ، كما تقدم ، وعندنا ان محبته وخلته كما يليق به تعالى ، كسائر صفاته .

ويشهد لما دلّت عليه الآية الكريمة ما ثبت في الصحيح عن ابي سعيد الخدري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو كنت متخذاً من أهل الارض خليلاً لاتخذت ابا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله » يعني نفسه . وفي رواية : « ان الله اتخذني خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً » .

مع انه صلى الله عليه وسلم قد وصف نفسه بانه يحب اشخاصا كقوله لمعاذ بن جبل « والله اني لاحبك » وكذلك قوله للانصار ، فعلم ان الخلة اخص من مطلق المحبة ، والمحبوب بها يكون محبوبا لذاته ، لا لشيء آخر ، اذ المحبوب لغيره هو مؤخر في الحب عن ذلك الغير .

● قال : (ونؤمن بالملائكة والنبیین ، والكتب المنزلة على

المرسلين ، ونشهد انهم كانوا على الحق المبين) .

وهذه الامور من اركان الايمان .

قال تعالى : (اٰمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا اُنْزِلَ اِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُوْنَ كُلٌّ اٰمَنَ بِاللهِ وَمَلٰئِكَتِهِ

وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ) ٢٨٥ / البقرة .

وقال تعالى : (لَيْسَ الْاِيْمَانُ تَوَلُّوا وُجُوْهُكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلٰكِنَّ الْاِيْمَانَ اٰمَنَ

بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ وَالْمَلٰئِكَةِ وَالْكِتٰبِ وَالنَّبِيِّنَ) ١٧٧ / البقرة .

فجعل الله سبحانه وتعالى الايمان هو الايمان بهذه الجملة ، وسمى من امن بهذه الجملة ، مؤمنين ، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة ، فقال : (وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلٰلًا بَعِيْدًا)

١٢٦ / النساء .

وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته ، حديث جبريل وسؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال : « ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

ولهذا كانت الايتين من آخر سورة البقرة لهما شأن عظيم ليس لغيرهما ، ففي الصحيحين عن ابي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قرا الايتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » .

وقد دل الكتاب والسنة عن اصناف الملائكة وانها موكلة باصناف المخلوقات ، منهم ملائكة الرحمة ، ومنهم ملائكة العذاب ، وملائكة قد وكلوا بحمل العرش ، وملائكة قد وكلوا بالتسبيح والتقديس الى غير ذلك .

ولفظ « الملك » يُشعر بانه رسول منفذ لأمر مرسله ، فليس لهم من الامر شيء ، بل الامر كله لله الواحد القهار ، وهم ينفذون امره ،

(لَا يَسْـَٔفُوْنَ بِالَّذِيْنَ هُمْ بِاَمْرِهٖۙ يَقْتُلُوْنَ) ٢٧ / الانبياء .

فهم عباد مُكرمون ، منهم الصّافّون من حول العرش ، ومنهم المسبحون ، ليس منهم الاله مقام معلوم ، ولا يتخطاه وهو على عمل قد أمر به ، لا يقصر عنه ولا يتعداه ، واعلاهم : الذين عنده :

(لَا يَسْـَٔفُوْنَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْـَٔفُوْنَ ۝۱۹ يَسْـَٔفُوْنَ الْبَلَّ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُوْنَ)

١٩ و ٢٠ / الانبياء .

ومنهم الاملاك الثلاثة : جبرائيل وميكائيل واسرافيل ، الموكّلون بالحياة ، فجبرائيل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والارواح ، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الارض والنبات والحيوان ، واسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم . فهم رسل الله في خلقه وامره ،

وسفراؤه بينه وبين عباده .

والقرآن مملوء بذكر الملائكة واصنافهم ومراتبهم ، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم ، وصلاته بصلاتهم ، ويضيفهم اليه في مواضع التشريف ، وتارة يذكر حقهم بالعرش وحملهم له ، ومراتبهم من الدنو ، وتارة يصفهم بالاكرام والكرم ، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والاخلاص .

قال تعالى : (هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكَ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)
٤٢ / الاحزاب .

وقال سبحانه : (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) ٧ / غافر .

وقال عز وجل :

(وَرَى الْمَلَائِكَةُ حَاقِبِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) ٧٥ / الزمر .
وقال تعالى . (فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْخَرُونَ) ٢٨ / فصلت .
وقال تعالى : (كِرَامًا كَتِيبِينَ) ١١ / الانفطار .

وقال سبحانه : (يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) ٢١ / المطففين .

وكذلك الاحاديث طافحة بذكرهم ، ولهذا كان الايمان بالملائكة احد
الاصول الخمسة التي هي اركان الايمان .

واما الانبياء والمرسلون فعلينا الايمان بمن سمي الله تعالى في كتاب رس
رسله ، والايمان بان الله تعالى ارسل رسلا سواهم وانبياء ، لا يعلم اسماءهم
وعدهم الا الله تعالى الذي ارسلهم . فعلينا الايمان بهم جملة ، لأنه لم يأت في
عددهم نص .

قال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ

قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) ٧٨ / غافر .

وعلينا الايمان بانهم بلغوا جميع ما ارسلوا به ، على ما امرهم الله به ،
وانهم بينوه بيانا لا يسع احدا ممن ارسلوا اليه جهله ، ولا يحل خلافه .

واما اولو العزم من الرسل فقد قيل فيهم اقوال ، احسنها ما نقله البغوي
وغيره عن ابن عباس وقتاده : انهم نوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ،
ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم . قال . وهم المذكورون في قوله تعالى
(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) ٧ / الاحزاب .

ومن قوله تعالى

(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) ١٣ / الشورى .
واما الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع اجمالا وتفصيلا .

واما الايمان بالكتب المنزلة على المرسلين فنؤمن بما سمي الله تعالى منها في كتابه ، من التوراة والانجيل والزيور ، ونؤمن بان الله تعالى سوى ذلك كتبها انزلها على انبيائه ، لا يعرف اسماءها وعددها الا الله تعالى

واما الايمان بالقرآن ، فالإقرار به ، واتباع ما فيه ، وذلك امر زائد على الايمان بغيره من الكتب . فعلينا الايمان بان الكتب المنزلة على الرسل اقتهم من عند الله ، وانها حق وهدى ونور وبيان وشفاء . قال تعالى

(قُلُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُجِيبُونَ) ١٣٦ / البقرة .

● قال : (ونُسَمِّي اهل قِبَلَتِنَا مسلمين مؤمنين ، ما داموا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم معترفين ، وله بكل ما قاله واخبر مصدقين) .

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ صَلَّى صَلَاتِنَا ، وَاسْتَقْبَلَ قِبَلَتِنَا ، وَآكَلَ ذَبِيحَتِنَا ، فَهُوَ الْمُسْلِمُ ، لَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا » .

ويشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام الى ان الاسلام والايمان واحد ، وان المسلم لا يخرج من الاسلام بارتكاب الذنب ، ما لم يستحلّه . والمراد بقوله « اهل قِبَلَتِنَا » من يدعي الاسلام ويستقبل الكعبة وان كان من اهل الاهواء او من اهل المعاصي ، ما لم يكذب بشيء مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .

● قال : (ولا نخوض في الله ، ولا نُماري في دين الله) .

ويشير الشيخ بهذا الى الكف عن كلام المتكلمين الباطل ، وذم علمهم ، فانهم يتكلمون في الاله بغير علم وغير سلطان اتاهم

قال ابو حنيفة رحمه الله لا ينبغي لاحد ان ينطق في ذات الله بشيء ، بل يصفه بما وصف به نفسه

وقوله : (ولا نماري في دين الله) معناه : لا نخاصم اهل الحق بالقاء شبهات اهل الاهواء عليهم ، لأنه في معنى الدعاء الى الباطل ، وتلبيس الحق ، وفساد دين الاسلام .

● قال : (ولا نجادل في القرآن ، ونشهد انه كلام رب العالمين ، نزل به الروح الامين ، فعلمه سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهو كلام الله تعالى ، لا يساويه شيء من كلام المخلوقين ، ولا نقول بخلقها ، ولا نخالف جماعة المسلمين) .

وقوله : « نزل به الروح الامين » : هو جبرائيل عليه السلام . سمي روحاً لأنه حامل الوحي الذي به حياة القلوب الى الرسل من البشر صلوات الله عليهم اجمعين ، وهو امين حق امين ، صلوات الله عليه .

قال تعالى :

(تَزَلُّ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٥﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٦﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

١٩٢ و ١٩٤ و ١٩٥ / الشعراء .

وقال تعالى : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٧﴾ ذِي قُرْبَىٰ عِنْدَ

ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٨﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) ١٩ و ٢٠ و ٢١ / التكوين .

وهذا وصف جبرائيل ، بخلاف قوله تعالى :

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ وَمَا مَوْعِدُكُمْ إِلَّا يَوْمُ الْحَاقَّةِ .

فان الرسول هنا هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله : « ولا نقول بخلقها ، ولا نخالف جماعة المسلمين » :

تنبيه على ان من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين ، فان سلف الامة كلهم متفقون على انه كلام الله بالحقيقة غير مخلوق .

● قال : (ولا نكفر احداً من اهل القبلة بذنب ، ما لم يستحله ، ولا نقول : لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمله) .

واراد باهل القبلة الذين تقدم ذكرهم في قوله : « ونسمي اهل قبلتنا مسلمين » .

ويشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام الى الرد على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب .

واعلم - رحمك الله وايانا - ان باب التكفير وعدم التكفير باب عظمت الفتنة والمحنة فيه ، وكثر فيه الافتراق ، وتشتمت فيه الاهواء والآراء ، وتعارضت فيه دلائلهم ، فالناس فيه - في جنس تكفير اهل المقالات والعقائد الفاسدة المخالفة للحق الذي بعث الله به رسوله في نفس الامر ، والمخالفة لذلك في اعتقادهم - : على طرفين ووسط ، من جنس الاختلاف في تكفير اهل الكبائر العملية :

فطائفة تقول : لا نكفر من اهل القبلة احدا ، فتتفي التكفير نفيا عاما ، مع العلم بان في اهل القبلة المنافقين ، الذين فيهم من هو اكفر من اليهود والنصارى . وايضا : فلا خلاف بين المسلمين ان الرجل لو اظهر انكار الواجبات الظاهرة المتواترة ، والمحرمات الظاهرة المتواترة ، ونحو ذلك ، فانه يُستتاب ، فان تاب ، ولم يُلَّكُفْ كافرا .

ولهذا امتنع كثير من الائمة عن اطلاق القول باننا لا نكفر احدا بذيئ . بل يقال : لا نكفرهم بكل ذنب ، ولهذا - والله اعلم - قيده الشيخ رحمه الله بقوله : « ما لم يستحله » وفي ذلك اشارة الى ان مراده : الذنوب العملية ، لا العلمية .

وقوله : « ولا نقول : لا يضر مع الايمان ذنب » : رد على المرجئة ، فانهم يقولون : لا يضر مع الايمان ذنب ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة هؤلاء في طرّف ، والخوارج في طرّف ، فانهم يقولون بكفر المسلم بكل ذنب ، او بكل ذنب كبير ، وكذلك المعتزلة الذين يقولون : يحبط ايمانه كله بالكبيرة ، فلا يبقى معه شيء من الايمان . لكن الخوارج يقولون : يخرج من الايمان ويدخل في الكفر ، والمعتزلة يقولون : يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر ، وهذه المنزلة بين المنزلتين ! ويقولهم بخروجه من الايمان اوجبوا له الخلود في النار .

وطوائف من اهل الكلام والفقه والحديث لا يقولون ذلك في الاعمال ، لكن في الاعتقادات البدعية ، وان كان صاحبها متأولا ، فيقولون : يكفر كل من قال هذا القول ، لا يفرقون بين المجتهد المخطئ وغيره . او يقولون : يكفر كل مبتدع ، وهؤلاء يدخل عليهم في الاثبات العام امور عظيمة ، فان النصوص المتواترة قد دلت على انه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان ، ونصوص الوعد التي يحتج بها هؤلاء تعارض نصوص الوعيد التي يحتج بها اولئك .

والمقصود هنا : ان البدع هي من هذا الجنس ، فان الرجل يكون مؤمنا باطنا وظاهرا ، لكن تأول تأويلا اخطأ فيه ، اما مجتهدا واما مفرطا مذنباً ، فلا يقال : ان ايمانه حبط لمجرد ذلك ، الا ان يدل على ذلك دليل شرعي ، بل هذا من

جنس قول الخوارج والمعتزلة . ولا نقول لا يكفر ، بل العدل هو الوسط ، وهو ان الاقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما اثبتته الرسول ، او اثبات ما نفاه ، او الامر بما نهى عنه ، او النهي عما امر به : يقال فيها الحق ، ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص ، ويبين انها كفر ، ويقال : من قالها فهو كافر ، ونحو ذلك ، وأما الشخص المعين ، اذا قيل : هل تشهدون انه من اهل الوعيد وانه كافر ؟ فهذا لا نشهد عليه الا بامر تجوز معه الشهادة ، فان من اعظم البغي ان يشهد على معين ان الله لا يغفر له ولا يرحمه بل يخلده في النار ، لأن الشخص المعين يمكن ان يكون مجتهدا مخطئا مغفورا له ، ويمكن ان يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص ، ويمكن ان يكون له ايمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله ، كما غفر للذي قال : اذا مِتُّ فاسحقوني ثم اذروني ، ثم غفر الله له لخشيته ، وكان يظن ان الله لا يقدر على جمعه واعادته ، او شك في ذلك . لكن هذا التوقف في امر الآخرة لا يمنعنا ان نعاقبه في الدنيا ، لمنع بدعته ، او نستتيبه فان تاب ، والا قتلناه . ثم اذا كان القول في نفسه كفرا قيل : انه كفر ، والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع ، ولا يكون ذلك الا اذا صار منافقا زنديقا ، فلا يتصور ان يكفر احد من اهل القبلة المظهرين للاسلام الا من يكون منافقا زنديقا ، وكتاب الله يبين ذلك ، فان الله صَنَّفَ الخلقَ فيه ثلاثة اصناف : كفار من المشركين ومن اهل الكتاب ، وهم الذين لا يقرون بالشهادة . وصنف : المؤمنون ظاهرا وباطنا . وصنف : اقروا به ظاهرا لا باطنا . وهذه الاقسام الثلاثة مذكورة في اول سورة البقرة ، وكل من ثبت انه كافر في نفس الامر وكان مُقِرًّا بالشهادتين فانه لا يكون الا زنديقا ، والزنديق هو المنافق .

وهنا يظهر غلط الطرفين ، فانه من كفر كل من قال القول المبتدع يلزمه ان يُكْفَر اقواما ليسوا في الباطن منافقين ، بل هم في الباطن يحبون الله ورسوله ، ويؤمنون بالله ورسوله وان كانوا مذنبين ، كما ثبت في صحيح البخاري : « ان رجلا كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه : عبد الله ، وكان يُلقب : جمارا ، وكان يُضْحِك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب ، فأُتِيَ به يوما ، فأمر به فجُلِدَ ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ، ما أكثر ما يؤتى به ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تلعنوه ، فوالله ما عظمتُ : انه يُحب الله ورسوله » .

وهذا امر متيقن به في طوائف كثيرة وائمة في العلم والدين ، وفيهم بعض مقالات الجهمية او المرجئة او القدرية او الشيعة او الخوارج ، ولكن الائمة في الدين لا يكونون قائمين بجملة تلك البدعة بل بفرع منها .

فمن عيوب اهل البدع تكفير بعضهم بعضا ، ومن مبادئ اهل العلم :
انهم يُخَطِّئون ولا يُكفرون .

ولكن بقي هنا إشكال يُرد على كلام الشيخ رحمه الله ، وهو ان الشارع قد
سمى بعض الذنوب كفرا . قال الله تعالى : (ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك
هم الكافرون) وقال صلى الله عليه وسلم « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر »
متفق عليه . وقال صلى الله عليه وسلم : « بين المسلم وبين الكفر : ترك
الصلاة » رواه مسلم . وقال صلى الله عليه وسلم : « اثنتان في امتي هما بهما
كفر : الطعن في الانساب ، والنياحة على الميت » ونظائر هذا كثيرة

والجواب : ان اهل السنة متفقون كلهم على ان مرتكب الكبيرة لا يُكفر
كفراً ينقل عن الملة بالكلية ، كما قالت الخوارج ، اذ لو كفر كفراً ينقل عن الملة
لكان مرتداً على كل حال ، ولا يُقبل عفو ولي القصاص ، ولا تجري الحدود في
الزنا والسرقة وشرب الخمر ، وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من
دين الاسلام ، ومتفقون على انه لا يخرج من الايمان والاسلام ، ولا يدخل في
الكفر ، ولا يستحق الخلود مع الكافرين ، فان قول المعتزلة باطل ، اذ قد جعل
الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين ، فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ) ١٧٨ / البقرة .

ثم قال : (قَنَ عُنِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ ثَمِيٌّ فَأَتْبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ) ١٧٨ / البقرة .

فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا ، وجعله اخا لولي القصاص ، والمراد :
اخوة الدين بلا ريب .

ونصوص الكتاب والسنة والاجماع تدل على ان الزاني والسارق والقاذف
لا يُقتل ، بل يقام عليه الحد ، فدل على انه ليس بمرتد .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :

« من كانت عنده لآخيه اليوم مظلمة ، من عرض او شيء ، فليتحلله
منه اليوم ، قبل ان لا يكون درهم ولا دينار ، ان كان له عمل صالح : اخذ
منه بقدر مظلمته ، وان لم يكن له حسنات : أخذ من سيئات صاحبه
فطرحت عليه ، ثم القي في النار » اخرجاه في الصحيحين .

فثبت ان الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه .

وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :

« ما تعدون المفلس فيكم ؟ »

قالوا : المفلس فينا من لا له درهم ولا دينار .

قال : المفلس من يأتي يوم القيامة وله حسنات امثال الجبال ، فيأتي وقد شتم هذا ، واخذ مال هذا ، وسفك دم هذا ، وقذف هذا ، وضرب هذا ، فيقتص هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان قُضيت حسناته قبل ان يقضي ما عليه : أخذ من خطاياهم فطرحه عليه ، ثم طرح في النار . رواه مسلم .

والمعتزلة موافقون للخوارج هنا في حكم الآخرة ، فانهم وافقوهم على ان مرتكب الكبيرة مخلد في النار . قالت الخوارج : نسميه كافرا . وقالت المعتزلة : نسميه فاسقا ، فالخلاف بينهم لفظي فقط .

واهل السنة ايضا متفقون على انه يستحق الوعيد المرتب على ذلك الذنب ، كما وردت به النصوص ، لا كما يقوله المرجئة من انه لا يضر مع الايمان ذنب ، ولا ينفع مع الكفر طاعة . واذا اجتمعت نصوص الوعد التي استدلت بها المرجئة ونصوص الوعيد التي استدلت بها الخوارج والمعتزلة : تبين لك فساد القولين . ولا فائدة في كلام هؤلاء سوى انك تستفيد من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الاخرى .

ثم يعد هذا الاتفاق تبين ان اهل السنة اختلفوا خلافا لفظيا ، لا يترتب عليه فساد وهو : انه هل يكون الكفر على مراتب ، كفرا دون كفر ؟ كما اختلفوا : هل يكون الايمان على مراتب ، ايمانا دون ايمان ؟

وهذا الاختلاف نشأ من اختلافهم في معنى « الايمان » : هل هو قول وعمل ، يزيد وينقص ام لا ؟ بعد اتفاقهم على ان من سماه الله تعالى ورسوله كافرا نسميه كافرا ، اذ من الممتنع ان يسمى الله سبحانه الحاكم بغير ما انزل الله كافرا ، ويسمى رسوله من تقدم ذكرهم كفارا ، ولا نطلق عليهم اسم الكفر . ولكن من قال : ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، قال : هو كفر عملي لا اعتقادي ، والكفر عنده على مراتب ، كفر دون كفر ، كالايमान عنده . ومن قال : ان الايمان هو التصديق ، ولا يدخل العمل في معنى الايمان ، والكفر هو الجحود ، ولا يزيدان ولا ينقصان ، قال : هو كفر مجازي غير حقيقي ، اذ الكفر الحقيقي هو الذي ينقل عن الملة . وكذلك يقول في تسمية بعض الاعمال بالايमान ، كقوله تعالى : (وما كان الله ليضيع ايمانكم) اي صلاتكم الى بيت المقدس ، انها سميت ايمانا مجازا ، لتوقف صحتها على الايمان ، اولدالاتها على الايمان ، اذ هي دالة على كون مؤديها مؤمنا . ولهذا يحكم باسلام الكافر اذا صلى كصلاتنا ، فليس بين فقهاء الملة نزاع في اصحاب الذنوب اذا كانوا مقرين باطنا وظاهرا بما جاء به الرسول وما تواتر عنه انهم من اهل الوعيد . ولكن الاقوال المنحرفة اقوال من يقول بتخليدهم في النار ، كالخوارج والمعتزلة .

ولكن اردا ما في ذلك : التعصب على من يُضادهم ، والزامهم لمن يخالف قولهم بما لا يلزمه ، والتشنيع عليه ! واذا كنا مأمورين بالعدل في مجادلة الكافرين ، وان يجادلوا بالتي هي احسن ، فكيف لا يعدل بعضنا على بعض في مثل هذا الخلاف ؟

وهنا امر يجب ان يتفطن له ، وهو ان الحكم بغير ما انزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة ، وقد يكون معصية كبيرة او صغيرة ، ويكون كفرا : اما مجازيا ، واما كفرا اصغر ، على القولين المذكورين ، وذلك بحسب حال الحاكم : فانه ان اعتقد ان الحكم بما انزل الله غير واجب ، وانه مخير فيه ، او استهان به بعد تيقنه انه حكم : فهذا كفر اكبر .

وان اعتقد وجوب الحكم بما انزل الله ، وعلمه في هذه الواقعة ، وعدل عنه مع اعترافه بانه مستحق للعقوبة ، فهذا عاص ، ويسمى كافرا كفرا مجازيا ، او كفرا اصغر .

وان جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم ، واخطأ فهذا مخطيء ، له اجر على اجتهاده وخطؤه مغفور .

واراد الشيخ رحمه الله بقوله : « ولا نقول : لا يضر مع الايمان ذنب » مخالفة المرجئة ، وشبهتهم كانت قد وقعت لبعض الاولين ، فاتفق الصحابة على قتلهم ان لم يتوبوا من ذلك ، فان قدامة بن عبد الله شرب الخمر بعد تحريمها ، هو وطائفة ، وتأولوا قوله تعالى : (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ اِذَا مَا طَعَمُوا) إِذَا مَا أَتَقَرَّوْا ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (٩٢ / المائدة .

فلما ذكروا ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : اتفق هو وعلي بن ابي طالب رضي الله عنه ، وسائر الصحابة ، على انهم ان اعترفوا بالتحريم : جلدوا ، وان اصرروا على استحلالها : قتلوا . وقال عمر لقدامة : اما انك لو اتقيت وأمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر . وذلك ان هذه الآية نزلت بسبب ان الله سبحانه لما حرم الخمر - وكان تحريمها بعد وقعة احد - قال بعض الصحابة : فكيف باصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ؟ فانزل الله هذه الآية ، بيّن فيها ان من طعم الشيء في الحال التي لم يحرم فيها فلا جناح عليه اذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين ، كما كان من امر استقبال بيت المقدس .

ثم ان اولئك الذين فعلوا ذلك ايسوا من التوبة ، فكتب عمر الى قدامة يقول له : (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) ما ادري اي ذنبك اعظم ؟ استحلالك المحرم اولا ؟ ام يأسك

من رحمة الله ثانيا ؟

وهذا الذي اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين أئمة الاسلام .

● قال الطحاوي : (ونرجو للمحسنين من المؤمنين ان يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ، ولا نأمن عليهم ولا نشهد لهم بالجنة ، ونستغفر لمسيئتهم ، ونخاف عليهم ، ولا نقنطهم) .

وعلى المؤمن ان يعتقد هذا الذي قاله الشيخ رحمه الله في حق نفسه وحق غيره .

قال تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَّا رَبَّهُمْ أَلَيْسَ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) ٥٧ / الاسراء .

وفي مسند احمد وجامع الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : (الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) : هو الذي يزني ويشرب الخمر ويسكر ؟ قال : « لا يا ابنة الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويصدق ، ويخاف ان لا يقبل منه » .

قال الحسن البصري رحمه الله : عملوا - والله - بالطاعات واجتهدوا فيها ، وخافوا ان تُردَّ عليهم . ان المؤمن جمع احسانا وخشية ، والمنافق جمع اساءة وامنا .

وقد اختلفت عبارات العلماء في الفرق بين الكبائر والصغائر ، ولكن ثم امر ينبغي التفطن له ، وهو : ان الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر . وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر ، وهذا امر مرجعه الى ما يقوم بالقلب ، وهو قدر زائد على مجرد الفعل ، والانسان يعرف ذلك من نفسه وغيره .

وايضا : فانه قد يعفى لصاحب الاحسان العظيم ما لا يعفى لغيره ، فان فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة اسباب ، عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة .

السبب الاول : التوبة . والتوبة النصوح - وهي الخالصة - لا يختص بها ذنب دون ذنب . لكن هل تتوقف صحتها على ان تكون عامة ؟ حتى لو تاب من ذنب واصر على آخر لا تقبل ؟ الصحيح انها تقبل .

السبب الثاني : الاستغفار . قال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) ٢٣ / الانفال .

السبب الثالث : الحسنات ، فان الحسنات عشرة امثالها ، والسيئة بمثلها ، فالويل لمن غلبت احاده عشراة .

قال الله تعالى : (اِنَّ الْحَسَنَاتِ يُعْجِلْنَ لِلْاِنْسَانِ اِلَهًا) ١١٤ / هود .
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » .

السبب الرابع : المصائب الدنيوية . قال صلى الله عليه وسلم : « مَا يَصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ ، وَلَا غَمٍّ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ - حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكَّهَا - إِلَّا كُفِّرَ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » .

فالمصائب نفسها مكفرة ، وبالصبر عليها : يثاب العبد ، وبالسخط يآثم .
السبب السادس : دعاء المؤمنين واستغفارهم للمذنب ، في حياته وبعد مماته .

السبب السابع : ما يُهدى اليه بعد الموت ، من ثواب صدقة او قراءة او حج ، ونحو ذلك .

السبب الثامن : احوال يوم القيامة وشدائده .

السبب التاسع : ما ثبت في الصحيحين : ان المؤمنين اذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتصر لبعضهم من بعض ، فاذا هذبوا ونقوا : اذن لهم في دخول الجنة .

السبب العاشر : شفاعة الشافعين .

السبب الحادي عشر : عفو ارحم الراحمين من غير شفاعة ، كما قال تعالى : (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) ٤٨ / النساء .

فان كان ممن لم يشأ الله ان يغفر له ، لعظم جُرمه ، فلا بُد من دخوله الكير ، ليخلص طيباً ايمانه من خبث معاصيه ، فلا يبقى في النار من في قلبه ادنى مثقال ذرة من ايمان ، بل من قال : لا اله الا الله ، كما في حديث انس رضي الله عنه . واذا كان الامر كذلك : امتنع القطع لاحد معين من الامة ، غير من شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ولكن نرجو للمحسنين ، ونخاف عليهم .

● قال : (والامن والياس سبيلان عن امة الاسلام ، وسبيل الحق بينهما لاهل القبلة) .

اي يجب ان يكون العبد خائفا راجيا ، فان الخوف المحمود الصادق : ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ، فاذا تجاوز ذلك : خيف منه اليأس والقنوط .

والرجاء المحمود : رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله ، فهو راج لثوابه . او رجل اذنب ذنبا ثم تاب منه الى الله ، فهو راج لمغفرته .

قال الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) ٢١٨ / البقرة .

اما اذا كان الرجل متماديا في التفريط والخطايا ، يرجو رحمة الله بلا عمل ، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب .

قال ابو علي الروذباري رحمه الله : الخوف والرجاء كجناحي الطائر : اذا استويا : استوى الطير وتم طيرانه ، واذا نقص احدهما : وقع فيه النقص ، واذا ذهب : صار الطائر في حد الموت .

وقد مدح الله اهل الخوف والرجاء بقوله :

(اَمَّنْ مَّقْنَتُ ءَانَاءِ اَلْبَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ اَلْآثِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) ٩ / الزمر .
فالرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان امنا . والخوف يستلزم الرجاء ولولا ذلك لكان قنوطا ويأسا .

● قال : (ولا يخرج العبد من الايمان الا بجحود ما ادخله فيه) .

ويشير الشيخ بهذا الى الرد على الخوارج والمعتزلة في قولهم بخروجه من الايمان بارتكاب الكبيرة .

● قال : (والايمان : هو الاقرار باللسان ، والتصديق بالجنان .
وجميع ما صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشرع والبيان كله حق . والايمان واحد ، واهله في اصله سواء ، والتفاضل بينهم بالخشية والتقوى ، ومخالفة الهوى ، وملازمة الاولى) .

وقد اختلف الناس فيما يقع عليه اسم « الايمان » فذهب مالك والشافعي واحمد والاوزاعي واسحاق بن راهويه وسائر اهل الحديث واهل المدينة واهل الظاهر وجماعة من المتكلمين : الى انه تصديق بالجنان ، واقرار باللسان ، وعمل بالاركان . وذهب كثير من اصحابنا الى ما ذكره الطحاوي : انه الاقرار باللسان ، والتصديق بالجنان .

وذهب الكرامية الى ان الايمان هو الاقرار باللسان فقط ، فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملو الايمان ، لكن يقولون بانهم يستحقون الوعيد الذي اوعدهم الله به . وقولهم ظاهر الفساد .

وذهب الجهم بن صفوان الى ان الايمان هو المعرفة بالقلب . وهذا القول اظهر فسادا مما قبله ، فان لازمه ان فرعون وقومه كانوا مؤمنين ، فانهم عرفوا صدق موسى وهارون ، ولم يؤمنوا بهما ، ولهذا قال موسى لفرعون :

(لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَزَلُ مِنْ لَدُنْكَ لَآ إِلَهَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاحِرٍ) ١٠٢ / الاسراء .

وحاصل الكل يرجع الى ان الايمان اما ان يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، كما ذهب اليه جمهور السلف من الائمة الثلاثة وغيرهم ، كما تقدم ، او بالقلب واللسان دون الجوارح ، كما ذكره الطحاوي عن ابي حنيفة واصحابه رحمهم الله .

والاختلاف الذي بين ابي حنيفة والائمة الباقيين من اهل السنة : اختلاف صوري ، فان كون اعمال الجوارح لازمة لايمان القلب ، او جزءا من الايمان ، مع الاتفاق على ان مرتكب الكبيرة لا يخرج من الايمان ، بل هو في مشيئة الله ، ان شاء عذبه ، وان شاء عفا عنه : نزاع لفظي ، لا يترتب عليه فساد اعتقاد .

والقائلون بتكفير تارك الصلاة ضموا الى هذا الاصل ادلة اخرى ، والا فقد نفى النبي صلى الله عليه وسلم الايمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر ، ولم يوجب زوال اسم الايمان عنهم بالكلية . اتفاقا . ولا خلاف بين اهل السنة ان الله تعالى اراد من العباد القول والعمل . والقول : التصديق بالقلب والاقرار باللسان ، وهذا الذي يعنى به عند اطلاق قولهم : « الايمان قول وعمل » ، لكن هذا المطلوب من العباد : هل يشمله اسم الايمان ؟ ام الايمان احدهما ، وهو القول وحده ، والعمل مغاير له لا يشمله اسم الايمان عند افراده بالذكر ، وان اطلق عليهما كان مجازا ؟ هذا محل النزاع .

وقد اجمعوا على انه لو صدق بقلبه واقر بلسانه وامتنع عن العمل بجوارحه : انه عاص لله ورسوله ، مستحق للوعيد .

ولهذا - والله اعلم - قال الشيخ رحمه الله : « واهله في اصله سواء »
 يشير الى ان التساوي انما هو في اصله ، ولا يلزم منه التساوي من كل وجه ، بل
 تفاوت درجات نور « لا اله الا الله » في قلوب اهلها لا يحصيها الا الله تعالى .
 فمن الناس من نور « لا اله الا الله » في قلبه كالشمس . ومنهم من نورها في قلبه
 كالنجم الدُّرِّي ، وآخر كالشمس العظيم ، وآخر كالسراج المضيء ، وآخر
 كالسراج الضعيف . ولهذا تظهر الانوار يوم القيامة بايمانهم وبين ايديهم على
 هذا المقدار ، بحسب ما في قلوبهم من نور الايمان والتوحيد ، علما وعملا ،
 وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم : احرق من الشبهات والشهوات بحسب
 قوته .

والادلة على زيادة الايمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية
 كثيرة جدا .

منها قوله تعالى : (وَإِذَا تُلِيتَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) ٢ / الانفال .

وقوله سبحانه : (وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا) ٣١ / المدثر .

وقوله عز وجل :

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السُّكُوتَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) ٤ / الفتح .

وقد اخبر النبي صلى الله عليه وسلم انه يخرج من النار من في قلبه ادنى
 ادنى مثقال ذرة من ايمان .

فكيف يقال بعد هذا : ان ايمان اهل السموات والارض سواء وانما
 التفاضل بينهم بمعان آخر غير الايمان ؟

وكلام الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى كثير ايضا ، وكان عمر رضي
 الله عنه يقول لاصحابه : هلموا نزداد ايمانا . وكان عبد الله بن مسعود رضي
 الله عنه يقول في دعائه : اللهم زدنا ايمانا وبقينا وفقها . وكان معاذ بن جبل
 رضي الله عنه يقول للرجل من اصحابه : اجلس بنا نوؤمن ساعة .

واما كون الاعمال داخلة في الايمان فذلك مدلول نصوص كثيرة ، ففي
 الصحيح قول النبي صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس : « امركم بالايمان
 بالله وحده . اقدرون ما الايمان بالله ؟ شهادة ان لا اله الا الله وحده لا
 شريك له ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وان تؤدوا الخمس من المغنم » .
 ومعلوم انه لم يُرد ان هذه الاعمال تكون ايمانا بالله بدون ايمان القلب ، لما قد
 اخبر في مواضع انه لا بد من ايمان القلب ، فعلم ان هذه مع ايمان القلب هو
 الايمان . واي دليل على ان الاعمال داخلة في معنى « الايمان » فوق هذا

الدليل ؟ للعلم بأنه فسر الايمان بالاعمال ، ولم يذكر التصديق ، للعلم بان هذه الاعمال لا تفيد مع الجحود .

وقوله : « وجميع ما صبح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشرع والبيان كله حق » . يشير الى الرد على الجهمية والمعتزلة القائلين بان الاخبار قسمان : متواتر وأحاد ، فالمتواتر - وان كان قطعي السند - لكنه غير قطعي الدلالة ، فان الادلة اللفظية لا تفيد اليقين ! ولهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصفات . قالوا : والآحاد لا تفيد العلم ، ولا يحتج بها ، لا من جهة سندها ولا من جهة متنها ، فسَدُّوا على القلوب معرفة الرب تعالى واسمائه وصفاته وافعاله من جهة الرسول ، واحالوا الناس على قضايا وهمية ومقدمات خيالية .

وطريق اهل السنة : ان لا يعدلوا عن النص الصحيح ولا يعارضوه بمعقول ، ولا قول فلان ، كما اشار الشيخ رحمه الله .

قال البخاري رحمه الله : سمعت الحُمَيْدِي يقول : كنا عند الشافعي رحمه الله ، فاتاه رجل فسأله عن مسألة ، فقال : قضى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا . فقال رجل للشافعي : ما تقول انت ؟ فقال : سبحان الله ! تراني في كنيسة ، تراني في بيعة ، تراني على وسطي زنار ؟ اقول لك : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانت تقول : ما تقول انت ؟

وخبر الواحد اذا تلقته الامة بالقبول : عملا به وتصديقاله : يفيد العلم اليقيني عند جماهير الامة ، وهو احد قسمي المتواتر . ولم يكن بين سلف الامة في ذلك نزاع ، كخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « انما الاعمال بالنيات » وخبر ابي هريرة : « لا تفكح المرأة على عمتها ولا على خالتها » . وخبر : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النفس » وامثال ذلك وهو نظير خبر الذي اتى مسجد قباء واخبر ان القبلة تحولت الى الكعبة ، فاستداروا اليها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل رسلا واحادا ، ويرسل كتبه مع الاحاد ، ولم يكن المرسل اليهم يقولون : لا نقبله لأنه خبر واحد .

ولهذا فضح الله من كذب على رسوله في حياته وبعد وفاته ، وبين حاله للناس . قال سفيان بن عُيَيْنَةَ : ما ستر الله احدا يكذب في الحديث : وقال عبد الله بن المبارك : لو هم رجل في البحر ان يكذب في الحديث لأصبح والناس يقولون : فلان كذاب .

وخبر الواحد - وان كان يحتمل الصدق والكذب - ولكن التفريق بين صحيح الاخبار وسقيمها لا يناله احد الا بعد ان يكون معظم اوقاته مشتغلا بالحديث ، والبحث عن سير الرواة ، ليقف على احوالهم واقوالهم ، وشدة

حذرهم من الطغيان والزلل ، وكانوا بحيث لو قُتلوا لم يسامحوا احدا في كلمة يتقولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا فعلوا هم بانفسهم ذلك ، وقد نقلوا هذا الدين الينا كما نقل اليهم ، فهم عصابة الايمان ، وهم نقاد الاخبار ، وصيارفة الحديث .

ولكن النُفَاة قد جعلوا قوله تعالى : (ليس كمثله شيء) مستندا لهم في رد الاحاديث الصحيحة ، فكلما جاءهم حديث يخالف قواعدهم وآراءهم : وما وضعته خواطيرهم وافكارهم : ردّوه بـ (ليس كمثله شيء) تلبيسا على من هو اعمى منهم قلبا ، وتحريفا لمعنى الآية عن مواضعه ، ففهموا من اخبار الصفات ، ما لم يرد به الله ولا رسوله ، ولا فهمه احد من ائمة الاسلام ، انه يقتضي اثباتها التمثيل بما للمخلوقين . ثم استدلوا على بطلان ذلك بـ (ليس كمثله شيء) تحريفا للنصين .

ويشير الشيخ رحمه الله بقوله : « من الشرع والبيان » الى ان ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم نوعان : شرع ابتدائي وبيان لما شرعه الله في كتابه العزيز ، وجميع ذلك حق واجب الاتباع .

● قال : (والمؤمنون كلهم اولياء الرحمن) ..

وذلك قول الله تعالى : (**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾**) ١٧/يونس .

والولي : من « الولاية » بفتح الواو ، التي هي ضد العداوة ، وقد قرأ حمزة : (ما لكم من ولايتهم من شيء) بكسر الواو ، والباقون بفتحها . وقيل : هما لغتان . وقيل بالفتح : النصر ، وبالكسر : الامارة . قال الزجاج : وجاز الكسر ، لان في تولي بعض القوم بعضا جنسا من الصناعة والعمل ، وكل ما كان كذلك : مكسور ، مثل : « الخياطة » ونحوها .

فالمؤمنون اولياء الله ، والله تعالى وليهم .

قال تعالى : (**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١٩﴾**) ١٩/محمد .

وقال تعالى : (**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٢١﴾**) ٢٠ و ٢١/المائدة .

فهذه النصوص كلها ثبت فيها موالات المؤمنين بعضهم لبعض ، وانهم اولياء الله ، وان الله وليهم ومولاهم ، ومن عادى له وليا فقد بارزه بالمحاربة ،

وهذه الولاية من رحمته واحسانه ، ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجته اليه
قال تعالى : (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ
فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَثِيرٌ مِّنْ تَكْبِيرًا) ١١١ / الاسراء .

فالله تعالى ليس له ولي من الذل ، بل لله العزة جميعا ، خلاف الملوك
وغيرهم ممن يتولى الاولياء لذله وحاجته الى من ينصره . والولاية ايضا نظير
الايمان ، فيكون مراد الشيخ : ان اهلها في اصلها سواء ، وتكون كاملة
وناقصة ، فالكاملة تكون للمؤمنين المتقين ، كما قال تعالى :

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٤﴾
لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ بَٰرِعِينَ ۖ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

وتجتمع في المؤمن ولاية من وجه ، وعداوة من وجه ، كما قد يكون فيه كفر
وايمان ، وشرك وتوحيد ، وتقوى وفجور ، ونفاق وايمان .

قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن
كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا حدث
كذب ، واذا وعد اخلف ، واذا خاصم فجر » .

فالطاعات من شعب الايمان ، والمعاصي من شعب الكفر ، وان كان رأس
شعب الكفر الجحود ، ورأس شعب الايمان التصديق .

● قال : (واكرمهم عند الله : اطوعهم واتبعهم للقرآن)

اراد : اكرم المؤمنين هو الاطوع لله ، والاتباع للقرآن ، وهو الاتقى ،
والاتبقى هو الاكرم .

قال تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتَقَرُّ) ١٣ / الحجرات .

وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « لا فضل لعربي على
عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لابيض على اسود ، ولا لاسود على
ابيض ، الا بالتقوى . الناس من آدم ، وادم من تراب » .

وبهذا الدليل يظهر ضعف تنازعهم في مسألة الفقير الصابر والغني
الشاكر ، وترجيح احدهما على الآخر ، وان التحقيق : ان التفضيل لا يرجع الى
ذات الفقر والغنى ، وانما يرجع الى الاعمال والاحوال ، فان التفضيل عند الله
بالتقوى وحقائق الايمان ، لا بفقر ولا غنى . ولهذا - والله اعلم - قال عمر
رضي الله عنه : الفقر والغنى مطيتان ، لا أبالي ايهما ركبت .

● قال : (والايमान : هو الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر ، خيره وشره ، وحلوه ومُرّه ، من الله تعالى) .

وقد تقدم ان هذه الخصال هي اصول الدين ، وبها اجاب النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المشهور المتفق على صحته ، حين جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم على صورة رجل اعرابي وسأله عن الاسلام والايमान والاحسان .

والكتاب والسنة معلوءان بما يدل على ان المرء لا يثبت له حكم الايمان الا بالعمل مع التصديق ، وهذا اكثر من معنى الصلاة والزكاة ، فان تلك انما فسرتها السنة ، والايमान بين معناه الكتاب والسنة .

فمن الكتاب قوله تعالى :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ) ٢ / الانفال .

وقوله تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُعْصِمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا

يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ رَجْأً مِمَّا قُضِيَتْ فِيهِمْ) ٦٥ / النساء .

فنفي الايمان حتى توجد هذه الغاية : دل على ان هذه الغاية فرض على الناس ، فمن تركها كان من اهل الوعيد ولم يكن قد اتى بالايमान الواجب .

ومما يُسأل عنه : انه اذا كان ما اوجبه الله من الاعمال الظاهرة اكثر من الخصال الخمس التي اجاب بها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المذكور ، فلم قال : ان الاسلام هذه الخصال الخمس ؟

وقد اجاب بعض الناس بان هذه اظهر شعائر الاسلام واعظمها ، وبقيامه بها يتم استسلامه ، وتركه لها يُشعر بانحلال قياده .

والتحقيق : ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقا ، الذي يجب لله على عباده ، على كل من كان قادرا عليه ، وهذه هي الخمس ، وما سوى ذلك فانما يجب باسباب ومصالح ، فلا يعم وجوبها جميع الناس ، بل اما ان يكون فرضا على الكفاية ، كالجهاد ، والامر بالمعروف ، وما يتبع ذلك من امارة وحكم ، وقتيا ، وإقراء ، وتحديث وغير ذلك . واما ما يجب بسبب حق آدميين ، فيختص به من وجب له وعليه ، وقد يسقط باسقاطه ، من قضاء الديون ، ورد الامانات ، والانصاف من المظالم ، من الدماء والاموال والاعراض ، وحقوق الزوجة والاولاد ، وصلة الارحام ، ونحو ذلك ، فان الواجب من ذلك على زيد غير الواجب على عمرو ، بخلاف صوم

رمضان وحج البيت والصلوات الخمس والزكاة .

وقوله : « وبالقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالى » : موافق لقوله تعالى : (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) ٥١ / التوبة .

وقال تعالى : (وَإِنْ تُصِيبِهِمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قُلْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكْادُونَ بِفَقْهٍ حَدِيثٍ) ٧٨ / النساء .

وقال سبحانه :

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) ٧٩ / النساء .
فان قيل : كيف وجه الجمع بين قوله : (كل من عند الله) وبين قوله : « فمن نفسك » ؟

قيل : قوله : « كل من عند الله » الخصب والجذب ، والنصر والهزيمة ، كلها من عند الله ، وقوله : « فمن نفسك » : اي ما اصابك من سيئة من الله فيذبذب نفسك عقوبة لك ، كما قال تعالى :

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنتُمْ آيْدِكُمْ) ٣٠ / الشورى .

يدل على ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قرأ : (وما اصابك من سيئة فمن نفسك) وانا كتبتها عليك .

والمراد بالحسنة هنا : النعمة ، وبالسيسة : البلية ، في اصح الاقوال .
وقد قيل : الحسنة : الطاعة ، والسيسة : المعصية .

وفي قوله : « فمن نفسك » من الفوائد : ان العبد لا يطمئن الى نفسه ولا يسكن اليها ، فان الشركامن فيها ، لا يجيء الا منها ، ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم اذا اساءوا اليه ، فان ذلك من السيئات التي اصابته ، وهي انما اصابته بذنوبه ، فيرجع الى الذنوب ، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويسأل الله ان يعينه على طاعته ، فبذلك يحصل له كل خير ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان انفع الدعاء واعظمه واحكمه دعاء الفاتحة : (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ٥ - ٧ / الفاتحة .

فانه اذا هداه هذا الصراط : اعانه على طاعته وترك معصيته ، فلم يصبه شر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، لكن الذنوب هي لوازم نفس الانسان ، وهو محتاج الى الهدى كل لحظة ، وهو الى الهدى احوج منه الى الطعام والشراب .

ليس كما يقوله بعض المفسرين : انه قد هداه ، فلماذا يسأل الهدى ؟ وان المراد التثبيت او مزيد الهداية ! بل العبد محتاج الى ان يعلمه الله ما يفعله من تفاصيل احواله ، والى ما يتركه من تفاصيل الامور ، في كل يوم ، والى ان يلهمه ان يعمل ذلك ، فانه لا يكفي مجرد علمه ان لم يجعله مريدا للعمل بما يعلمه ، وإلا كان حُجَّة عليه ، ولم يكن مهتديا . ومحتاج الى ان يجعله قادرا على العمل بتلك الارادة الصالحة ، فان المجهول لنا من الحق اضعاف المعلوم ، وما لا نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده او اكثر منه او دونه ، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك ، وما نعرف جعلته ولا نهتدي لتفاصيله فامر يفوت الحصر ، ونحن محتاجون الى الهداية التامة . فمن كملت له هذه الامور كان سؤاله سؤال تثبيت ، وهي آخر الرتب ، وبعد ذلك كله هداية اخرى ، وهي الهداية الى طريق الجنة في الآخرة ، ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة .

وهذه الامور كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمعها في الصلاة كما ثبت عنه في الصحيح ، انه اذا كان رفع رأسه من الركوع يقول : « ربنا لك الحمد ، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، ملء السموات ، وملء الارض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اهل الثناء والمجد ، احق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد » . فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى ، وبيان ان حمده احق ما قاله العبد . ثم يقول بعد ذلك : « لا مانع لما اعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » . وهذا تحقيق لوحدانيتها ، لتوحيد الربوبية ، خلقا وقدرًا ، وبداية ونهاية ، وهو المعطي المانع ، لا مانع لما اعطى ، ولا معطي لما منع ، وتوحيد الالهية ، شرعا وامرا ونهيا ، وان العباد وان كانوا يُعطون جدا ، مُلكا وعظمة ورياسة ، فلا ينفع ذا الجد منك الجد ، اي لا ينجيه ولا يخلصه ، ولهذا قال : لا ينفعه منك ، ولم يقل : لا ينفعه عندك .

ومن عرف هذا حق المعرفة ، انفتح له باب توحيد الله ، وعلم انه لا يستحق ان يسأل غيره فضلا عن ان يعبد غيره ، ولا يتوكل على غيره ولا يرجى غيره .

● قال : (ونحن مؤمنون بذلك كله ، لا نفرق بين احد من رسله ، ونصدقهم كلهم على ما جاءوا به) .

اي لا نفرق بينهم بان نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، بل نؤمن بهم ونصدقهم كلهم ، فان من آمن ببعض وكفر ببعض كافر بالكل . قال تعالى : (وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ

يَخْتِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿١٥١﴾ / النساء .

فان المعنى الذي لاجله آمن بمن آمن به منهم موجود في الذي لم يؤمنوا به ، وذلك الرسول الذي آمن به قد جاء بتصديق بقية المرسلين ، فاذا لم يؤمن ببعض المرسلين . كان كافرا بمن في زعمه انه يؤمن به ، لأن ذلك الرسول جاء بتصديق المرسلين كلهم .

● قال الطحاوي : (واهل الكبائر من امة محمد صلى الله عليه وسلم في النار لا يخلدون ، اذا ماتوا وهم موحدون ، وان لم يكونوا تائبين ، بعد ان لقوا الله عارفين ، وهم في مشيئته وحكمه ان شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضلله ، كما ذكر عز وجل في كتابه « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وان شاء عذبهم في النار بعدله ، ثم يخرجهم منها برحمته ، وشفاعة الشافعين من اهل طاعته ، ثم يبعثهم الى جنته ، ذلك بان الله تعالى مولى اهل معرفته ، ولم يجعلهم في الدارين كاهل نكرته ، الذين خابوا من هدايته ، ولم ينالوا من ولايته . اللهم يا ولي الاسلام واهله : ثبتنا على الاسلام حتى نلقاك به) . .

واصح تعريف للكبائر : انها ما يترتب عليها حد او تُوعَدُّ عليها بالنار او اللعنة او الغضب .

وامثل الاقوال في الصغائر : انها ما ليس فيها حد في الدنيا ولا وعيد في الآخرة .

والمراد بالوعيد : الوعيد الخاص بالنار او اللعنة او الغضب ، فان الوعيد الخاص في الآخرة كالعقوبة الخاصة في الدنيا ، اي المقدرة ، فالتعزير في الدنيا نظير الوعيد بغير النار او اللعنة او الغضب .

وهذه الضوابط يدخل فيها كل ما يثبت بالنص انه كبيرة ، كالشرك ، والقتل ، والزنا ، والسحر ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، ونحو ذلك ، كالفرار من الزحف ، واكل مال اليتيم ، واكل الربا ، وعقوق الوالدين ، واليمين الغموس ، وشهادة الزور ، وامثال ذلك .

وترجيح هذا التعريف من وجوه

احدها انه هو المأثور عن السلف ، كابن عباس ، وابن عيينة ، واحمد ابن حنبل وغيرهم .

الثاني ان الله تعالى قال

(إِن تَجْنِبُوا كِبَارَ مَا تُهَوَّنُ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا) ٢١ / النساء .
فلا يستحق هذا الوعد الكريم من اُوعِد بغضب الله ولعنته وناره .

الثالث . ان ممن لم يقل بهذا الضابط من قال ان الكبائر هي ما اتفقت الشرائع على تحريمه دون ما اختلفت فيه ، وليس هذا القول بصواب ، اذ ان ذلك يقتضي ان شرب الخمر ، والتزويج ببعض المحارم ، والمحرم بالرضاعة والصهرية ، ونحو ذلك ، ليس من الكبائر . وكذلك من قال ان الكبائر هي ما سد باب المعرفة بالله او كان فيه ذهاب الاموال والابدان ، اذ ان هذا يقتضي ان شرب الخمر واكل الخنزير والميتة ليس من الكبائر ، وهذا قول فاسد .

● قال : (ونرى الصلاة خلف كل برّ وفاجر من اهل القبلة ، وعلى من مات منهم) .

وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « صلوا خلف كل برّ وفاجر » .
رواه مكحول عن ابي هريرة رضي الله عنه ، واخرجه الدارقطني وقال : مكحول لم يلق ابا هريرة ، وفي اسناده معاوية بن صالح : مُتَكَلِّم فيه ، وقد احتج به مسلم في صحيحه (١) .

(١) الحديث رواه الدارقطني ص ١٨٥ مطولا . ورواه البيهقي في السالكين ١٩ / ١ من طريق الدارقطني . من رواية اس
وتعت حديثي معاوية بن صالح عن العلاء بن الحرث عن مكحول عن ابي هريرة . قال الدارقطني ، مكحول لم يسمع من ابي
هريرة ومن دونه ثقات . وقال البيهقي بعد كلام الدارقطني ، قد روى في الصلاة على كل بر وفاجر والصلاة على من قال لا اله الا
الله احاديث كلها في غاية الصنف . واضح ما روى في هذا الباب ، حديث مكحول عن ابي هريرة . وقد اخرجه ابو داود في كتاب
السكينة اي الحديث الذي سيذكره الشارح اس ابي المر هذا الا ان فيه ارسالا كما ذكر الدارقطني . وقد حققنا في شرح مسند
احمد في الحديث رقم ٥٧٢١ ان الكلام في معاوية بن صالح فيه تصف من غير حجة . وعلّة هذا الحديث والذي بعده هي الانقطاع
بين مكحول واهل هريرة كما قال الدارقطني والبيهقي . كنه احمد محمد شاكر

وخرّج الدارقطني ايضا وابوداود عن مكحول عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصلاة واجبة عليكم مع كل مسلم ، برّا كان او فاجرا ، وان عمل بالكبائر . والجهاد واجب عليكم مع كل امير ، برا كان او فاجرا ، وان عمل بالكبائر » .

وفي صحيح البخاري ان عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف الثقفي وكذا انس بن مالك ، وكان الحجاج فاسقا ظالما .

وفي صحيح البخاري ايضا ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يُصلون لكم ، فأن اصابوا فلکم ولهم ، وان اخطاوا فلکم وعليهم » .

واعلم - رحمك الله وايانا - انه يجوز للرجل ان يصلي خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقا ، باتفاق الائمة ، وليس من شرط الائتمام ان يعلم المأموم اعتقاد امامه ، ولا ان يمتحنه ، فيقول : ماذا تعتقد ؟ بل يصلي خلف مستور الحال . ولو صلى خلف مبتدع يدعو الى بدعته ، او فاسق ظاهر الفسق ، وهو الامام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة الا خلفه ، كامام الجمعة والعيدين ، والامام في صلاة الحج بعرفة ، ونحو ذلك ، فان المأموم يصلي خلفه عند عامة السلف والخلف ، ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الامام الفاجر ، فهو مبتدع

عند اكثر العلماء ، والصحيح انه يصليها ولا يعيدها ، فان الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الائمة الفجار ولا يعيدون ، كما كان عبد الله بن عمر يصلي خلف الحجاج ، وكذلك انس ، كما تقدم ، وكذلك عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه وغيره كانوا يصلون خلف الوليد بن عتبة بن ابي معيط ، وكان يشرب الخمر .

والفاسق والمبتدع صلاته في نفسها صحيحة ، فاذا صلى المأموم خلفه :
لم تبطل صلاته ، لكن انما كره من كره الصلاة خلفه لأن الامر بالمعروف والنهي
عن المنكر واجب .

ومن ذلك : ان من اظهر بدعة وفجورا : لا يُرْتَبُ اماما للمسلمين ، فانه
يستحق التعزير حتى يتوب ، فاذا امكن هجره حتى يتوب : كان حسنا ، واذا
كان بعض الناس اذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره اثر ذلك في انكار المنكر
حتى يتوب او يُعزَل او ينتهي الناس عن مثل ذنبه : كان في ذلك مصلحة شرعية
اذا لم يفت المأموم الجمعة ولا الجماعة . واما اذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت
المأموم الجمعة والجماعة : فهنا لا يترك الصلاة خلفه الا مبتدع مخالف
للسحابة رضي الله عنهم ، وكذلك اذا كان الامام قد رتب له ولاية الامور ، ليس في
ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية .

والخلاصة : ان الصلاة خلف الافضل : افضل ، فاذا امكن الانسان ان
لا يقدم مظهرا للمنكر في الامامة : وجب عليه ذلك ، لكن اذا ولاه غيره ، ولم
يمكنه صرفه عن الامامة ، او كان لا يتمكن من صرفه عن الامامة الا بشرّ اعظم
ضررا من ضرر ما اظهر من المنكر ، فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد
الكثير ، ولا دفع اخف الضررين بحصول اعظمهما ، فان الشرائع جاءت
بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاصد وتقليلها ، بحسب الامكان ،
وتفويت الجُمع والجماعات اعظم فسادا من الاقتداء فيهما بالامام الفاجر ، لا
سيما اذا كان التخلف عنها لا يدفع فجورا ، فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية
بدون دفع تلك المفسدة .

واما اذا امكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر ، فهذا اولى من فعلها
خلف الفاجر ، وحينئذ ، فاذا صلى خلف الفاجر من غير عذر ، فهو موضع
اجتهاد للعلماء ، منهم من قال : يعيد ، ومنهم من قال : لا يعيد .

واما الامام اذا نسي او اخطأ ، ولم يعلم المأموم بحاله ، فلا اعادة على
المأموم ، للحديث المتقدم ، وقد صلى عمر رضي الله عنه وغيره وهو جُنُب ناسيا ،
فاعاد الصلاة ، ولم يأمر المأمومين بالاعادة ، ولو علم ان امامه بعد فراغه كان
على غير طهارة ، اعاد عند ابي حنيفة ، خلافا لمالك والشافعي واحمد في المشهور
عنه . وكذلك لو فعل الامام ما لا يسوغ عند المأموم ، وفيه تفاصيل موضعها
كتب الفروع . ولو علم ان امامه يصلي على غير وضوء فليس له ان يصلي خلفه ،
لانه لا عيب ، وليس بمُصَلٍّ .

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة واجماع سلف الامة ان ولي الامر ، وامام الصلاة ، والحاكم ، وامير الحرب ، وعامل الصدقة : يطاع في مواضع الاجتهاد ، وليس عليه ان يطيع اتباعه في موارد الاجتهاد ، بل عليهم طاعته في ذلك ، وترك رأيهم لرأيه ، فان مصلحة الجماعة والائتلاف ، ومفسدة الفرقة والاختلاف : اعظم من امر المسائل الجزئية ، ولهذا لم يجز للحكام ان ينقض بعضهم حكم بعض ، والصواب المقطوع به : صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض .

والحديث الذي رواه البخاري ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُصَلُّونَ لَكُمْ ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ ، وَإِنْ أَخْطَاوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ » : نص صحيح صريح في ان الامام اذا اخطأ فخطؤه عليه ، لا على المأموم ، والمجتهد غايته انه اخطأ بترك واجب اعتقد انه ليس واجبا ، او فعل محظورا اعتقد انه ليس محظورا ، ولا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر ان يخالف هذا الحديث الصريح الصحيح بعد ان يبلغه ، وهو حجة على من يطلق من الحنفية والشافعية والحنبلية ان الامام اذا ترك ما يعتقد المأموم وجوبه : لم يصح الاقتداء به !! فان الاجتماع والائتلاف مما يجب رعايته وترك الخلاف المفضي الى الفساد .

وقوله : « وعلى من مات منهم » : اي : ونرى الصلاة على من مات من الابرار والفجار ، وان كان يستثنى من هذا العموم : البغاة وقطاع الطريق ، وكذا قاتل نفسه ، خلافا لابي يوسف ، لا الشهيد ، خلافا لمالك والشافعي رحمهما الله ، على ما عرف في موضعه ، لكن الشيخ انما ساق هذا لبيان اننا لا نترك الصلاة على من مات من اهل البدع والفجور ، لا للعموم الكلي ، ولكن الكلام لاهل الاسلام قسمان : اما مؤمن ، واما منافق ، فمن علم نفاقه : لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له ، ومن لم يعلم ذلك منه : صلى عليه . فاذا علم شخص نفاق شخص : لم يصل هو عليه ، وصلى عليه من لم يعلم نفاقه . وكان عمر رضي الله عنه لا يصلي على من لم يصل عليه حذيفة ، لأنه كان في غزوة تبوك قد عرف المنافقين ، وقد نهى الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقين ، واخبر انه لا يغفر لهم باستغفاره ، وعلم ذلك بكفرهم بالله ورسوله ، فمن كان مؤمنا بالله ورسوله : لم ينه عن الصلاة عليه ، ولو كان له من الذنوب الاعتقادية البدعية او العملية الفجورية ما له ، بل قد امره الله تعالى بالاستغفار للمؤمنين ، فقال تعالى :

(فَأَعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) ١٩ / محمد .

فالتوحيد اصل الدين ، والاستغفار عام وخاص ، اما العام فظاهر ، كما في هذه الآية ، واما الخاص : فالصلاة على الميت ، فما من مؤمن يموت الا وقد امر

المؤمنون ان يصلوا عليه صلاة الجنازة ، وهم مأمورون في صلاتهم عليه ان يدعوا له ، كما روى ابو داود وابن ماجه عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا صليتم على الميت فاخلصوا له الدعاء » .

● قال : (ولا ننزلُ احداً منهم جنة ولا نارا) .

ويريد بذلك انا لا نقول عن احد معين من اهل القبلة انه من اهل الجنة أو من اهل النار ، الا من اخبر الصادق صلى الله عليه وسلم انه من اهل الجنة ، كالعشرة رضي الله عنهم ، وان كنا نقول . انه لا بد ان يدخل النار من اهل الكبار من يشاء الله ادخاله النار ، ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين ، ولكننا نقف في الشخص المعين ، فلا نشهد له بجنة ولا نار ، الا عن علم ، لأن الحقيقة باطنة ، والحال التي يموت عليها كل شخص لا نحيط بها ، لكن نرجو للمحسنين ، ونخاف على المسيء .

وقد يشهد بالجنة لمن شهد له المؤمنون ، كما في الصحيحين انه : « مرَّ بجنازة ، فاثنوا عليها بخير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وَجِبَتْ . ومرَّ باخرى ، فاثني عليها بشر ، فقال : وَجِبَتْ » وفي رواية انه كبر « وَجِبَتْ » ثلاث مرات ، « فقال عمر : يا رسول الله : ما وَجِبَتْ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا اثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، وهذا اثنيتم عليه شراً وجبت له النار ، انتم شهداء الله في الارض » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « توشكون ان تعلموا اهل الجنة من اهل النار . قالوا : يم يا رسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن والثناء السيء » فاخبر ان ذلك مما يُعلم به اهل الجنة واهل النار .

● قال : (ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك ، ونذُرُ سرائرهم الى الله تعالى) .

لأننا قد أمرنا بالحكم بالظاهر ، ونهينا عن الظن واتباع ما ليس لنا به علم . قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) ١٢ / الحجرات .

● قال : (ولا نرى القتل على احد من امة محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا مَنْ وَجِبَ عليه السيف) .

ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ان لا اله الا الله واني رسول الله الا باحدى ثلاث :

الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة .

● قال : (ولا نرى الخروج على ائمتنا وولاة امورنا ، وان جاروا ، ولا ندعو عليهم ، ولا ننزع يدا من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ، ما لم يأمرُوا بمعصية ، وندعو لهم بالصلاح والمعافة) .

وذلك لقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ) ٥٩ / النساء .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال . « من اطاعني فقد اطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله . ومن يطع الامير فقد اطاعني ، ومن عصى الامير فقد عصاني » .

وعن ابي ذر رضي الله عنه : « ان خليلي اوصاني ان اسمع واطيع وان كان عبدا حبشيا مجدع الاطراف » .

وفي الصحيحين : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما احب وكره ، الا ان يؤمر بمعصية ، فان امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خيار ائمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار ائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم . فقلنا : يا رسول الله ، افلا نناذبهم بالسيف عند ذلك ؟ قال : لا ، ما اقاموا فيكم الصلاة ، الا من ولي عليه وال ؛ فراه يأتي شيئا من معصية الله ، فليكره ما يأتي من معصية الله ، ولا ينزع يدا من طاعة » .

فقد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة اولي الامر ، ما لم يأمرُوا بمعصية .

وتأمل قوله تعالى : (اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم) كيف قال : واطيعوا الرسول ، ولم يقل : واطيعوا اولي الامر منكم !! لأن اولي الامر لا يفردون بالطاعة ، بل يُطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله .

واما لزوم طاعتهم وان جاروا فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفساد اضعاف ما يحصل من جورهم ، بل في الصبر على جورهم بدهير السيئات ومضاعفة الاجور ، فان الله تعالى ما سلطهم علينا الا لفساد اعمالنا ،

والجزء من جنس العمل ، فعلينا الاجتهاد بالاستغفار والتوبة واصلاح العمل (١) .

● قال : (ونتبع السنة والجماعة ، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة) .

والسنة : طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم . والجماعة : المسلمون ، وهم الصحابة والتابعون لهم باحسان الى يوم الدين ، فاتباعهم هدى ، وخلافهم ضلال .

وثبت في السنن الحديث الذي صححه الترمذي ، عن العرياض بن سارية قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مودّع ؟ فماذا تعهد إلينا ؟ قال : « أوصيكم بالسمع والطاعة ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها ، وعصّوا عليها بالنواجز ، وإياكم ومحدثات الامور ، فإن كل بدعة ضلالة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ان اهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وان هذه الامة ستفترق على ثلاثة وسبعين ملة ، يعني : الأهواء ، كلها في النار الا واحدة ، وهي الجماعة » وفي رواية : قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : « ما انا عليه واصحابي » . فبين صلى الله عليه وسلم ان عامة المختلفين هالكون من الجانبين ، الا اهل السنة والجماعة .

وما احسن قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال : مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَتًّا فَلَيْسَتْ بِمَنْ قَدْ مَاتَ ، فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمِنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ . اولئك اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا افضل هذه الامة ، ابرها قلوبا ، واعمقها علما ، واقلها تكلفا . قوم اختارهم الله لصحبة نبيه واقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من اخلاقهم ودينهم ، فانهم كانوا على الهدى المستقيم .

(١) هذا في الحاكم المسلم الذي يحكم بالشرعية ولكن فيه نوع ظلم ، اذا جاء الى الحكم ببيعة شرعية ، اهل الحل والعقد ، واما الذي تحل قوانينه الحرام وتحرم الحلال فان هذه النصوص لا تشملها ، بل يشملها قوله الطحاوي والشارح انفا فيمن لا يحكم بما انزل الله .

● قال الطحاوي : (ونحب اهل العدل والامانة ، ونبغض اهل الجور والخيانة) .

وهذا من كمال الايمان وتمام العبودية ، فان العبادة تتضمن كمال المحبة ونهايتها ، وكمال الذل ونهايته . فمحبة رسل الله وانبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله ، وان كانت المحبة لا يستحقها غيره ، فغير الله يُحِبُّ في الله ، لا مع الله ، فان المحب يحب ما يحب محبوبه ، ويبغض ما يبغض ، ويوالي من يواليه ، ويعادي من يعاديه ، ويرضى لرضائه ، ويبغض لبغضه ، ويأمر بما يأمر به ، وينهى عما ينهى عنه ، فهو موافق لمحبوبه في كل حال . والله تعالى يحب المحسنين ، ويحب المتقين ، ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ونحن نحب من يحبه الله ، والله لا يحب الخائنين ، ولا يحب المفسدين ، ولا يحب المستكبرين ، ونحن لا نحبهم ايضا ، ونبغضهم ، موافقة له سبحانه وتعالى .

● قال رحمه الله : (ونقول : « الله اعلم » فيما اشتبه علينا عامه) .

وقد تقدم في كلام الشيخ رحمه الله انه ما سلم في دينه الا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ورد علم ما اشتبه عليه الى عالمه .

وقال تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا كُنَّ يَنْزِلُ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ٢٢ / الاعراف .
وقد امر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ان يُرَدَّ علم ما لم يعلم اليه ، فقال تعالى : (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ٢٦ / الكهف .
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن اطفال المشركين : « الله اعلم بما كانوا عاملين » .

● قال : (ونرى المسح على الخفين ، في السفر والحضر ، كما جاء في الاثر) .

فقد تواترت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسح على الخفين ، ويغسل الرجلين ، والرافضة تخالف هذه السنة المتواترة .

وفي آية الوضوء قراعتان مشهورتان : النصب والخفض ،

وتوجيه اعرابهما مبسوط في موضعه ، وقراءة النصب نص في وجوب الغسل ، لأن العطف على المحل انما يكون اذا كان المعنى واحدا .

● قال : (والحج والجهاد ماضيان مع اولى الامر من المسلمين ، برّهم وفاجرهم ، الى قيام الساعة ، لا يبطلها شيء ولا ينقضها) .

لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر ، فلا بد من سائس يسوس فيهما ، ويقاوم فيها هذا العدو ، وهذا المعنى كما يحصل بالامام البر : يحصل بالامام الفاجر .

● قال : (ونؤمن بالكرام الكاتبين ، فان الله قد جعلهم علينا حافظين) .

فقد قال تعالى : (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَتِبَ لَهُمْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ يُغَيِّطُ السَّحَابَ وَتُتَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ رُفُودًا ۝ يُصَلُّونَ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالْقُنُودَ ۝ يُخَوِّفُونَ نَارًا تَتَرَدَّدُ ۝ يَتَذَكَّرُونَ أَنْ يَخْلَوْا ۝ يَكُونُونَ لَهَا بِرًا ۝ يُحِبُّونَ مَا رَزَقُوا مِنْهُ ۝ وَنُفُوسُهُمْ فِي أَرْجَاهُمْ ۝ يَدْعُونَ بِالنَّارِ أَنْ يَحْمَلَ ظَنَابَهُمْ ۝ يَخْشَوْنَ الْعَذَابَ ۝ يَخْتَفُونَ هُنَا وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ عَنَتِهِمْ لِمَنْ لَمْ يَأْتِ الْبَأْسَ ۝ وَبَعْضٌ لِّبَعْضٍ يَكْتُمُونَ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَمَسُّهُمُ الْبَأْسُ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَمَسُّهُمُ الْبَأْسُ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَمَسُّهُمُ الْبَأْسُ ۝) ١٠ و ١١ و ١٢ / الانفطار .

وقال سبحانه : (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝) ١٧ و ١٨ / ق .

وقال عز وجل : (أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) ٨٠ / الزخرف .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد اليه الذين كانوا فيكم ، فيسألهم - والله اعلم بهم - : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : اتيناهم وهم يصلون ، وفارقناهم وهم يصلون » .

وقد ثبت بالنصوص المذكورة ان الملائكة تكتب القول والفعل ، وكذلك النية ، لانها فعل القلب ، فدخلت في عموم (يعلمون ما تفعلون) . ويشهد لذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : اذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فان عملها فاكتبوها عليه سيئة . واذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فان عملها فاكتبوها عشرا » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قالت الملائكة : ذاك عبد يريد ان يعمل سيئة ، وهو ابصر به . فقال : ارقبوه ، فان عملها فاكتبوها بمثلها ، وان تركها فاكتبوها له حسنة ، انما تركها من جرائي » . خرجاها في الصحيحين ، واللفظ لمسلم .

● قال : (ونؤمن بملك الموت ، الموكل بقبض ارواح العالمين) .

فقد قال تعالى

(قُلْ يَتَوَقَّعُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرْتُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تَرْجِعُونَ) ١١ / السجدة .

ولا تعارض هذه الآية قوله تعالى

(حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) ٦١ / الانعام

ولا قوله تعالى : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِنْكَ أَلَّتِي قَضَىٰ

عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) ٤٢ / الزمر .

لأن ملك الموت يتولى قبضها واستخراجها ، ثم تأخذها منه ملائكة الرحمة او ملائكة العذاب ويتولونها بعده ، كل ذلك باذن الله وقضائه وقدره ، وحكمه وامره ، فصحت اضافة التوفي الى كل بحسبه .

● قال ابو جعفر : (وبعباب القبر لمن كان له اهلا ، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه ، على ما جاءت به الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الصحابة رضوان الله عليهم . والقبر روضة من رياض الجنة ، او حفرة من حفر النيران) .

ومصداق ذلك ما رواه البخاري رحمه الله عن انس رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « العبد اذا وُضع في قبره وتَوَلَّى وذهب اصحابه حتى انه ليسمع قرع نعالهم : اتاه ملكان فاقعداه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ، محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فيقول : اشهد انه عبد الله ورسوله ، فيقال : انظر الى مقعدك من النار ابدلك الله به مقعدا من الجنة . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فيراهما جميعا . واما الكافر - او المنافق - فيقول : لا ادري ، كنت اقول ما يقول الناس . فيقال : لا دريت ولا تليت . ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين اذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه ، الا الثقلين » .

وقال قتادة روي لنا انه يفسح له في قبره وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم « انه مرّ بقبرين يعذبان ، فقال : انهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير . اما احدهما فكان لا يستتر من البول ، واما الآخر فكان يمشي بالنميمة . ثم اخذ جريدة رطبة ، فشققها بنصفين ، ثم غرز في كل قبر واحدة ، فقالوا : يا رسول الله ، لم صنعت هذا ؟ فقال : لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا » .

وقد تواترت الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبوت عذاب

القبر ونعيمه لمن كان لذلك اهلا ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والايمان به ، ولا يتكلم عن كيفيته ، اذ ليس للعقل وقوف على كيفيته ، لكونه لا عهد له به في هذا الدار ، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول ، ولكنه قد يأتي بما تحارفيه العقول ، فان عود الروح الى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تعاد الروح اليه اعادة غير الاعادة المألوفة في الدنيا .

وليس السؤال في القبر للروح وحدها ، كما قال ابن حزم وغيره ، وافسد منه قول من قال : انه للبدن بلا روح ، والاحاديث الصحيحة ترد القولين ، وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعا ، باتفاق اهل السنة والجماعة ، تنعم النفس وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به .

واعلم ان عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب : ناله نصيب منه ، قُبِرَ او لم يُقْبَر ، اكلته السباع او احترق حتى صار رمادا ونسف في الهواء ، او صلب او غرق في البحر ، وصل الى روحه وبدنه من العذاب ما يصل الى المقبور ، وما ورد من اجلاسه واختلاف اضلاعه ونحو ذلك فيجب ان يفهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم مراده عن غير غلو ولا تقصير ، فلا يُحْمَلُ كلامه ما لا يحتمله ، ولا يقصر به عن مراد ما قصده من الهدى والبيان ، فكم حصل باهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه الا الله ، بل سوء الفهم عن الله ورسوله اصل كل بدعة وضلالة نشأت في الاسلام ، وهو اصل كل خطأ في الفروع والاصول ، ولا سيما ان اضيف اليه سوء القصد ، والله المستعان .

فالحاصل : ان الدُور ثلاث : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . وقد جعل الله لكل دار احكاما تخصها ، وركب هذا الانسان من بدن ونفس ، وجعل احكام الدنيا على الابدان ، والارواح تبع لها . وجعل احكام البرزخ على الارواح ، والابدان تبع لها . فاذا جاء يوم حشر الاجساد وقيام الناس من قبورهم . صار الحكم والنعيم والعذاب على الارواح والاجساد جميعا . فاذا تأملت هذا المعنى حق التأمل : ظهر لك ان كون القبر روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النار : مطابق للعقل ، وانه حق لا مرية فيه ، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم .

ويجب ان يُعلم ان النار التي في القبر والنعيم ليست من جنس نار الدنيا ولا نعيمها ، وان كان الله تعالى يحمي عليه التراب والحجارة التي فوقه وتحتة حتى تكون اعظم حرا من جمر الدنيا ، ولو مسها اهل الدنيا . لم يحسوا بها . بل اعجب من هذا ان الرجلين يُدفن احدهما الى جنب صاحبه ، وهذا في حفرة من النار ، وهذا في روضة من رياض الجنة ، لا يصل من هذا الى جاره شيء من

حر ناره ، ولا من هذا الى جاره شيء من نعيمه . وقدرة الله اوسع من ذلك واعجب ، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما ، وقد ارانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو ابلغ من هذا بكثير واذا شاء الله ان يطلع على ذلك بعض عباده : اطلعه وغيبه عن غيره . ولو اطلع الله على ذلك العباد كلهم لزال حكمة التكليف والايمان بالغيب ، ولما تدافن الناس ، كما في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لولا ان لا تدافنوا لدعوتُ الله ان يسمعكم من عذاب القبر » .

وهل يدوم عذاب القبر او ينقطع ؟

جوابه : انه نوعان : منه ما هو دائم ، كما قال تعالى :
(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)
٤٦ / غافر .

وكذا في حديث البراء بن عازب في قصة الكافر : « ثم يفتح له باب الى النار فينظر الى مقعده فيها حتى تقوم الساعة » . رواه الامام احمد .

والنوع الثاني : انه مدة ثم ينقطع ، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم .

وقد اختلف في مُستقرّ الارواح ما بين الموت الى قيام الساعة ، ويتلخص من مجموع الادلة ان الارواح في البرزخ متفاوتة اعظم تفاوت ، فمنها : ارواح في اعلى عليين ، في الملائكة الاعلى ، وهي ارواح الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وهم متفاوتون في منازلهم . ومنها ارواح في حواصل طير خضر ، تسرح في الجنة حيث شاءت ، وهي ارواح بعض الشهداء لا كلهم ، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة ، لدين عليه ، كما في مسند احمد عن عبدالله بن جحش : « ان رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : مالي ان قتلت في سبيل الله ؟ قال : الجنة . فلما ولى قال : الا الدين ، سارني به جبريل انفا » .

ومن الارواح من يكون محبوسا على باب الجنة ، كما في الحديث الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « رايت صاحبكم محبوسا على باب الجنة » . ومنهم من يكون محبوسا في قبره ، ومنهم من يكون في الارض ، ومنها ارواح تكون في تنور الزناة والزواني ، وارواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة . كل ذلك تشهد له السنة ، والله اعلم .

وأما الشهداء فقد قال الله تعالى فيهم :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) ١٦٩ / آل عمران .

وهـ . حياة اختصوا بها ، فان الله تعالى جعل ارواحهم في اجواف طير خضر ، كما في حديث ابن عباس انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما اصاب اخوانكم - يعني يوم احد - جعل الله ارواحهم في اجواف طير خضر ، ترد انهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي الى قناديل من ذهب مظلمة في ظل العرش » . رواه الامام احمد وابوداود ، وبمعناه حديث آخر عن عبدالله بن مسعود في صحيح مسلم .

● قال الطحاوي : (ونؤمن بالبعث وجزاء الاعمال يوم القيامة ، والعرض والحساب ، وقراءة الكتاب ، والثواب والعقاب . والصراف والميزان) .

لأن الايمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة ، والعقل والفطر السليمة ، فاجبر الله سبحانه في كتابه العزيز عنه ، واقام الدليل عليه ، ورد على المنكرين ، في غالب سور القرآن . وذلك ان الايمان بالرب عام في بني آدم ، وهو فطري ، بخلاف الايمان باليوم الآخر ، فان منكريه كثيرون ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم الانبياء ، وكان قد بعث عند اقتراب الساعة ، بين تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من كتب الانبياء .

والقرآن بين معاد النفس عند الموت ، ومعاد البدن عند القيامة الكبرى ، وزعم الفلاسفة ان الانبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم لم يخبروا بالآخرة ، وقد كذبوا ، فان القرآن ذكر معرفة الانبياء بالآخرة ، واولهم آدم عليه السلام ، اذ قال له ربه : (قَالَ أَقْبِلُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ) ٢٤ / الاعراف .

وقال ابراهيم عليه السلام :

(وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) ٨٢ / الشعراء .

وقال موسى عليه السلام : (وَاصْنَعْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ) ١٥٦ / الاعراف .

وقول الطحاوي : « وجزاء الاعمال » هو من قوله تعالى :

(جَزَاءُ يَمْكُنُ أَنْ يَكُونُوا يَعْمَلُونَ) ١٧ / السجدة .

وقوله تعالى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا) ومن جاء بالسيئة

فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ٨٤ / القصص .

وقوله « والعرض والحساب ، وقراءة الكتاب ، والثواب والعقاب » هو

من قوله تعالى :

فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الرُّاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ فَسَاوَنِي أَعْرِضْ وَابْتِئِنِي ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حَسِيَّةٌ ﴿٢٠﴾ / الحاقة .

ودوى البخاري رحمه الله في صحيحه عن عائشة ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس احد يحاسب يوم القيامة الا هلك . فقلت : يا رسول الله : اليس قد قال الله تعالى : فاما من اوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انما ذلك العرض ، وليس احد يُناقش الحساب يوم القيام الا عذب » . يعني انه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولكنه تعالى يعفو ويصفح .

وقوله « والصراط » اي ونؤمن بالصراط ، وهو جسر على جهنم ، اذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف الى الظلمة التي دون الصراط ، كما قالت عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : « اين الناس يوم تبدل الارض غير الارض والسماوات ؟ فقال : هم في الظلمة دون الجسر » .

وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ، ويتخلفون عنهم ، ويسبقهم المؤمنون ، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول اليهم .

واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى . (وان منكم الا واردها) ما هو ؟

والاظهر والاقوى انه المرور على الصراط . قال تعالى .

(ثُمَّ يُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا) ٧٢ / مريم .

وفي الصحيح انه صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده : لا يدخل النار احد بايع تحت الشجرة . قالت حفصة : فقلت يا رسول الله : اليس الله يقول : وان منكم الا واردها ؟ فقال الم تسمعيه قال : ثم تُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ؟ » .

اشار صلى الله عليه وسلم الى ان ورود النار لا يستلزم دخولها ، وان النجاة من الشر لا تستلزم حصوله ، بل تستلزم انعقاد سببه ، فمن طلبه اعداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال نجاه الله منهم ، ولهذا قال تعالى : (ولما جاء امرنا نجينا هودا) وقال : (فلما جاء امرنا نجينا صالحا) وقال : (ولما جاء امرنا نجينا شعيبا) ولم يكن العذاب اصابهم ، ولكن اصاب غيرهم . ولولا ما خصهم الله به من اسباب النجاة لاصابهم ما اصاب اولئك . وكذلك حال الوارد في النار ، يمرون فوقها على الصراط ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا .

وقوله : « والميزان » اي ونؤمن بالميزان . قال تعالى .
(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ
نَرْدَلٍ أَتَيْنَاهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ) ٤٧ / الانبياء .
وقال تعالى :

(قُلْ نَقَلْتُمُوزِينَهُ قَالُوا لَكَ مُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٦﴾ وَمَنْ خَفَّتْ
مُوزِينُهُ قَالُوا لَكَ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) ١٠٢ و ١٠٣ / المؤمنون .
قال القرطبي : قال العلماء : اذا انقضى الحساب كان بعده وزن
الاعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغي ان يكون بعد المحاسبة ، فان المحاسبة
لتقرير الاعمال ، والوزن لاطهار مقاديرها ، ليكون الجزاء بحسبها .

والذي دلّت عليه السُّنة . ان ميزان الاعمال له كفتان حسيتان
مشاهدتان ، وان العامل يوزن مع عمله . ويشهد له ما روى البخاري عن ابي
هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « انه ليأتي الرجل العظيم
السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة . قال : اقراوا ان
شئتم : فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » .

وروى الامام احمد عن ابن مسعود انه كان يجني سواكا من الاراك ،
وكان دقيق الساقين ، فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « مِمَّ تضحكون ؟ قالوا : يا نبي الله : من رقة
ساقيه . فقال : والذي نفسي بيده لهما اثقل في الميزان من أحد » .

وقد وردت الاحاديث ايضا بوزن الاعمال انفسها ، كما في صحيح مسلم
عن ابي مالك الاشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطهور
شطر الايمان ، والحمد لله تملأ الميزان » .

وفي الصحيح — وهو خاتمة كتاب البخاري — قوله صلى الله عليه وسلم :
« كلمتان خفيفتان على اللسان ، حبيبتان الى الرحمن ، ثقيلتان في الميزان :
سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

فلا يلتفت الى ملحد معاند يقول : الاعمال اعراض لا تقبل الوزن ، وانما
يقبل الوزن الاجسام !! فان الله يقبل الاعراض اجساما ، كما تقدم .

فعلينا الايمان بالغيب ، كما اخبرنا الصادق صلى الله عليه وسلم ، من
غير زيادة ولا نقصان .

● قال الامام ابو جعفر الطحاوي : (والجنة والنار مخلوقتان ، لا تفنيان ابدا ولا تبيدان ، فان الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق ، وخلق لهما اهلا ، فمن شاء منهم الى الجنة فضلا منه ، ومن شاء منهم الى النار عدلا منه ، وكل يعمل لما قد فرغ له ، وصائر الى ما خلق له ، والخير والشر مُقَدَّران على العباد) .

اما قوله « الجنة والنار مخلوقتان » فاتفق اهل السنة على ان الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، ولم يزل على ذلك اهل السنة ، حتى نبغت باغية من المعتزلة والقدرية ، فانكرت ذلك ، وقالت بل ينشئهما الله يوم القيامة " وحملهم على ذلك اصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله . وانه ينبغي ان يفعل كذا ، ولا ينبغي ان يفعل كذا " وقاسوه على خلقه في افعالهم . فهم مشبهة في الافعال . ودخل التجهم فيهم ، فصاروا مع ذلك مُعْطَلَة . وقالوا خلق الجنة قبل الجزاء عُبْثٌ ، لانها تصير مُعْطَلَة مُددا متطاولة " فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى ، وحرفوا النصوص عن مواضعها ، وضللوا من خالف شريعتهم

فمن نصوص الكتاب قوله تعالى عن الجنة (أعدت للمتقين) وعن النار (أعدت للكافرين)

وقال تعالى

(فذرية زلة أخرى ﴿١٣﴾ عند سدرة المنتهى ﴿١٤﴾ من بعد حة مأوى) ١٢ - ١٥ / النجم

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى ، ورأى عندها جنة المأوى . كما في الصحيحين . في حديث انس رضي الله عنه في قصة الاسراء . وفي آخره " ثم انطلق بي جبرائيل حتى اتى سدرة المنتهى ، فغشيها الوان لا ادري ما هي . قال : ثم دخلت الجنة ، فاذا هي جنابذ اللؤلؤ ، واذا ترابها المسك " .

واما شبهة من قال انها لم تخلق بعد وهي انها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطرارا ان تفتى يوم القيامة وان يهلك كل من فيها ويموت . لقوله تعالى (كل شيء هالك الا وجهه) وقد قال تعالى عن امرأة فرعون انها قالت (رب ابر لي عندك بيتا في الجنة) فالجواب انكم ان اردتم بقولكم انها الآن معدومة بمنزلة البقع في الصور وقيام الناس من القبور فهذا باطل . يردده ما تقدم من الادلة وامثالها مما لم يذكر . وان اردتم انها لم يكمل خلق جميع ما اعد الله فيها لاهلها وانها لا يرال الله يحدث فيها شيئا بعد شيء . واذا دخلها المؤمنون احدث الله فيها عند دخولهم امورا اخرى فهذا حق لا يمكن رده .

وادلّتكم هذه انما تدل على هذا القدر . واما احتجاجكم بقوله تعالى : (كل شيء هالك الا وجهه) فاثبتتم سوء فهمكم معنى الآية ، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن ، نظير احتجاج اخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت اهلها !! فلم توفقوا انتم ولا اخوانكم لفهم معنى الآية ، وانما وفق لذلك ائمة الاسلام . فمن كلامهم : ان المراد « كل شيء » مما كتب الله عليه الفناء والهلاك « هالك » الجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ، وكذا العرش ، فانه سقف الجنة ، والنصوص محكمة دالة على بقاء الجنة وعلى بقاء النار ايضا .

وقوله : « لا تفنيان ابدا ولا تبيدان » : هذا قول جمهور الائمة من السلف والخلف . وقال ببقاء الجنة وقال بفناء النار جماعة من السلف والخلف ، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها . وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان امام المعطلة ، وليس له سلف قط ، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم باحسان ، ولا من ائمة المسلمين ، ولا من اهل السنة ، وكفروه به ، وصاحوا به .

فاما ابدية الجنة ، وانها لا تفنى ولا تبيد ، فهذا مما يُعلم بالضرورة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبر به .

قال تعالى : (اِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَّادٍ) ٥٤ / ص

وقال سبحانه : (اَكُلْهَا ذَاتِمْ وَظِلُّهَا) ٣٥ / الرعد .

والادلة من السنة على ابدية الجنة ودوامها كثيرة ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « ينادي مناد : يا اهل الجنة : ان لكم ان تصحّوا فلا تسقموا ، ان تشبّوا فلا تهرموا ابدا ، وان تحيوا فلا تموتوا ابدا » .

واما ابدية النار ودوامها فللناس في ذلك اقوال ، والقول بفناء النار دون الجنة منقول عن عمر ، وابن مسعود ، وابي هريرة ، وابي سعيد الخدري ، وغيرهم ، قالوا : والنار موجب غضبه ، والجنة موجب رحمته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لما قضى الله الخلق كتب كتابا ، فهو عنده فوق العرش : ان رحمتي سبقت غضبي » . رواه البخاري قالوا : والله سبحانه يخبر عن العذاب انه عذاب يوم عظيم ، واليم ، وعقيم ، ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم انه نعيم يوم وقد قال تعالى : (عذابي اصيب به من شاء ، ورحمتي وسعت كل شيء) فلا بد ان تسع رحمته هؤلاء المعذبين ، فلو بقوا في العذاب لا الى غاية : لم تسعهم رحمته ، وليس في حكمة احكم الحاكمين ، ان يخلق خلقا يعذبهم ابد الآباد ، واما انه يخلق خلقا ينعم اليهم ويحسن اليهم نعيما سرمدا فمن مقتضى الحكمة . قالوا : وما ورد من الخلود فيها وعدم الخروج : كله حق

لا نزاع فيه ، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية ، وانما يخرج منها في حال بقائها اهل التوحيد ، ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله ، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس .

ومن ادلة القائلين ببقائها وعدم فنائها قوله : (حولهم عذاب مقيم) (خالدين فيها ابدًا) . وقد دلت السنة انه يخرج من النار من قال : لا اله الا الله ، واحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار ، وان هذا حكم مختص بهم ، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم .

وقول الطحاوي « وخلق لهما اهلا » هو من قوله تعالى : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ) ١٧٩ / الاعراف .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الله خلق للجنة اهلا ، خلقهم لها وهم في اصلاب آبائهم ، وخلق للنار اهلا ، خلقهم لها وهم في اصلاب آبائهم » . رواه مسلم وابو داود .

واما قوله : « فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ فَضْلًا مِنْهُ ، وَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى النَّارِ عَدْلًا مِنْهُ » فان مما يجب ان يعلم : ان الله تعالى لا يمنع الثواب الا اذا منع سببه ، وهو العمل الصالح ، فانه : (مَنْ يَعْمَلْ مِثْرَ حَبْثَاتٍ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) ١١٢ / طه .

وكذلك لا يعاقب احدا الا بعد حصول سبب العقاب ، فان الله تعالى يقول : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ) ٣٠ / الشورى .

وهو سبحانه المعطي المانع ، لا مانع لما اعطى ، ولا معطي لما منع ، لكن اذا مَنْ عَلَى الْإِنْسَانِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَلَا يَمْنَعُهُ مَوْجِبُ ذَلِكَ أَصْلًا ، بَلْ يُعْطِيهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْقُرْبِ مَا لَا عَيْنٌ رَّأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَحَيْثُ مَنَعَهُ ذَلِكَ فَلَا نَقْتَاءَ سَبَبِهِ ، وَهُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، لَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ حِكْمَةٌ مِنْهُ وَعَدْلٌ ، فَمَنَعَهُ لِلْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ مِنْ حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ ، وَأَمَّا الْمُسَبِّبَاتُ بَعْدَ وَجُودِ أَسْبَابِهَا فَلَا يَمْنَعُهَا بِحَالٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ أَسْبَابًا غَيْرَ صَالِحَةٍ ، أَمَّا لِفْسَادٍ فِي الْعَمَلِ ، وَأَمَّا لِسَبَبٍ يَعْارِضُ مُوجِبَهُ وَمَقْتَضَاهُ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ لِعَدَمِ الْمَقْتَضَى ، أَوْ لَوْجُودِ الْمَانِعِ ، وَإِذَا كَانَ مَنَعُهُ وَعَقُوبَتُهُ مِنْ عَدَمِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَهُوَ لَمْ يُعْطِ ذَلِكَ ابْتِلَاءً وَابْتِدَاءً إِلَّا حِكْمَةٌ مِنْهُ وَعَدْلًا ، فَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْحَالَيْنِ ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ إِلَى كُلِّ حَالٍ ، كُلُّ عَطَاءٍ مِنْهُ فَضْلٌ ، وَكُلُّ عَقُوبَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ ، فَانَ اللَّهُ تَعَالَى حَكِيمٌ يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا الَّتِي تَصْلُحُ لَهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى .

(وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَوْ نَرَىٰ نُفُوزًا مِّثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ أَفَلَا نَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)

١٢٤ / الانعام .

● قال الطحاوي : (الاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو لتوفيق الذي لا يجوز ان يوصف المخلوق به :- تكون مع الفعل . واما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع ، والتمكن وسلامة الآلات ، فهي قبل الفعل ، وبها يتعلق الخطاب ، وهو كما قال تعالى : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) .

الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع الفاظ متقاربة ، وتنقسم الاستطاعة الى قسمين ، كما ذكره الشيخ رحمه الله ، وهو قول عامة اهل السنة ، وهو الوسط ، وقالت القدرية والمعتزلة ، لا تكون القدرة الا قبل الفعل ، وقابلهم طائفة من اهل السنة فقالوا لا تكون الا مع الفعل .

والذي قاله عامة اهل السنة ان للعبد قدرة هي مناط الامر والنهي ، وهذه قد تكون قبله ، لا يجب ان تكون معه ، والقدرة التي بها الفعل لا بد ان تكون مع الفعل ، لا يجوز ان يوجد الفعل بقدرة معدومة .

واما القدرة التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فقد تتقدم الافعال ، وهذه القدرة المذكورة في قوله تعالى

(وَفِي عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) ٩٧ / آل .
فاوجب الحج على المستطيع ، فلولم يستطع الا من حج : لم يكن له حج .
وجب الا على من حج ، ولم يعاقب احدا على ترك الحج ، وهذا خلاف ما
بالضرورة من دين الاسلام .

وكذا قوله تعالى : (فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا) والمراد منه استطاعة الاسباب والآلات .

واما ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة ، فقد ذكروا فيها قوله تعالى : (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) ٢٠ / هود .

والمراد في هذه الآية : نفي حقيقة القدرة ، لا نفي الاسباب والآلات لأنها كانت ثابتة .

وكذلك قول صاحب موسى

(إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) ٦٧ / الكهف .

اذ المراد ، حقيقة قدرة الصبر . لا أسباب الصبر وآلاته فان تلك كانت ثابتة له .

والقدرية يقولون ان اقدار الله للمؤمن والكافر سواء ولا يقولون : ان الله خص المؤمن المطيع باعانة حصل بها الايمان ، بل هذا بنفسه رَجَّح الطاعة ، وهذا بنفسه رجح المعصية ، كالوالد الذي اعطى كل واحد من بنيه سيفاً ، فهذا جاهد به في سبيل الله ، وهذا قطع به الطريق .

وهذا القول فاسد باتفاق اهل السنة والجماعة المثبتين للقدَر ، فانهم متفقون على ان لله على عبده المطيع نعمة دينية ، خصه بها دون الكافر ، وانه اعانه على الطاعة اعانة لم يعن بها الكافر ، كما قال تعالى :
(وَلَئِنْ أَتَىكَ الْكُفْرُ أَتَىكَ الْإِيمَانُ وَزَيْنَةُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَةٌ)

إِلَّا الْكُفْرُ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْمَعْصِيَانِ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧ / الحجرات .

وقال تعالى

(قَدْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَ بِشَرَخِ صَدْرِهِ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتَمَّ يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) ١٢٥ / الانعام .
● قال ابو جعفر رحمه الله : (وافعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد) .

وقال الشارح القاضي ابن ابي العز الاذْرُعي . اختلف الناس في افعال العباد الاختيارية ، فزعمت الجبرية - ورئيسهم الجهم بن صفوان - ان التدبير في افعال الخلق كلها لله تعالى ، وهي كلها اضطرارية ، كحركات المرتعش ، والعروق النابضة ، وحركات الاشجار ، وازدواجها الى الخلق مجاز ، وهي على حسب ما يضاف الشيء الى محله دون ما يضاف الى محصله ! وقابلتهم المعتزلة ، فقالوا ان جميع الافعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها ، لا تعلق لها بخلق الله لها ، واختلفوا فيما بينهم . ان الله يقدر على افعال العباد ام لا ؟

وقال اهل الحق : افعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة ، وهي مخلوقة لله تعالى ، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات ، لا خالق لها سواه . فالجبرية غلوا في اثبات القدر ، فنفوا صنع العبد اصلاً ، كما عملت المشبهة في اثبات الصفات ، فشبهوا . والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى ، ولهذا كانوا : « مجوس هذه الامة » بل اردوا من المجوس ، من حيث ان المجوس اثبتوا خالقين ، وهم اثبتوا خالقين !! وهدى الله المؤمنين اهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ، فكل دليل صحيح تقيمه الجبرية فانما يدل على ان الله خالق كل شيء ، وانه على كل شيء قدير ، وان افعال العباد من جملة مخلوقاته ، وانه ما شاء الله كان وما

لم يشأ لم يكن ولا يدل على ان العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد ولا مختار ، وان حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح . وكل دليل يقيمه القدرى فانما يدل على ان العبد فاعل لفعله حقيقة ، وانه مريد له مختار له حقيقة ، وان اضافته ونسبته اليه اضافة حق ، ولا يدل على انه غير مقدور لله تعالى وانه واقع بغير مشيئته وقدرته . فاذا ضمنت ما مع كل طائفة منهما من الحق الى حق الاخرى : فانما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة ، من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الاعدان والافعال ، وان العباد فاعلون لافعالهم حقيقة ، وانهم يستوجبون عليها المدح والذم .

وهذا هو الواقع في نفس الامر ، فان ادلة الحق لا تتعارض ، والحق يصدق بعضه بعضا . ويضيق هذا المختصر عن ذكر ادلة الفريقين ، ولكنها تتكافأ ، وتتساقط ، ويستفاد من دليل كل فريق بطلان قول الآخرين ، ولكن اذكر شيئا مما استدل به كل من الفريقين ، ثم أبين انه لا يدل على ما استدل عليه من الباطل .

فما استدلت به الجبرية : قوله تعالى :

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) ١٧ / الانفال .

فنفى الله عن نبيه الرمي ، واثبته لنفسه سبحانه ، فدل على انه لا صنع للعبد . قالوا : والجزاء غير مرتب على الاعمال ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل احد الجنة بعمله » . قالوا : ولا انت يا رسول الله ؟ قال : ولا انا ، الا ان يتغمدني الله برحمته منه وفضل .

ومما استدلت به القدرية : قوله تعالى :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) ١٤ / المؤمنون .

قالوا : والجزاء مرتب على الاعمال ترتب العوض ، كما قال تعالى :

(وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ٧٢ / الزخرف .

فأما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى : وما رميت اذ رميت ، فهو دليل عليهم ، لانه تعالى اثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم رميا ، بقوله : اذ رميت ، فعلم ان المثبت غير المنفي ، وذلك ان الرمي له ابتداء وانتهاء ، فابتدأه : الحذف ، وانتهأه : الاصابة ، وكل منهما يسمى رميا ، فالمعنى حينئذ - والله تعالى اعلم - : وما اصبحت اذ حذفت ولكن الله اصاب ، والافطرء قولهم : وما صليت اذ صليت ولكن الله صلى ، وما صمت اذ صمت ، وفساد هذا ظاهر .

واما ترتيب الجزاء على الاعمال فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية ، وهدى الله اهل السنة ، وله الحمد والمِنَّة ، فان الباء التي في النفي غير الباء التي في الاثبات ، فالنفي في قوله صلى الله عليه وسلم : لن يدخل الجنة احد بعمله : باء العوض ، وهو ان يكون العمل كالثمن لدخول الرجل الجنة ، كما زعمت المعتزلة ان العامل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله ! بل ذلك برحمة الله وفضله . والباء التي في قوله تعالى : بما كنتم تعملون : باء السبب ، اي بسبب عملكم ، والله تعالى خالق الاسباب والمسببات ، فرجع الكل الى محض فضل الله ورحمته .

واما استدلال المعتزلة بقوله تعالى : (فتبارك الله احسن الخالقين) فمعنى الآية : احسن المصورين المقدرين ، و « الخلق » يذكر ويراد به التقدير ، وهو المراد هنا ، بدليل قوله تعالى : (الله خالق كل شيء) اي الله خالق كل شيء مخلوق ، قد خلق افعال العباد في عموم « كل » .

واعلم انه لا منافاة بين كون العبد مُحَدِّثاً لفعله ، وكون هذا الاحداث وَجَبَ وجوده بمشيئة الله تعالى ، كما قال تعالى :
(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) ٧ و ٨ / الشمس .

ففيها اثبات للقدر بقوله : فألهما ، واثبات لفعل العبد باضافة الفجور والتقوى الى نفسه ، ليعلم انها هي الفاجرة والمتقية .

وهذه شبهة اخرى من شبه القوم التي فرقتهم ، بل مَرَّقَتْهم كل مَرَّقٍ ، وهي : انهم قالوا : كيف يستقيم الحكم على قولكم بان الله يعذب المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم ؟ فاين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم ؟ .

وهذا السؤال لم يزل مطروقا على السنة الناس ، وكل منهم يتكلم في جوابه بحسب علمه ومعرفته ، وعنه تفرقت بهم الطرق . فطائفة اخرجت افعالهم عن قدرة الله تعالى ، وطائفة انكرت التعليل وسدت باب السؤال ، وطائفة التزمت الجبر وان الله يعذبهم على ما لا يقدرون عليه .

والجواب الصحيح ان يُقال : ان ما يبطل به العبد من الذنوب الوجودية - وان كانت خلقا لله تعالى - فهي عقوبة له على ذنوب قبلها ، فالذنوب يكسب الذنب ، ومن عقاب السيئة : السيئة بعدها ، فالذنوب كالامراض يورث بعضها بعضا . يبقى ان يقال : فالكلام في الذنب الاول الجالب لما بعده من الذنوب ؟

يقال : هو عقوبة ايضا على عدم فعل ما خلق له وفطر عليه ، فان الله سبحانه خلقه لعبادته وحده لا شريك له ، وفطره على محبته وتأليهه والانابة اليه ، كما قال تعالى .

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) ٣٠ / الروم .

فلما لم يفعل ما خلق له وفطر عليه ، من محبة الله وعبوديته : عوقب على ذلك بان زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي ، فانه صادف قلباً خاليا قابلا للخير والشر ، ولو كان فيه الخير الذي يمنع ضده . لم يتمكن منه الشر ، كما قال الله على لسان ابليس :

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ) ٨٢ و ٨٣ / ص .

والاخلاص : خلوص القلب من تأليه ما سوى الله تعالى ، فخلص لله ، فلم يتمكن منه الشيطان ، واما اذا صادفه فارغا من ذلك : تمكن منه بحسب فراغه ، فيكون جعله مذنباً مسيئاً في هذه الحال : عقوبة له على عدم الاخلاص ، وهي محض العدل .

● قال الامام : (ولم يكلفهم الله تعالى الا ما يطيقون ، ولا يطيقون الا ما كلفهم ، وهو تفسير : لا حول ولا قوة الا بالله نقول : لا حيلة لاحد ، ولا تحوّل لاحد ، ولا حركة لاحد عن معصية الله ، الا بمعونة الله ، ولا قوة لاحد على اقامة طاعة الله والثبات عليها الا بتوفيق الله ، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدرته ، غلبت مشيئته المشيئات كلها ، وعكست ارادته الارادات كلها ، وغلب قضاؤه الحيل كلها . يفعل ما يشاء ، وهو غير ظالم ابداً ، « لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون » .

وذلك لقوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) ولا يلزم قوله تعالى للملائكة : (انبئوني باسماء هؤلاء) مع عدم علمهم بذلك ، لأنه ليس بتكليف ، بل هو خطاب تعجيز .

وكذا لا يلزم دعاء المؤمنين في قوله تعالى : (ربنا ولا تُحْمِلْنا ما لا طاقة لنا به) قال ابن الانباري : اي لا تحملنا ما يثقل علينا ادائه وان كنا مطيقين له على تَجَشُّمٍ وَتَحْمَلٍ مكروه . قال : فخاطب العرب على حسب ما تعقل ، فان الرجل منهم يقول للرجل يبغيضه : ما اطيعك النظر اليك ، وهو مطيق لذلك ، لكنه يثقل عليه .

وقوله « ولا يطيقون الا ما كلفهم به » الى آخر كلامه ، اي ولا يطيقون الا ما اقدرهم عليه . وهذه الطاقة هي التي من نحو التوفيق ، لا التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات . و « لا حول ولا قوة الا بالله » . دليل على اثبات القدر ، وقد فسرهما الشيخ بعدها ، ولكن في كلام الشيخ اشكال : فان التكليف لا يستعمل بمعنى الاقدار ، وانما يستعمل بمعنى الامر والنهي ، وهو قال : « لا يكلفهم الا ما يطيقون ولا يطيقون الا ما كلفهم » وظاهره انه يرجع الى معنى واحد ، ولا يصح ذلك ، لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به ، لكنه سبحانه يريد بعباده اليسر والتخفيف ، كما قال تعالى :
(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) ١٨٥ / البقرة .

وقال تعالى : (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكَ) ٢٨ / النساء .

فلو زاد فيما كلفنا به لاطقناه ، ولكنه تفضل علينا ورحمنا وخفف عنا .

ويجاب عن هذا الاشكال بما تقدم : ان المراد : الطاقة التي من نحو التوفيق ، لا من جهة التمكن وسلامة الآلات ، لكن في العبارة قلق ، فتأمله .

وقوله : « وكل شيء يجري بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره » : يريد بقضائه : القضاء الكوني ، لا الشرعي ، فان القضاء يكون كونيا وشرعيا ، وكذلك الارادة والامر ، والاذن والكتاب ، والحكم والتحريم والكلمات ، ونحو ذلك . اما القضاء الكوني ففي قوله تعالى :

(فَقَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ) ١٢ / فصلت .

والقضاء الديني الشرعي في قوله تعالى :

(وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَٰهًا) ٢٣ / الاسراء .

واما الاذن الكوني ففي قوله تعالى :

(وَمَا مِنْ بَضَائِرٍ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) ١٠٢ / البقرة .

والاذن الشرعي في قوله تعالى :

(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَبَنَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ) ٥ / الحشر .

واما الكتاب الكوني ففي قوله تعالى :

(وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) ١١ / فاطر .

والكتاب الشرعي الديني في قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) ١٨٣ / البقرة .

واما الحكم الكوني ففي قوله تعالى

(قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) ١١٢ / الانبياء .

والحكم الشرعي في قوله تعالى
(ذَلِكُمْ حُرْمَةُ اللَّهِ بِحُكْمٍ يُنْكَرُ) ١٠ / الممتحنة .

واما التحريم الكوني ففي قوله تعالى
(قَالَ فَإِنَّهَا مُّحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ) ٢٦ / المائدة .

والتحريم الشرعي في قوله سبحانه :
(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِتِيرِ) ٣ / المائدة .

● قال ابو جعفر رحمه الله : (وفي دعاء الاحياء وصدقاتهم
منفعة للاموات) .

اذ قد اتفق اهل السنة ان الاموات ينتفعون من سعي الاحياء بامرين
احدهما : ما تسبب اليه الميت في حياته . والثاني : دعاء المسلمين واستغفارهم
له ، والصدقة والحج على نزاع فيما يصل من ثواب الحج ، فعن محمد بن
الحسن الشيباني صاحب ابي حنيفة : انه انما يصل الى الميت ثواب النفقة ،
والحج للجاج . وعند عامة العلماء : ثواب الحج للمحجوج عنه ، وهو
الصحيح .

واختلف في العبادات البدنية ، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر ،
فذهب ابو حنيفة واحمد وجمهور السلف الى وصولها ، والمشهور من مذهب
الشافعي ومالك : عدم وصولها .

والدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه : الكتاب والسنة والاجماع
والقياس الصحيح . اما الكتاب فقال تعالى :

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ) ١٠ / الحشر .
فأثني عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم ، فدل على انتفاعهم باستغفار
الاحياء .

وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء : اجماع الامة على الدعاء في صلاة
الجنائزة ، وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم ، كما في صحيح مسلم من حديث
بريدة بن الحصيب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم اذا
خرجوا الى المقابر ان يقولوا : السلام عليكم اهل الديار من المؤمنين
والمسلمين ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية » .

واما وصول ثواب الصدقة ، ففي صحيح البخاري ان رجلا اتى النبي
صلى الله عليه وسلم فقال « يا رسول الله : ان امي توفيت وانا غائب
عنها ، فهل ينفعها ان تصدقت عنها ؟ قال : نعم . قال : فاني أشهدك ان

حائطي : المخراف : صدقة عنها .

واما وصول ثواب الصوم ، ففي الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « من مات وعليه صيام : صام عنه وليه » .

واما وصول ثواب الحج ، ففي صحيح البخاري : « ان امرأة من جُهينة جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : ان امي نذرت ان تحج حتى ماتت فلم تحج ، افاحج عنها ؟ قال : حجي عنها ، ارايت لو كان على امك دين ، اكننت قاضيتَه ؟ اقضوا الله ، فالله احق بالوفاء » .

واجمع المسلمون على ان قضاء الدين يُسقطه من ذمّة الميت ولو كان من اجنبي ومن غير تركته ، وقد دل على ذلك حديث ابي قتادة ، حيث ضمن الدينارين عن الميت ، فلما قضاها قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الآن بردت عليه جلده » وكل ذلك جار على قواعد الشرع ، وهو محض القياس ، فان الثواب حق العامل ، فاذا وهبه لاخيه المسلم لم يمنع من ذلك .

وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية . يوضحه : ان الصوم كف النفس عن المفطرات بالنية ، وقد نص الشارع على وصول ثوابه الى الميت ، فكيف بالقراءة التي هي عمل ونية ؟

وقد استشكل البعض وصول هذه الانواع من الثواب ، وذلك بسبب قوله تعالى (وان ليس للانسان الا ما سعى) وقد اجاب العلماء باجوبة ، اصحها جوابان

احدهما . ان الانسان بسعيه وحسن عشرته : اكتسب الاصدقاء ، فترحموا عليه ، واهدوا له ثواب الطاعات ، فكان ذلك اثر سعيه .

الثاني . ان القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره ، وانما نفى ملكه لغير سعيه ، وسعي غيره ملك لساعيه ، فان شاء ان يبذله لغيره ، وان شاء ان يبقيه لنفسه .

١ . استئجار قوم يقرأون القرآن ويهدونه للميت فهذا لم يفعله احد من السلف ولا امر به احد من ائمة الدين ، ولا رخص فيه ، والاستئجار عن نفس التلاوة . يير جائز بلا خلاف ، وانما اختلفوا في جواز الاستئجار لتعليم ونحوه ، فاذا لم يقرأ القرآن ويتعلمه ويعلمه معونة لاهل القرآن على ذلك : كان هذا من جنس الصدقة عنه ، فيجوز . وفي كتاب الاختيار : لو اوصى بان يُعطى شيء من ثوابه لمن يقرأ القرآن على قبره ، فالوصية باطلة ، لأنه في معنى الاجرة .

ودكر الزاهدي في الغنية انه لو اوقف وقفا على من يقرأ القرآن عند قبره .
فالتعيين باطل

واما قراءة القرآن واهدائها له طوعا بغير اجرة فهذا يصل اليه ، كما يصل ثواب الحج والصوم ، فان قيل هذا لم يكن معروفا في السلف ، ولا ارشدهم النبي صلى الله عليه وسلم اليه ، فالجواب ان كان مُورد هذا السؤال معترفا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء ، قيل له ما الفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قراءة القرآن ؟ وليس كون السلف لم يفعلوه حجة في عدم الوصول . ومن اين لنا هذا النفي العام ؟ فان قيل فرسول الله صلى الله عليه وسلم ارشدهم الى الصوم والحج والصدقة ، دون القراءة . قيل هو صلى الله عليه وسلم لم يبتدئهم بذلك ، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم ، فهذا سألته عن الحج عن ميتة فاذن له فيه ، وهذا سألته عن الصوم عنه فاذن له فيه . ولم يمنعهم مما سوى ذلك

ومن قال ان الميت ينتفع بقراءة القرآن عنده - باعتبار سماعه كلام الله - فهذا لم يصح عن احد من الائمة المشهورين . واختلف العلماء في قراءة القرآن عند القبور على ثلاثة اقوال هل تكره ، ام لا بأس بها وقت الدفن ، وتكره بعده ؟ فمن قال بكراهتها - كأبي حنيفة ومالك واحمد في رواية - قالوا لأنه مُحدث لم تَرِدْ به السنة ، والقراءة تشبه الصلاة ، والصلاة عند القبور منهي عنها ، فكذلك القراءة . ومن قال لا بأس بها - كمحمد بن الحسن الشيباني واحمد في رواية - استدلوا بما نقل عن ابن عمر رضي الله عنه انه اوصى ان يُقرأ على قبره وقت الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتمها . ونقل ايضا عن بعض المهاجرين قراءة سورة البقرة . ومن قال لا بأس بها وقت الدفن فقط - وهو رواية عن احمد - اخذ بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين .
واما بعد ذلك ، كالذين يتناوبون القبر للقراءة عنده ، فهذا مكروه ، فانه لم تأت به السنة ، ولم ينقل عن احد من السلف مثل ذلك اصلا . وهذا القول لعلة اقوى من غيره ، لما فيه من التوفيق بين الدليلين .

● قال : (والله تعالى يستجيب الدعوات ، ويقضي الحاجات) .

وذلك في قوله الله تعالى (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) ٦٠ / غافر
وقوله سبحانه (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)
١٨٦ / البقرة

والذي عليه اكثر الخلق من المسلمين وسائر اهل الملل ان الدعاء من اقوى الاسباب في جلب المنافع ودفع المضار ، وقد اخبر تعالى عن الكفار انهم اذا هَمَّهم الضر في البحر دَعَوْا الله مخلصين له الدين

واجابة الله لدعاء العبد ، مسلما كان او كافرا . من جنس رزقه لهم ، وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقا ، ثم قد يكون ذلك فتنة في حقه ومضرة عليه ، اذ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك .

قال ابن عقيل : قد ندب الله تعالى الى الدعاء وفي ذلك معان

اولها : الوجود ، فان من ليس بموجود لا يدعى .

الثاني : الغنى ، فان الفقير لا يدعى .

الثالث : السمع ، فان الاصم لا يدعى .

الرابع : الكرم ، فان البخيل لا يدعى .

الخامس : الرحمة ، فان القاسي لا يدعى .

السادس : القدرة ، فان العاجز لا يدعى .

والرب سبحانه هو الذي حرّك العبد الى دعائه ، فهذا الخير منه ، وتماه عليه ، كما قال عمر رضي الله عنه : « اني لا احمل همّ الاجابة ، وانما احمل همّ الدعاء ، ولكن اذا الهمتُ الدعاءَ فان الاجابة معه » . وعلى هذا قول الله تعالى :

(يَدْرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)
٥ / السجدة .

فاخبر سبحانه انه يبتدىء بتدبير الامر ، ثم يصعد اليه الامر الذي دبّره ، فالله سبحانه هو الذي يقذف في قلب العبد حركة الدعاء ، ويجعلها سببا للخير الذي يعطيه إياه ، كما في العمل والثواب ، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها ، وهو الذي وفقه للعمل ثم اثابه ، وهو الذي وفقه للدعاء ثم اجابه .

وهنا سؤال معروف ، وهو : ان من الناس من قد يسأل الله فلا يُعطى ، او يُعطى غير ما سأل ؟

وقد أُجيبَ عنه باجوبة ، فيها اجوبة مُحَقَّقة :

منها : ان اجابة دعاء السؤال اعم من اعطاء المسؤل ، كما فسرہ النبي صلى الله عليه وسلم في قوله . « ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا اعطاه بها احدى ثلاث خصال : اما ان يُعَجَّلَ دعوته ، او يَدْخِرَ له من الخير مثلها ، او يصرفَ عنه من الشر مثلها . قالوا : يا رسول الله ، اذن نُكْثِرُ . قال : الله أَكْثَرُ » . رواه احمد بنحو هذا اللفظ واصله في صحيح مسلم .

ومنها : ان الدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب ، والسبب له شروط وموانع ، فاذا حصلت شروطه وانتفت موانعه : حصل المطلوب ، والا فلا يحصل ذلك المطلوب ، بل قد يحصل غيره ، وهكذا سائر الكلمات الطيبات من الاذكار الماثورة المعلق عليها جلب منافع او دفع مضار ، فان الكلمات بمنزلة الآلة في يد الفاعل ، تختلف باختلاف قوته وما يُعينها ، وقد يعارضها مانع من الموانع ، ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر من هذا الباب ، وكثيرا ما نجد ادعية دعا بها قوم فاستجيب لهم ، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه واقباله على الله ، او حسنة تقدمت منه ، جعل الله سبحانه اجابة دعوته شكر الحسنه ، او صادف وقت اجابة ، ونحو ذلك ، فاجيبت دعوته ، فيظن ان السر في ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الامور التي قارنته من ذلك الداعي .

● قال الطحاوي : (ويملك كل شيء ، ولا يملكه شيء ، ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين ، ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من اهل الحين . والله يغضب ويرضى ، لا كأحد من الوري) .

والحين : الهلاك .

ومذهب السلف وسائر الائمة : اثبات صفة الغضب ، والرضا ، والعداوة ، والولاية ، والحب ، والبغض ، ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة ، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى .

قال تعالى :

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) ١٨ / الفتح .

وقال سبحانه : (وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ) ٩٣ / النساء .

وفي قول الشيخ رحمه الله : « لا كأحد من الوري » : نفي التشبيه .

ولا يقال : ان الرضا : ارادة الاحسان ، والغضب : ارادة الانتقام ، فان هذا نفي للصفة .

ويقال لمن تأول الغضب والرضا بارادة الاحسان : لم تأولت ذلك ؟ فلا بد ان يقول : لأن الغضب : غليان دم القلب ، والرضا : الميل والشهوة ، وذلك لا يليق بالله تعالى . فيقال له : غليان دم القلب في الأدمي امر ينشأ عن صفة الغضب ، ويقال له ايضا : وكذلك الارادة والمشية فينا ، وهي ميل الحي الى الشيء او الى ما يلائمه ويناسبه ، فان الحي منا لا يريد الا ما يجلب له منفعة او

يدفع عنه مضرة ، وهو محتاج الى ما يريده ومفتقر اليه ، يزداد بوجوده ، وينقص بعدمه ، فالمعنى الذي صرفت اليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه ، سواء، فان جاز هذا : جاز ذاك ، وان امتنع هذا : امتنع ذاك .

فان قالوا : الارادة التي يوصف الله بها مخالفة^٩ للارادة التي يوصف بها العبد ، وان كان كل منهما حقيقة ، قيل له : فقل : ان الغضب والرضا الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد ، وان كان كل منهما حقيقة ، فاذا كان ما يقوله في الارادة يمكن ان يقال في هذه الصفات : لم يتعين التأويل ، بل يجب تركه ، لانك تسلم من التناقض ، وتسلم ايضا من تعطيل معنى اسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب ، فان صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب : حرام ، ولا يكون الموجب للصرف ما دل عليه عقله ، اذ العقول مختلفة ، فكل يقول : ان عقله دله على خلاف ما يقوله الآخر .

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى ، لامتناع مسمى ذلك في المخلوق ، فانه لا بد ان يثبت شيئا لله تعالى على خلاف ما يعهده ، حتى في صفة الوجود ، فان وجود العبد كما يليق به ، ووجود الباري تعالى كما يليق به ، فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم ، ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم ، وما سمي به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته ، مثل الحي ، والعليم ، والقدير ، او سمي به بعض صفاته ، كالغضب والرضا ، وسمى به بعض صفات عبادته : فنحن نعقل بقلوبنا معاني هذه الاسماء في حق الله تعالى ، وانه حق ثابت موجود ، ونعقل ان بين المعنيين قدرا مشتركا ، لكن هذا المعنى لا يوجد في الخارج مشتركا ، اذ المعنى المشترك الكلي لا يوجد مشتركا الا في الازمان ، ولا يوجد في الخارج الا مَعْنِيَا مختصا ، فيثبت في كل منهما كما يليق به .

● قال ابو جعفر : (ونحب اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نُفَرِّطُ في حب احد منهم ، ولا نتبرأ من احد منهم ، ونبغض من يبغضهم ، وبغير الخير يذكرهم ، ولا نذكرهم الا بخير ، وحبهم : دين وايمان واحسان ، وبُغضهم : كفر ونفاق وطغيان) .

وذلك لان الله تعالى اثنى على الصحابة هو ورسوله ورضي عنهم ، ووعدهم الحسنى كما قال تعالى
(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ١٠٠ / التوبة .

وقال تعالى :

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) ٢٩ / الفتح .
وفي الصحيحين عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال . كان بين خالد
ابن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء ، فسبَّه خالد ، فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « لَا تَسِبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي ، فَإِنْ أَحَدَكُمْ لَوْ انْفَقَ مِثْلَ
أَحَدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ » . فنهى مَنْ له صحبة أخرى ان
يسب من له صحبة أولى ، وهذا حال خالد الذي اسلم قبل فتح مكة ، فكيف حال
من ليس من الصحابة مع الصحابة ؟

واما ما يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اصحابي
كالنجوم ، بايهم اقتديتم : اهتديتم » فهو حديث ضعيف لا يصح ، وليس هو في
كتب الحديث المعتمدة .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن جابر ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » .

ولقد صدق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في وصفهم ، حيث قال :
« ان الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ، فاصطفاه
لنفسه ، وابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد صلى الله عليه
وسلم ، فوجد قلوب اصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه » .

وقول الطحاوي : « ويغضهم كفر ونفاق » تقدم الكلام في تكفير اهل
البدع ، وهذا الكفر نظير الكفر المذكور في قوله تعالى : (ومن لم يحكم بما انزل
الله فاولئك هم الكافرون) .

● قال الطحاوي : (وَنُتِبَتُ الْخِلَافَةُ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلًا لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، تَفْضِيلًا لَهُ
وَتَقْدِيمًا عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ) .

لكن اختلف اهل السنة في خلافة الصديق رضي الله عنه : هل كانت
بالنص ، او بالاختيار ؟ فذهب الحسن البصري وجماعة من اهل الحديث الى
انها ثبتت بالنص الخفي والاشارة ، ومنهم مَنْ قال : بالنص الجلي . وذهب
جماعة من اهل الحديث والمعتزلة والاشعرية الى انها ثبتت بالاختيار .

والدليل على اثباتها بالنص اخبار :

من ذلك ما اسنده البخاري عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ قَالَ : « اتت امرأة النبي »

صلى الله عليه وسلم ، فامرها ان ترجع اليه . قالت : رأيت ان جئت فلم أجذك ؟ - كأنها تريد الموت - قال : ان لم تجديني فاتي ابا بكر . وذكر له سياق آخر ، واحاديث آخر ، وذلك نص على امامته .

وحديث حذيفة بن اليمان ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا بالهذين من بعدي : ابي بكر وعمر » . رواه اهل السنن .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها وعن ابيها ، قالت : « دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي بُدِيَ فيه ، فقال : ادعي لي اباك واخاك ، حتى اكتب لابي بكر كتابا ، ثم قال : يا ابي الله والمسلمون الا ابا بكر » .

واحاديث تقديمه في الصلاة مشهورة معروفة ، وهو يقول : « مروا ابا بكر فليصل بالناس » .

وفي الصحيح انه صلى الله عليه وسلم قال علي منبره : « لو كنت متخذاً من اهل الارض خليلاً لاتخذت ابا بكر خليلاً . لا يبقين في المسجد خوخة الا سُدَّت ، الا خوخة ابي بكر » .

واحتج من قال : لم يستخلف ، بالخبر المأثور ، عن عبد الله بن عمر ، عن عمر ، رضي الله عنهما ، انه قال : « ان استخلف فقد استخلف من هو خير مني ، يعني ابا بكر ، وان لا استخلف فلم يستخلف من هو خير مني ، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عبد الله : فعرفت انه حين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مستخلف » .

والظاهر - والله اعلم - ان المراد انه لم يستخلف بعهد مكتوب ، ولو كتب عهدا لكتبه لابي بكر ، بل قد اراد كتابته ثم تركه وقال : « يا ابي الله والمسلمون الا ابا بكر » فكان هذا ابلغ من مجرد العهد ، فان النبي صلى الله عليه وسلم دل المسلمين على استخلاف ابي بكر ، وارشدهم اليه بامور متعددة من اقواله وافعاله ، واخبر بخلافته اخبار راض بذلك ، حامد له ، فلو كان التعيين مما يشتبه على الامة لبينه بيانا قاطعا للعذر .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان الله بعثني اليكم ، فقلتم : كذبت ، وقال ابو بكر : صدق ، وواساني بنفسه وماله » .

● قال الطحاوي : (ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه) .

اي ونُتبت الخلافة بعد ابي بكر رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه ، وذلك بتفويض ابي بكر الخلافة اليه ، واتفاق الامة بعده عليه ، وفضائله رضي الله عنه اشهر من ان تنكر ، واكثر من ان تذكر ، فقد روي عن محمد بن الحنفية انه قال لابيهِ علي بن ابي طالب رضي الله عنه « يا ابا عبد الله مَن خيرُ الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال يا بني ، او ما تعرف ؟ فقلت لا ، قال ابو بكر . قلت ثم مَن ؟ قال عمر . وخشيتُ ان يقول ثم عثمان ، فقلت ثم انت . فقال ما انا الا رجل من المسلمين . »

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : وُضع عمر على سريره ، فتكَنَّفَه الناسُ يدعون ويُثَنون ويصلون عليه ، قبل ان يُرفع ، وانا فيهم ، فلم يُرْعِنِي الا برجل قد اخذ بمنكبي من ورائي ، فالتفت اليه ، فاذا هو علي ، فترجَّع علي عمر ، وقال ما خلَّفت احدا احبَّ اليّ ان القى الله بمثل عمله منك . وأيم الله ان كنتُ لآظنُّ ان يجعلك الله مع صاحبك ، وذلك اني كنتُ اكثر ما اسمعُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « جئتُ انا وابو بكر وعمر ، ودخلت انا وابو بكر وعمر ، وخرجتُ انا وابو بكر وعمر » ، فان كنت لأرجو - او لأظنُّ - ان يجعلك الله معهما .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « إِيَّاهُ يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ، ما لقيك الشيطان سالكا فجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غيرَ فَجِّكَ » .

● قال : (ثم لعثمان رضي الله عنه) .

اي ونُتبت الخلافة بعد عمر لعثمان رضي الله عنهما ، وقد ساق البخاري رحمه الله قصةَ قتل عمر رضي الله عنه ، وامرَ الشورى والمبايعة لعثمان ، في صحيحه ، فاحببت ان اسردها كما رواها بسنده عن عمرو بن ميمون قال . رايتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل ان يصابَ بأيام بالمدينة وقف على حُذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف ، فقال : كيف فعلتما ؟ اتخافان ان تكونا قد حملتما الارضَ ما لا تطيق ؟

قالا حملناها امرا هي له مطيقة ، ما فيها كبيرُ فضل .

قال انظرا ان تكونا حملتما الارضَ ما لا تطيق .

قالا لا .

فقال عمر لئن سلمني الله لأدعنَّ اراملُ اهل العراق لا يَحْتَجُنْ الى رجلٍ بعدي ابدا

قال عمرو بن ميمون : فما انت عليه الا اربعة حتى اصيب .

قال : اني لقائم ما بيني وبينه الا عبد الله بن عباس غداة اصيب ، وكان اذا مرّ بين الصفيين قال : استنوا ، حتى اذا لم يرفهيهن خلا تقدم فكبر ، وربما قرأ سورة يوسف ، او النحل ، او نحو ذلك في الركعة الاولى ، حتى يجتمع الناس ، فما هو الا ان كبر فسمعه يقول : قتلني - او اكلني - الكلب ، حين طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا ، مات منهم سبعة ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين ، طرح عليه بُرنُسا ، فلما ظن العليج انه مأخوذ : نحر نفسه ، وتناول عمرُ يد عبد الرحمن بن عوف ، فقدمه ، فمن يلي عمر فقد رأى الذي ارى ، واما نواحي المسجد فانهم لا يدرون غير انهم قد فقدوا صوت عمر ، وهم يقولون سبحان الله ، سبحان الله ، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن عباس : انظر من قتلني ؟

فجال ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة .

قال : الصنع ؟

قال : نعم .

قال : قاتله الله ، لقد أمرتُ به معروفا ! الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الاسلام ، قد كنت انت وابوك تحبان ان تكثر العلوج بالمدينة - وكان العباس اكثرهم رقيقا - فقال : ان شئت فعلت ؟ اي : ان شئت قتلنا ، قال : كذبت ، بعدما تكلموا بلسانكم ، وصلّوا قبلتكم ، وحجّوا حجكم ؟

فاحتمل الى بيته ، فانطلقنا معه ، وكان الناس لم تُصِبه مصيبة قبل يومئذ ، فقائل يقول : لا بأس ، وقائل يقول : اخاف عليه ، فأتى بنبيذ فشربه ، فخرج من جوفه ، ثم أتى بلبن فشربه ، فخرج من جوفه ، فعرفوا انه ميت ، فدخلنا عليه ، وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : أبشريا امير المؤمنين ببشرى الله لك ، من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدم في الاسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة .

قال : وددت ان ذلك كفاف ، لا علي ولا لي .

فلما ادبر اذا ازاره يمس الارض ، قال : ردوا علي الغلام ، قال : يا ابن اخي : ارفع ثوبك ، فانه ابقى لثوبك ، واتقى لريك . يا عبد الله بن عمر : انظر ما علي من الدين ؟

فحسبوه ، فوجدوه ستة وثمانين الفا او نحوه .

قال . إن وقي له مال آل عمر فادّه من أموالهم ، والا فسك في بني عدي بن كعب ، فان لم تف أموالهم فسك في قريش ، ولا تعدّهم الى غيرهم ، فأدّ عني هذا المال . انطلق الى عائشة ام المؤمنين ، فقل . يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل امير المؤمنين ، فاني لست اليوم للمؤمنين اميرا ، وقل يستأذن عمر بن الخطاب ان يدفن مع صاحبيه .

فسلم واستأذن ، ثم دخل عليها ، فوجدها قاعدة تبكي ، فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ، ويستأذن ان يدفن مع صاحبيه .

ف قالت : كنت أريده لنفسى ، ولأوثرن به اليوم على نفسى .

فلما اقبل ، قيل : هذا عبدالله بن عمر قد جاء .

قال : ارفعوني .

فاسنده رجل اليه .

قال : ما لديك ؟

قال : الذي تحب يا امير المؤمنين ، أذنت .

قال . الحمد لله ، ما كان شيء اهم الي من ذلك ، فاذا انا قضيت فاحملوني ، ثم سلم فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فان اذنت لي فادخلوني ، وان ردّتنى : ردوني الى مقابر المسلمين .

وجاءت ام المؤمنين حفصة - والنساء يسترنها - فلما رايناها قمنا ، فولجت عليه ، فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال ، فولجت داخلا لهم ، فسمعنا بكاءها من الداخل ، فقالوا : اوص يا امير المؤمنين ، استخلف ؟

قال : ما اجد احق بهذا الامر من هؤلاء النفر - او الرهط - الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فسمي عليا ، وعثمان ، والزبير ، وطلحة ، وسعدا ، وعبدالرحمن . وقال : يشهدكم عبدالله بن عمر ، وليس له من الامر شيء ، كهينة التعزية له ، فان اصابته الامارة سعدا فهو ذاك ، والا فليستعن به ايكم ما امّر ، فاني لم اعزله من عجز ولا خيانة . وقال اوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الاولين ، ان يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، واوصيه بالانصار خيرا ، الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم ، ان يقبل من محسنهم ، وان يُعفى عن مسيئتهم ، واوصيه باهل الامصار خيرا ، فانهم رداء الاسلام ، وجباة الاموال ، وغيظ العدو ، وان لا يأخذ منهم الا فضلهم ، عن رضاهم ، واوصيه بالاعراب خيرا ، فانهم اصل العرب ، ومادة الاسلام ، ان يأخذ من حواشي أموالهم ، وترد على فقرائهم ، واوصيه بزمة الله

وذمة رسوله ، ان يوفى لهم بعهدهم ، وان يقاتل من ورائهم ، ولا يكفوا الا طاعتهم .

فلما قبض : خرجنا به ، فانطلقنا نمشي ، فسلم عبدالله بن عمر ، قال يستأذن عمر بن الخطاب .

قالت : ادخلوه .

فأدخل ، فوضع هناك مع صاحبيه . فلما فرغ من دفنه : اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبدالرحمن : اجعلوا امركم الى ثلاثة منكم .

قال الزبير : قد جعلت امري الى علي .

فقال طلحة : قد جعلت امري الى عثمان .

وقال سعد : قد جعلت امري الى عبدالرحمن بن عوف .

فقال عبدالرحمن : ايكما تبرأ من هذا الامر فنجعله اليه ؟ والله عليه والاسلام . لينظرن افضلهم في نفسه .

فاسكت الشيخان .

فقال عبدالرحمن : افتجعلونه الي ؟ والله علي ان لا آلو عن افضلكم .

قالا : نعم .

فاخذ بيد احدهما ، فقال : لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقدم في الاسلام ما قد علمت ، فالله عليك لئن امرتك لتعدلن ، ولئن امرت عثمان لتسمعن ولتطيعن .

ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك .

فلما اخذ الميثاق قال : ارفع يدك يا عثمان ، فبايعه ، فبايع له علي ، وولج اهل الدار فبايعوه .

وروى البخاري ايضا عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف : ان المشور بن مخرمة اخبره : ان الرهط الذين ولاهم عمر اجتمعوا فتشاوروا ، فقال لهم عبدالرحمن : لست بالذي أنافسكم عن هذا الامر ، ولكنكم ان شئتم اخترت لكم منكم ؟

فجعلوا ذلك الى عبدالرحمن ، فلما ولوا عبدالرحمن أمرهم ، فمال الناس على عبدالرحمن ، حتى ما ارى احدا من الناس يتبع اولئك الرهط ولا يطأ

عقبه . ومال الناس على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالي ، حتى اذا كانت تلك الليلة التي اصبحت فيها فبايعنا عثمان .

قال المسور بن مخرمة . طرقتني عبد الرحمن بعد هُجْعٍ من الليل ، فضرب الباب حتى استيقظت ، فقال : اراك نائما ! فوالله ما اكتحلت هذه الثلاث بكبير نوم ، انطلق فادع الزبير وسعدا .

فدعوتهما له ، فشاورهما ، ثم دعاني ، فقال : ادع لي عليا ، فدعوته ، فناجاه حتى ابهر الليل ، ثم قام علي من عنده وهو على طمع ، وقد كان عبد الرحمن يخشى من علي شيئا . ثم قال : ادع لي عثمان ، فدعوته ، فناجاه حتى فرّق بينهما المؤذن بالصبح ، فلما صلى الناس الصبح ، واجتمع اولئك الرهط عند المنبر ، فارسل الى من كان حاضرا من المهاجرين والانصار ، وارسل الى امراء الاجناد ، وكانوا واقفا تلك الحجة مع عمر ، فلما اجتمعوا : تشهد عبد الرحمن ثم قال : اما بعد ، يا علي اني قد نظرت في امر الناس ، فلم اراهم يعدلون بعثمان ، فلا تجعلن على نفسك سبيلا . فقال : ابايعك على سنة الله ورسوله والخلفين من بعده . فبايعه عبد الرحمن ، وبايعه الناس ، والمهاجرون والانصار ، وامراء الاجناد ، والمسلمون .

ومن فضائل عثمان رضي الله عنه الخاصة : كونه ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنتيه .

وفي صحيح مسلم ، عن عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مضطجعا في بيته ، كاشفا عن فخذه - او ساقيه - فاستاذن ابو بكر ، فاذن له وهو على تلك الحال ، فتحدث . ثم استاذن عمر ، فاذن له وهو كذلك ، فتحدث . ثم استاذن عثمان ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسوى ثيابه ، فدخل فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة : دخل ابو بكر فلم تهتش له ولم تباليه ، ثم دخل عمر فلم تهتش ولم تباليه ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ؟ فقال : الا استحي من رجل تستحي منه الملائكة ؟ » .

● قال : (ثم لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه) .

اي : وثبتت الخلافة بعد عثمان لعلي رضي الله عنه ، لما قُتل وبايع الناس عليا : صار اماما حقا واجب الطاعة ، وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم . « خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله مملكه من يشاء » .

وكانت خلافة ابي بكر الصديق سنتين وثلاثة اشهر ، وخلافة عمر عشر سنين ونصفا ، وخلافة عثمان اثنتي عشر سنة ، وخلافة علي اربع سنين وتسعة اشهر . واول ملوك المسلمين : معاوية ، لكنه انما صار اماما حقا لما فُوض اليه الحسن بن علي رضي الله عنه الخلافة ، فان الحسن رضي الله عنه بايعه اهل العراق بعد موت ابيه ، ثم بعد ستة اشهر فُوض الامر الى معاوية ، وظهر صدق قول النبي صلى الله عليه وسلم :

« ان ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » .

فبالخلافة ثبتت لامير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه بعد عثمان رضي الله عنه ، بمبايعة الصحابة ، سوى معاوية مع اهل الشام ، والحق مع علي رضي الله عنه . فان عثمان رضي الله عنه لما قُتل : كثر الكذب والافتراء على عثمان وعلي ، وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال ، وقويت الشهوة في نفوس ذوي الاهواء والاغراض ، ممن بعدت داره من اهل الشام ، وكان في عسكر علي رضي الله عنه — من اولئك الطغاة الخوارج ، الذين قتلوا عثمان — من لم يُعرف بعينه ، ومن تنتصر له قبيلته ، ومن لم يقيم عليه حُجة بما فعله ، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من اظهاره كله ، ورأى طلحة بن عبيد الله والزيير بن العوام رضي الله عنهما ، انه ان لم يُنتصر للشهيد المظلوم ويُقمع اهل الفساد والعدوان والا استوجبوا غضب الله وعقابه ، فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي ، ولا من طلحة والزيير ، وانما اثارها المفسدون بغير اختيار السابقين ، ثم جرت فتنة صفين ، لرأي ، وهو ان اهل الشام لم يُعدل عليهم ، او لا يمكن من العدل عليهم — وهم كافون — حتى تجتمع الامة ، وانهم يخافون طغيان من في العسكر ، كما طغوا على الشهيد المظلوم ، وعلي رضي الله عنه هو الخليفة الراشد المهدي الذي تجب طاعته ، ويجب ان يكونوا مجتمعين عليه ، فاعتقد ان الطاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم ، ولم يعتقد ان التآليف لهم كتآليف المؤلفة قلوبهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخليفتين من بعده مما يسوغ ، فحملة ما راه — من ان الدين : اقامة الحد عليهم ومنعهم من الاثارة دون تأليفهم — على القتال ، وقعد عن القتال اكثر الاكابر ، لما سمعوه من النصوص في الامر بالقعود في الفتنة ، ولما راوه من الفتنة التي تربو مفسدتها على مصلحتها .

ونقول في الجميع بالحسنى .

(رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

١٠ / الحشر .

والفتن التي كانت في أيام علي رضي الله عنه قد ضان الله عنها ايدينا ،
فنسأل الله ان يصون عنها السنتنا ، بمنه وكرمه

ومن فضائل امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه ما في
الصحيحين عن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه
وسلم لعلي « اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى » .

وفي صحيح البخاري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لأعطين
الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه » قال سهل بن سعد الساعدي رضي الله
عنه « فبات الناس يدوكون ليلتهم ، أيهم يُعطاها ؟ فلما أصبح الناس
غَدُوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . كلهم يرجو ان يُعطاها ، فقال :
ابن علي بن ابي طالب ؟ فقالوا : يشتكي عينيه يا رسول الله . قال :
فأرسلوا اليه فاتوني به ، فلما جاء : بصق في عينيه ودعا له ، فبرا حتى
كان لم يكن به وجع ، فاعطاه الراية ، فقال علي : يا رسول الله : اقللهم
حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : أنفذ علي رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم
الى الاسلام ، واخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لان يهدي
الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من ان يكون لك حُمْر النعم » « ففتح الله
عليه » .

● قال : (وهم الخلفاء الراشدون ، والائمة المهديون) .

لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء
الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ،
وإياكم ومحدثات الامور ، فان كل بدعة ضلالة » .

رواه اصحاب السنن الاربعة ، وصححه الترمذي .

وترتيب الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم اجمعين في الفضل كترتيبهم في
الخلافة ، وعلى هذا عامة اهل السنة ، وفي صحيح البخاري عن ابن عمر قال :
كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي : افضل امة النبي صلى الله عليه
وسلم بعده ابو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان .

● قال الطحاوي : (وأن العشرة الذين سمّاهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم وبشرهم بالجنة : نشهد لهم بالجنة ، على ما شهد
لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله الحق ، وهم : ابو
بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ،
وهو سيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وابوعبيدة بن الجراح ، وهو

امين هذه الامة ، رضي الله عنهم اجمعين) .

وقد تقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الاربعة . ومن فضائل الستة الباقين ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت :

« أُرِقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فقال : ليت رجلاً صالحاً من اصحابي يحرسني الليلة . قالت : وسمعنا صوت السلاح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ هذا ؟ فقال سعد بن ابي وقاص : يا رسول الله : جئت لاحرسك » « فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام » . وفي الصحيحين « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع لسعد بن ابي وقاص ابويه يوم أُحُد ، فقال : إرم فداك ابي وامي » .

وفي صحيح البخاري عن قيس بن ابي حازم قال : رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد قد شلت .

وفي الصحيحين عن ابي عثمان النهدي قال : لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض تلك الايام التي فيها النبي صلى الله عليه وسلم غير طلحة وسعد .

وفي الصحيحين - واللفظ لمسلم - عن جابر بن عبد الله قال « نَدَب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس يوم الخندق ، فانتدب الزبير ، ثم ندبهم ، فانتدب الزبير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لكل نبي حوارٍ ، وحواري الزبير » .

وفي صحيح مسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان لكل امة اميناً ، وان اميننا - ايتها الامة - ابو عبيدة بن الجراح » .

وفي مسند احمد وجامع الترمذي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال

« ابو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعلي في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير بن العوام في الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة ، وابو عبيدة بن الجراح في الجنة » .

وسعيد هو ابن زيد بن عمرو بن نُفيل القرشي ، وكان ابوه على ملة ابراهيم من الاحناف .

وقد اتفق اهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم ، لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم

● قال الطحاوي : (وَمَنْ أَحْسَنَ الْقَوْلَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ مِنْ كُلِّ دَنْسٍ ، وَذُرِّيَّاتِهِ الْمُقَدَّسِينَ مِنْ كُلِّ رَجَسٍ : فَقَدْ بَرِيَءٌ مِنَ النِّفَاقِ) .

وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم :

« انا تارك فيكم ثقلين : اولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ، فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال : واهل بيتي ، اذكركم الله في اهل بيتي » .

● قال : (وَعُلَمَاءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِينَ ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ - اَهْلُ الْخَيْرِ وَالْاَثَرِ ، وَاهْلُ الْفَقْهِ وَالنَّظَرِ - لَا يُذَكَّرُونَ إِلَّا بِتَجْمِيلٍ ، وَمَنْ ذَكَرَهُمْ بِسَوْءٍ فَهُوَ عَلَى غَيْرِ السَّبِيلِ) .

لقول الله تعالى : (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) ١١٥ / النساء .
فيجب على كل مسلم بعد موالاته الله ورسوله : موالاته المؤمنين ، كما نطق به القرآن ، خصوصاً الذين هم ورثة الانبياء ، وهم متفقون اتفاقاً يقيناً على وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن اذا وُجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه : فلا بُدَّ له في تركه من عذر . وجماع الاعذار ثلاثة اصناف :

احدها : عدم اعتقاده ان النبي صلى الله عليه وسلم قاله

والثاني : عدم اعتقاده انه اراد تلك المسألة بذلك القول .

والثالث : اعتقاده ان ذلك الحكم منسوخ .

فلهم الفضل علينا والمِنَّةُ بالسبق ، وتبليغ ما ارسل به الرسول صلى الله عليه وسلم الينا ، وايضاح ما كان منه يخفى علينا ، فرضي الله عنهم وارضاهم .

● قال : (وَلَا تُفْضَلُ أَحَدًا مِنَ الْاَوْلِيَاءِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْاَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَنَقُولُ : نَبِيٌّ وَاحِدٌ اَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْاَوْلِيَاءِ) .

اذ ان مقام النبوة هو اعلی المقامات باتفاق اهل السنة .

● قال : (ونؤمن بما جاء من كراماتهم ، وصحّ عن الثقات من رُواياتهم) .

والمعجزة في اللغة تعم كل خارقة ، وكذلك الكرامة في عُرف ائمة اهل العلم المتقدمين ، ولكن كثيرا من المتأخرين يفرقون في اللفظ بينهما ، فيجعلون المعجزة للنبي ، والكرامة للولي ، وجماعها : الامر الخارق للعادة .

والكمال يرجع الى ثلاثة : العلم ، والقدرة ، والغنى ، وهذه الثلاثة لا تصلح على الكمال الا لله وحده ، فانه الذي احاط بكل شيء علما ، وهو على كل شيء قدير ، وهو غني عن العالمين . ولهذا امر النبي صلى الله عليه وسلم ان يتبرا من دعوى هذه الثلاثة بقوله (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا بَعِثُ إِلَّا رُسُلًا إِلَىٰ) ٥٠ / الانعام .

وكذلك قال نوح عليه السلام ، فهذا اول اولي العزم ، واول رسول بعثه الله الى اهل الارض ، وهذا خاتم الرسل ، وخاتم اولي العزم ، وكلاهما تبرأ من ذلك، وهذا لانهم يطالبونهم تارة بعلم الغيب ، كقوله تعالى :

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا) ١٨٧ / الاعراف .

وتارة بالتأثير ، كقوله تعالى :

(وَقَالُوا إِن نُّؤْمِنُ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ نَارًا مِّنَ الْأَرْضِ يَنبُتُهَا) ٩٠ / الاسراء .

وتارة يعيبون عليهم الحاجة البشرية ، كقوله تعالى :

(وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) ٧ / الفرقان .

فأمر الرسول ان يخبرهم بأنه لا يملك ذلك ، وانما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله ، فيعلم ما علمه الله اياه ، ويستغني عما اغناه الله عنه ، ويقدر على ما اقدره عليه من الامور المخالفة للعادة المطردة ، او عادة اغلب الناس .

فجميع المعجزات والكرامات ما تخرج عن هذه الانواع :

ثم الخارق ان حصل به فائدة مطلوبة في الدين : كان من الاعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً ، اما واجب او مستحب ، وان حصل به امر مباح . كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً ، وان كان على وجه يتضمن ما هو منهى عنه نهى تحريم او نهى تنزيه : كان سبباً للعذاب او البغض .

فالخارق ثلاثة انواع محمود في الدين ، ومذموم ، ومباح ، فان كان المباح فيه منفعة كان نعمة ، والا فهو كسائر المباحات التي لا منفعة فيها .

قال ابو علي انبوزجاني كن طالبا للاستقامة ، لا طالبا للكرامة ، فان
نفسك متحركة في طلب الكرامة ، وربك يطلب منك الاستقامة .

قال الشيخ السهروردي في عوارفه . ولهذا ضل كثير في هذا الباب ، فان
كثيرا من المجتهدين المعتدين سمعوا سلف الصالحين المتقدمين ، وما منحوا من
الكرامات وخوارق العادات ، فنفوسهم لا تزال تتطلع الى شيء من ذلك ، ويحبون
ان يُرزقوا شيئا منه ، ولعل احدهم يبقى منكسر القلب متهما لنفسه في صحة
عمله ، حيث لم يحصل له خارق ، ولو علموا بسر ذلك لهان عليهم الامر ، فيعلم
ان الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك بابا ، ليزداد بما جرى من
خوارق العادات واثار القدرة يقينا ، فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا ،
والخروج عن دواعي الهوى . فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة ،
فهي كل الكرامة .

واعلم ان المسلم اذا لم ينكشف له شيء من المغيبات ، ولم يُسخر له شيء
من الكونيات . لا ينقصه ذلك في مرتبته عند الله ، بل قد يكون عدم ذلك انفع
له ، فانه ان اقترن به الدين والا هلك صاحبه في الدنيا والآخرة ، فان الخارق قد
يكون مع الدين ، وقد يكون مع عدمه او نقصه ، فالخوارق النافعة تابعة
للدن ، خادمة له ، كما ان الرياسة النافعة هي النافعة للدين ، وكذلك المال
النافع ، فمن جعلها هي المقصودة ، وجعل الدين تابعا لها ووسيلة اليها فهو
شبيه بمن يأكل الدنيا بالدين ، وليست حاله كحال من تدبّر خوف العذاب او
رجاء الجنة .

ثم ان الدين اذا صح علما وعملا فلا بد ان يوجب خرق العادة اذا احتاج
الى ذلك صاحبه . قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) ٢ و ٣ / الطلاق .
وقال تعالى : (اِنْ تَقْرَأُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) ٢٩ / الانفال .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ، فانه
ينظر بنور الله . ثم قرا قوله تعالى : ان في ذلك لآيات للمتوسمين » . رواه
الترمذي .

وفي الحديث القدسي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله
تعالى قال : « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالمُحَارَبَةِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي
بِمِثْلِ آدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى
أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ ،
وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ ،
وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ » .

● قال الطحاوي رحمه الله : (ونؤمن بأشراط الساعة ، من خروج الدجال ، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها ، وخروج دابة الارض من موضعها) .

فعن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال :

« اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : ما تذكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة . فقال : انها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات ، فذكر : الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، وياجوج وماجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم » رواه مسلم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من نبي الا انذر قومه الاعور الدجال ، الا انه اعور ، وربكم ليس باعور ، ومكتوب بين عينيه : ك ف ر » وفسره في رواية : « اي : كافر » حديث صحيح .

وروى البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ، ليوشكن ان ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله احد ، حتى تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها » .

واما خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب ، فقال تعالى :

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) (٨٢ / النمل) .

وروى البخاري عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فاذا رآها الناس : آمن من عليها ، فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل » .

● قال ابو جعفر : (ولا نصدق كاهناً ولا عرافاً ، ولا من يدعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة) .

لقول النبي صلى الله عليه وسلم

« مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَالَهُ عَنْ شَيْءٍ : لَمْ يَقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً »
رواه مسلم .

وفي حديث آخر

« مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَقَهُ بِمَا يَقُولُ : فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ » رواه الإمام أحمد بن حنبل .

والمنجم يدخل في اسم العراف .
فإذا كانت هذه حال السائل ، فكيف بالمسؤول ؟

وفي الصحيحين عن عائشة قالت : « سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْكُهَّانِ فَقَالَ : لَيْسُوا بِشَيْءٍ » . فقالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطِفُهَا الْجِنِّي فَيَقْرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ ، فَيَخْلُطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذِبَةٍ » .

ويدخل في هذا المعنى أيضا : صاحب الإزلام التي يُسْتَقَسَمُ بها ، والضارب بالحصى ، والذي يَخُطُّ في الرمل ، وما تعاطاه هؤلاء حرام ، بالاجماع ، كما قال البغوي والقاضي عياض .

وفي صحيح البخاري انه كان لابي بكر غلام ، فجاء يوما بشيء ، فاكل منه ابو بكر ، فقال له الغلام ، تدري ممَّ هذا ؟ قال : وما هو ؟ قال : كنت تكهنت لانسان في الجاهلية ، وما أحسن الكهانة ، الا اني خدعته ، فلقيني ، فاعطاني بذلك ، فهذا الذي اكلت منه ، فادخل ابو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه .

والواجب على ولي الامر وكل قادر ان يسعى في ازالة هؤلاء المنجمين والكهان والعرافين ، واصحاب الضرب بالرمل والحصى ، ومنعهم من الجلوس في الحوانيت والطرقات ، او يدخلوا على الناس في منازلهم .

وهؤلاء الذين يفعلون هذه الافعال الخارجة عن الكتاب والسنة انوا نوع منهم اهل تلبيس وخداع ، الذين يظهر احدهم طاعة الجن له من المشائخ النصابين ، والطرقية الكاذبين ، فهؤلاء يستحقون العقوبة البليغة التي تردعهم وامثالهم عن التلبيس . وقد يكون في هؤلاء من يستحق القتل ، كمن يدعي النبوة . ونوع يتكلم في هذه الامور على سبيل الجد ، بانواع السحر ، وجمهور العلماء يوجبون قتل الساحر ، كما هو مذهب ابي حنيفة ومالك واحمد ، وهذا هو المأثور عن الصحابة ، كعمر وعثمان وغيرهم .

وقد تنازع العلماء في حقيقة السحر وانواعه ، والاكثرون يقولون : انه قد يؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر اليه . وزعم بعضهم انه مجرد تخيل . واتفقوا كلهم على ان ما كان من جنس الدعوة الكواكب السبعة ، او السجود لها ، والتقرب اليها بما يناسبها من اللباس والخواتم والبخور ، ونحو ذلك ، فانه كفر وهو من اعظم انواع الشرك ، فيجب غلقه .

واتفقوا كلهم ايضا على ان كل رقية وتعزيم او قسم ، فيه شرك بالله ، فانه لا يجوز التكلم به ، وان اطاعته به الجن . وكذلك كل كلام فيه كفر لا يجوز التكلم به ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا باس بالرقى ما لم تكن شركا » .

ولا يجوز الاستعاذة بالجن ، فقد ذم الله الكافرين على ذلك ، فقال تعالى :

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) ٦ / الجن .

قالوا : كان الانسي اذا نزل بالوادي يقول : اعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه .

وقد قال الله تعالى :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ بِأَيِّكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝)

قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)

٤٠ و ٤١ / سبأ .

فهؤلاء الذين يزعمون انهم يدعون الملائكة ضالون ، وانما تنزل عليهم الشياطين .

والواجب عرض افعال الجميع على الشريعة المحمدية ، فما وافقها : قبل ، وما خالفها رد ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » . فلا طريقة الا طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا حقيقة الا حقيقته ، ولا عقيدة الا عقيدته ، ولا يصل احد من الخلق بعده الى الله والى رضوانه وجنته الا بمتابعتة ظاهرا وباطنا ، ومن لم يكن له مصدقا فيما اخبر ، ملتزما لطاعته فيما امر ، في الامور الباطنة التي في القلوب ، ولا اعمال الظاهرة التي على الابدان : لم يكن مؤمنا ، فضلا عن ان يكون وليا لله تعالى ، ولو طار في الهواء ، واخرج الذهب من الخشب ، وحصل له من الخوارق ماذا عسى ان يحصل ، فانه لا يكون — مع تركه الفعل المأمور — الا من اهل الاحوال الشيطانية .

وكذلك الذين يُصعقون عند سماع الانغام الحسنة ، مبتدعون ضالون ، ولم يكن في الصحابة والتابعين من يفعل ذلك ، ولو عند سماع القرآن ، بل كانوا كما وصفهم الله تعالى : (إِذَا ذُكِّرُوا بِهِ فَحَرَّتْ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) ٢ / الانفال .

وما يحصل لبعضهم عند سماع الانغام المطرية ، من الهذيان ، والتكلم ببعض اللغات المخالفة للسان المعروف منه ، فذلك شيطان يتكلم على لسانه .

واما الذين ذكرهم العلماء بخير من عقلاء المجانين ، فاولئك كان فيهم خير ، ثم زالت عقولهم ، فاذا حصل في جنونهم نوع من الصحو: تكلموا بما كان في قلوبهم من الايمان .

واما الذين يتعبدون بالرياضات ، من الجوع والتعري وتعذيب الجسد ، وبالخلوات والغزلة ، ويتركون الجُمع والجماعات ، فهم الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ، كما قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من ترك ثلاث جُمع قهاونا من غير عذر : طبع الله على قلبه » وكل من عدل عن اتباع سنة الرسول ، ان كان عالما بها ، فهو مفضوب عليه ، والا فهو ضال ، ولهذا شرع الله لنا ان نسأله كل صلاة ان يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعم عليهم ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحَسُنَ اولئك رفيقا .

واما ما يتعلق بقصة موسى مع الخضر عليه السلام ، في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم الدُّني ، الذي يدَّعيه بعض من عدم التوفيق : فهو ملحد زنديق ، فان موسى عليه السلام لم يكن مبعوثا الى الخضر ، ولم يكن الخضر مأمورا بمتابعتة ، ولهذا قال له : انت موسى بنى اسرائيل ؟ قال : نعم ، كما في صحيح البخاري ، ومحمد صلى الله عليه وسلم مبعوث الى جميع الثقليين ، ولم كان موسى وعيسى حينئذ لكانا من اتباعه ، واذا نزل عيسى عليه السلام الى الارض انما يحكم بشريعة محمد ، فمن ادعى انه مع محمد صلى الله عليه وسلم كالخضر مع موسى ، او جوز ذلك لاحد من الامة : فليجدد اسلامه ، فانه مفارق لدين الاسلام بالكلية ، فضلا عن ان يكون من اولياء الله ، وانما هو من اولياء الشيطان .

● قال الطحاوي : (ونرى الجماعة حقا وصوابا ، والفرقة زيغا وعذابا) .

وذلك لقوله تعالى

(وَاتَّخِذُوا مِنْ حَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) ١٠٢ / آل

وقال تعالى :

(وَلَا تَحْكُمُوا بِكَالِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَآخَذُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

١٠٥ / آل عمران .

وقال سبحانه : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْمًا لَتَكُنَّ مِنْهُمْ فُتْنٌ لَكُمْ أَلَمْ يُحَرِّمْ

إِلَّا اللَّهُ لِمُتَّبِعِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) ١٥٩ / الانعام .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان اهل الكتابين افرقوا في دينهم

على ثنتين وسبعين ملة ، وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة -

يعني الاهواء - كلها في النار الا واحدة ، وهي الجماعة . وفي رواية :

« قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : ما انا عليه واصحابي . فبين ان عامة

المختلفين ما يكون الا اهل السنة والجماعة ، وان الاختلاف واقع لا محالة .

وروى الامام احمد عن معاذ بن جبل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« ان الشيطان ذئب الانسان ، كذئب الغنم ، ياخذ الشاة القاصية

والناحية ، فلياكم والشعاب ، وعليكم بالجماعة ، والعمامة ، والمسجد » .

والامور التي تتنازع فيها الامة - في الاصول والفروع - اذا لم ترد الى

الله والرسول : لم يتبين فيها الحق ، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من

امرهم ، فانهم - ان رحمهم الله - أقر بعضهم بعضا ، ولم يبلغ بعضهم على

بعض ، كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل

الاجتهاد ، فيقر بعضهم بعضا ، ولا يعتدي ولا يعتدى عليه ، وان لم يرحموا :

وقع بينهم الاختلاف المذموم ، فبقي بعضهم على بعض ، اما بالقول : مثل

تكفيره وتفسيره ، واما بالفعل ، مثل حبسه وضربه وقتله . والذين امتحنوا

الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء ، ابتدعوا بدعة ، وكفروا من خالفهم فيها ،

واستحلوا مذبحة عقوبته .

فالناس اذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول : اما عادلون واما

ظالمون ، فالعادل فيهم : الذي يعمل بما وصل اليه من آثار الانبياء ، ولا يظلم

غيره . والظالم : الذي يعتدي على غيره ، واكثرهم انما يظلمون مع علمهم بانهم

يظلمون ، كما قال الله تعالى :

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُولُوا الْأَسْكَنْتَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ) ١٩ / آل عمران .

والا فلو سلخوا ما علموه من العدل : أقر بعضهم بعضا ، كالمقلدين لائمة

العلم ، الذين يعرفون من انفسهم انهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في

تلك المسائل ، فجعلوا انتمهم نوابا عن الرسول ، وقالوا : هذا غاية ما قدرنا

عليه . فالعادل منهم لا يظلم الآخر ، ولا يعتدي عليه بقول ولا فعل ، مثل ان يدعي ان قول مقلده هو الصحيح ، بلا حجة يبيدها ، ويذم من خالفه ، مع انه معذور .

ثم ان انواع الافتراق والاختلاف في الاصل قسيمان : اختلاف تنوع ، واختلاف تضاد .

واختلاف التنوع على وجوه : منه ما يكون كل واحد من القولين او الفعلين حقا مشروعاً ، كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة رضي الله عنهم ، حتى زجرهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « كلاكما محسن » . ومثله اختلاف الانواع في صفة الأذان ، والاقامة ، والاستفتاح ، ومحل سجود السهو ، والتشهد ، وصلاة الخوف ، وتكبيرات العيدين ، ونحو ذلك مما قد شرع جميعه ، وان كان بعض انواعه ارجح وافضل ، ثم تجد لكثير من الامة في ذلك من الاختلاف ما اوجب اقتتال طوائف منهم على شفع الاقامة وايتارها ، ونحو ذلك ، وهذا عين المحرم ، ومنه ما يكون كل من القولين هو في معنى القول الآخر ، لكن العبارتين مختلفتان ، كما قد يختلف كثير من الناس في التعبير عن المسميات .

واما اختلاف التضاد : فهو القولان المتنافيان ، اما في الاصول ، واما في الفروع ، والخطب في هذا اشد ، لأن القولين يتنافيان ، لكن نجد كثيراً من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حق ما ، او معه دليل يقتضي حقا ما ، فيرد الحق مع الباطل ، حتى يبقى هذا مبطلا في البعض ، كما كان الاول مبطلا في الاصل ، وهذا يجري كثيراً لاهل السنة .

واما اهل البدعة : فالامر فيهم ظاهر ، ومن جعل الله له هداية ونورا رأى من هذا ما يبين له منفعة ما جاء في الكتاب والسنة من النهي عن هذا واشباهه ، وان كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا ، لكن نور على نور .

والاختلاف الاول - الذي هو اختلاف التنوع - الذم فيه واقع على من بغى على الآخر فيه ، وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك اذا لم يحصل بغى ، كما في قوله تعالى :

(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا فَأَيْمَةٌ عَلَىٰ أُنُوسِهِمْ فِيهِذِهِ الْقُرْآنُ) ٥ / الحشر .

وقد كانوا اختلفوا في قطع اشجار النخيل يوم غزوة بني النضير .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « اذا اجتهد الحاكم فاصاب فله اجران ، واذا اجتهد فخطا فله اجر » .

والاختلاف الثاني هو ما حُمد فيه إحدى الطائفتين ، وذُمت الأخرى ،
كما في قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ
وَلَنَكُنَّ مِنْهُمْ أُمَّةً مِّنْ ءَٰمِنٍ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ) ٢٥٣ / البقرة .
واكثر الاختلاف في القرآن ، انما هو في تأويله ، والنجاة منه تكون باتباع
ما ارشدها اليه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عمرو بن شعيب ، عن ابيه ،
عن جده قال

« خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على اصحابه ذات يوم وهم
يختصمون في القدر ، هذا ينزع باية ، وهذا ينزع باية ، فكانما فقيء في
وجهه حب الرمان ، فقال : ابهذا امرتم ؟ ام بهذا وكلكم ؟ ان تضربوا كتاب
الله ببعضه ببعض ؟ انظروا ما امرتم به فاتبعوه ، وما نهيتم عنه
فانتهوا » . رواه الامام احمد في المسند .

وفي رواية : « يا قوم : بهذا ضلّت الامم قبلكم ، باختلافهم على
انبيائهم ، وضربهم الكتاب ببعضه ببعض ، وان القرآن لم ينزل لتضربوا
بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن يصدق بعضه بعضا ، ما عرفتم منه
فاعملوا به ، وما تشابه فامنوا به » .

وفي رواية « فان الامم قبلكم لم يلعنوا حتى اختلفوا ، وان المرء في
القرآن : كفر » .

وهو حديث مشهور ، مُخرَج في المسانيد والسنن ، وقد روى اصل
الحديث مسلم في صحيحه ، من حديث عبد الله بن رباح الانصاري ، ان عبد الله
ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال :

« هَجَرْتُ الى النبي صلى الله عليه وسلم يوما ، فسمع اصوات رجلين
اختلفا في آية ، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرف في وجهه
الغضب فقال : انما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب » .

وجميع اهل البدع مختلفون في تأويله ، مؤمنون ببعضه دون بعض ،
يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات ، وما يخالفه : اما ان يتأوله تأويلا يحرفون
به الكلم عن مواضعه ، واما ان يقول : هذا مما لا نفهم معانيه ، وهو في معنى
الكفر بذلك ، لأن الايمان باللفظ بلا معنى هو من جنس ايمان اهل الكتاب ، كما
قال الله تعالى : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي) ٧٨ / البقرة .

اي الا تلاوة من غير فهم لعناه ، وليس هذا كالمؤمن الذي فهم ما فهم
من القرآن فعمل به ، واشتبه عليه بعضه ، فوكل علمه الى الله .

● قال ابو جعفر : (ودين الله في الارض والسماء واحد ، وهو دين الاسلام . قال تعالى : ان الدين عند الله الاسلام . وقال تعالى : ورضيت لكم الاسلام ديناً ، وهو بين الغلو والتقصير ، وبين التشبيه والتعطيل ، وبين الجبر والقدر ، وبين الامن والاياس) .

كما ثبت في الصحيح عن ابي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « انا معاشر الانبياء ديننا واحد » .

وقال تعالى : (وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) ٨٥ / آل عمران .

وهي آية حكمها عام في كل زمان ، ولكن الشرائع تختلف ، كما قال تعالى : (لِكُلِّ جَمَلَةٍ مِنْكُمْ شَرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاءَ) ٤٨ / المائدة .

فالدين هو ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على السنة رُسله ، وهو ظاهر غاية الظهور ، يمكن كل معيز ، من صغير وكبير ، وفصيح واعجمي ، ان يدخل فيه باقصر زمان ، وكان الوافد على المدينة يتعلمه ثم يولي في وقته الى موطنه يكفي ما تعلمه

واختلاف تعليم النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الالفاظ بحسب من يتعلم ، فان كان بعيد الوطن ، كضمام بن ثعلبة النجدي ، ووفد عبد القيس الذين اتوا من البحرين : علمهم ما لا يسعهم جهله ، مع علمه ان دينه سينتشر في الافاق ، ويرسل اليهم من يفقههم في سائر ما يحتاجون اليه . ومن كان قريب الوطن يمكنه الاتيان في كل وقت ، بحيث يتعلم على التدريج ، او كان قد علم فيه انه قد عرف ما لا بد منه : اجابه بحسب حاله وحاجته ، على ما تدل قرينة حال السائل ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « قل امننت بالله ثم استقم » .

ثم ان هذا الدين « بين الغلو والتقصير » كما قال الطحاوي ، فقد قال الله تعالى : (قُلْ يَكْفُلُ الْيَكْتَبُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ) ٧٧ / المائدة . وقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ٨٧ و ٨٨ / المائدة . وفي الصحيحين عن انس بن مالك رضي الله عنه « ان ناسا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوا ازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمله في السر ، فقال بعضهم : لا أكل اللحم . وقال بعضهم : لا اقزوج النساء . وقال بعضهم : لا انام على فراش . فبلغ ذلك

النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما بال اقوام يقول احذكم كذا وكذا ؟
لكني اصوم وافطر ، وانام واقوم ، واكل اللحم ، واتزوج النساء ، فعن
رغب عن سنتي فليس مني .

ثم هذا الدين « بين الامن والاياس » وانه يجب ان يكون العبد خائفا من
عذاب ربه ، راجيا رحمته ، وان الخوف والرجاء بمنزلة الجناحين للعبد في سيره
الى الله تعالى .

● ولما انتهى الامام الاجل ابو جعفر احمد بن سلامة الازدي
الطحاوي رحمه الله الى هذا الموضع ، وقرّر فهمه لاصول العقيدة
الاسلامية وفروعها : اختتم كلامه قائلا : (فهذا ديننا
واعتقادنا ، ظاهرا وباطنا ، ونحن بُرّاء الى الله تعالى من كل من
خالف الذي ذكرناه وبيّناه ، ونسال الله تعالى ان يُثبتنا على
الايمان ، ويختتم لنا به ، ويعصمنا من الاهواء المختلفة ، والآراء
المتفرقة ، والمذاهب الرديئة ، مثل المشبهة ، والمعتزلة ،
والجهمية ، والجبرية ، والقدرية وغيرهم ، من الذين خالفوا
السنة والجماعة وحالفوا الضلالة ، ونحن منهم بُرّاء ، وهم
عندنا ضلال وأردياء ، وبالله العصمة والتوفيق) .

وسبب ضلال هذه الفرق وامثالهم : عدولهم عن الصراط المستقيم ،
الذي امرنا الله باتباعه .

قال تعالى : (قُلْ مَلِكٌ سَبِيلٌ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)
١٠٨ / يوسف .

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه :

« خَطُّنَا ، رسول الله صلى الله عليه وسلم خطأ ، وقال : هذا سبيل
الله . ثم خطَّ سطوطا عن يمينه وعن يساره ، وقال : هذه سُبل ، على كل
سبيل شيطان يدعو اليه ، ثم قرا : وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا
تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

ومن هاهنا يُعلم ان اضطرار العبد الى سؤال هداية الصراط المستقيم
فوق كل ضرورة ، ولهذا شرع الله تعالى في الصلاة قراءة أمّ القرآن في كل ركعة ،
لاحتياج العبد الى هذا الدعاء العظيم القدر ، المشتمل على اشرف المطالب
واجلها ، فقد امرنا الله تعالى ان نقول :

(اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب
عليهم ولا الضالين) ٦ و ٧ / الفاتحة .

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال .
« اليهود : مغضوب عليهم ، والنصارى : ضالون » .
وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :
« لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوً الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ ؛ حَتَّى لَوْ دَخَلَ
جُحْرُ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ : الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ :
فَمَنْ ؟ » .

قال طائفة من السلف : من انحرف من العلماء ففيه شبه من اليهود ،
ومن انحرف من العباد ففيه شبه من النصارى .
نسأل الله السلامة والعافية ، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون ،
وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

